جامعة الجزائر
معهد الفلسفة

مشكلة التاريخ

عند مالك بن نبي

رسالة لنيل شهادة الماجستير

إعداد الطالب

الأخضر شريط

تحت إشراف

الدكتور: عبد الرزاق قسوم

السنة الجامعية: 1988 - 1989

((من علمني حرفا صرت له عبدا))

" أثر " .

مقدمة

اذا كان التاريخ هو الغاية من تطور الدولة فان الحركة التاريخية تكون محددة من أسس انطلاق هذا التاريخ هادفة نحو وجهة تتسم بالتغيير والتطور ، فلماذا تتدهور حضارة وتقوم أخرى ؟ و اذا كانت الحركة التاريخية هي خلاصة جدل قائم بين الفكرة ونقيضها فما هي الغاية لهذا الجدل و اذا كان الجدل هذا قائم على أسس " موضوعية " فما مصير الانسانية ؟ فهل يتدخل العامل الديني في أسس الجدل ليحسم الموقف ؟ وهل هذا العامل الديني يتسم بالجغرافيا ؟ جملة تساؤلات حاولنا أن نجد لها جوابا في فكرة مالك بن نبي من خلال تطرقه من حين لآخر لفكرة التاريخ ، و للحركة التاريخية وكيف يمكن لها أن تؤول نحو غاية يسميها الحضارة .

و لقد كان لهذه التساؤلات المعقدة محاولة مني لايجاد معالجة لها قد تكون علمية أو موضوعية - لسنا ندري - لكنها محاولة متواضعة و قد لا تتسم بطابع العلمية أو بطابع الموضوعية لأن هناك جملة صعوبات و قفت حجر تعثر آمامنا و سنأتي الى ذكرها بعد أن ندلي بمحتويات هذه المحاولة .

خصصت الباب الاول لإلقاء نظرة في فكرة التاريخ عند العلامة المسلم عبدالرحمان بن خلدون ، و كيف يربط التاريخ بتطور الدول و تعاقبها عبر أحقاب وفترات زمنية ، و حاولت أن أقارن بين فكرته عن الدورة الحضارية و فكرة مالك بن نبي فيها ، و بعد تحليل حاولت أن أركب باستخلاص أن تفسير ابن خلدون للتاريخ مبني على أساس بيولوجي وهو يقدم لنا فكرة عميقة عن العمران البشري وتطوره عبر مراحل تاريخية معينة، و لاحظنا أن الفكرة عنده كانت لاتحتاج الى عالم حياة و انما الى مهندس اجتماعي أيضا .

و خصصت الفصل الثاني من هذا الباب للنظر في عقلانية هيجل فوجدت أنه يبني التاريخ على أسس عقلية فيصور أن الشعوب التي تعيش التاريخ هي تلك التي بلغت مرحلة من الوعي ، ثم ان التطور يحصل فيها بطريقة او المنهج الديالكتيكي بين الفكرة و نقيض الفكرة و بين هذا والتركيب بينه .
و لاحظت أن هيجل رأى التاريخ بدأ من اليونان لتغيب شمسه في العصور الوسطى و لتبزغ مرة أخرى في الشعوب الجرمانية و يبقى " النهار" عند هذه الشعوب لأن أمريكا حسب هيجل هي أرض المستقبل و بعد تحليلي لهذه الأفكار لاحظت على أن هيجل يتناسى أو يتجاهل مافعله " العقل " في القرن التاسع عشر و في القرن العشرين في الشعوب التي تعرضت للاستعمار من طرف "العقل " و العقل الاوروبي هذه المرة !؟ و استخلصت في تركيبي للتحاليل السابقة أن التفسير الهيجيلي يميل الى العنصرية. و مع الفصل الثالث انتقلت الى فكرة التاريخ عند كارل ماركس فحددت المنهج الذي استقاه من هيجل نحو الذي قيل عنه أنه قلب هيجل على رأسه متبنيا أن عامل التطور الاجتماعي في التاريخ أساسه الاقتصاد، هذا ايمانا منه بالمادية التاريخية التي بنى قواعدها على الديالكتيك ، و سلم أن الصراع "هو باني التطور " أساسه مادي . و حسب دراسته للتاريخ البشري الذي بين فيه أن هذا الاخير مر بمراحل تاريخية كان العامل المحفز فيها للتطور مادي وحسب ، و عدت في تحليلي لفكرة التاريخ عند ماركس و لاحظت مدى تأثرها بالداروينية .

.../...

و استخلصت أن التفسير الماركسي للتاريخ الإلهوني أساسه تهاوي الكل .

و في الفصل الرابع من هذا الباب انتقلت الى أرنولد توينبي في تفسيره للتاريخ فلاحظته يضع عاملا التحدي ـ و الاستجابة " عوض المنطق الجدلي " في تفسيره للحركة التاريخية .ايمانا منه أن التاريخ البشري بنى حضارات في بيئة صحراوية كما بناها على ضفاف الأنهار ؟ فيرى أنه في حالة ما اذا تنحى عامل التحدي فلا تكون هناك استجابة و هذا بالضبط ماحدث مثلا لشعوب الاسكيمو،التي تحجرت في القطب الشمالي و لم تستطع أن تتحدى تلك الطبيعة القاسية.وهو أيضا ما حدث للشعوب انقرضت أوكادت أ ن تنقرض نتيجة لعدم قدرتها على التحدي الطبيعي: كشعوب الهنود الحمر وشعوب روما القديمة ، وبعد تحليلنا لسير الحركة التاريخية استخلصنا من هذا التفسير أنه يغلب العامل البيولوجي النفسي على عوامل آخرى طالما تحكمت في هذه الحركة .

و خصصت الباب الثاني لأصل فكرة التاريخ عند مالك بن نبي .

ففي الفصل الأول تكلمت عن المقارنة التي يجريها بن نبي بين المذهب المادي والمذهب الغيبي : ليرى أن المذهب المادي انتهى الى فكرة " الحاجة" أو الى فكرة "المنفعة" . وان المذهب الغيبي هو الذى بنى قاعدة على أساس تلك العلاقة " العمودية ـ الأفقية " . بمعنى أن العلاقات الانسانية كانت ا... الصبغة فيها ـ رغم"لا ئكيتها"ـ دينية . كذلك كان شأن القانون التشريعي الفرنسي أيام"نابليون بو نابرت ... "

و في الفصل الثاني من هذا الباب و جدت ضرورة تحليل معامل الفعالية الذي صاغه المؤلف في تفسير تو ينبي لكن هذه المرة حسب وجهة القرآن الكريم و بعد تحليلنا لمدى العمل الذي تقوم به فكرة الفعالية في الافراد وفي المجتمع وبالتالي في التاريخ عززنا هذه الفكرة ببعض الأمثلة . .

و في الفصل الثالث من هذا الباب تطرقنا لفكرة الوعد و الوعيد لأنها حسب مالك بن نبي قضية يمكنها أن تكون بمثابة طرفي حد تجعل الضمير المسلم محافظا على فعاليته دون ان تسقط في التفريط أو أو في الافراط ، هذا شرط أساسي لها .

.../...

و دعمنا الفكرة بأمثلة و ركبناها بقدر تحليلها بمقارنتها مع الفكرة عندالمعتزلة .

و خصصنا الباب الثالث لفكرة التاريخ من عواملها .

ففي الفصل الأول تطرقنا الى فكرة " عالم الأشخاص " فحللناه باعتبار عالم العلاقات الاجتماعية المبني على أساس قويم تلعب فيه الاخلاق دورا كبيرا في تمتين الروابط بين أفراد المجتمع وفي ذات الفرد نفسه بتقويم سلوكه نحو وجهة يؤمن بها المجتمع:" فكما أن الانعكاس الفردي يخلق شروطه في المجتمع فان الانعكاس الاجتماعي يخلق شروطه في ذات الفرد" و بضرب أمثلة على تحليلنا هذا استخلصنا أن هذا العامل لا يقوم و حده .

و مع الفصل الثاني من هذا الباب تطرقنا الى فكرة "عالم الأفكار" ايمانا من المؤلف أن الفكرة تكون لها قيمة رياضية عندما تكون صحيحة و [illegible] في الآن نفسه و بالعكس يفقدها هذه القيمة و هي بالتالي لا تساهم في توجيه التاريخ و بعد تحليلنا لنوعين من الأفكار : الأفكار الصادقة والأفكار المخذولة و كيف أن الأولى يمكنها أن تمارس نشاطها في ذاتية الفرد التاريخي و كيف أن الثانية سواء منها "الأفكار الميتة" أو "الافكار القاتلة" تساهم اما في عرقلة المسيرة التاريخية أو في انحرافها عن غاياتها الأسمى للتاريخ و في كل الذي سلف كان تحليلنا مقارنا [illegible] بضرب أمثلة .

و مع الفصل الثالث تطرقنا الى فكرة "عالم الأشياء " حاولنا ابراز ما لهذا العالم من أهمية حسب ما سطره مالك بن نبي ، اذ أن هذا العالم هو:المحيطالمادي و الثقافي للانسان وكيف أن على هذا الأخير أن يضع خططا اقتصادية تمكنه من الاستفادة من هذا العالم دون اللجوء الى الاقتصاد المنظر في المحيط الغير الاسلامي ، لأن هذا الاقتصاد جعل من الانسان آلة صماء أمام فائض الانتاج أو أمام عامل الاكتفاء الذاتي و بعد تحليلنا لتلك المقارنة التي يقيمها بن نبي بين الاقتصاد الاشتراكي والرأسمالي ضربنا عدة أمثلة تؤيد الأفكار هذه .

.../...

إيمانا من أن بن نبي يرى أن التاريخ هو عملية نشاط مشترك بين كل من عالم الأفكار و عالم الأشخاص و عالم الأشياء حسب تحديد مرشبكة علاقات اجتماعية موجهة، فانه يولي عامل البذرة الدينية كأساس تقوم عليه شبكة العلاقات أثناء وهو تركيبنا لتحليل العوالم الثلاث .

و في الباب الرابع حاولنا أن نبين العلاقة بين التاريخ والحضارة باعتبارها فكرتان مكملتان لبعض .

خصصت الفصل الأول لمفهوم الحضارة عند مالك بن نبي فقدمت تعريفها من زاويتين :

أولا : التعريف الاجتماعي للحضارة : من حيث هي أو لا و قبل كل شيء " جو " و مناخ ثقافي و " جو " و مناخ مادي وروحي .

ثانيا : التعريف الوظيفي للحضارة : و هوقائم على أساس التحليل و التركيب و أعقبت كل هذا بتحليل للمعادلة الحضارية التي يضعها المؤلف حضارة = انسان + تراب + زمن .

و في الفصل الثاني تطرقنا الى عناصر الحضارة الممثلة في تحليل لعناصر المعادلة الحضارية انسان + تراب + زمن و بعد تحليلنا لهذه العناصر ضار بين أمثلة تاريخية أشرنا الى العنصر الذي يضعه المؤلف كشرط ضروري للتأليف بين عناصر المعادلة الحضارة ، واستخلصنا أن هذه العناصر يمكنها مجتمعة أن تقوم بالدور الحضاري التاريخي في ذات الفرد الفعال في المجتمع كي يساهم في صنع السيرورة التاريخية .

و في الفصل الثالث من هذا الباب قمنا بتحليل المراحل التاريخية للحضارة التي يضعها المؤلف ابتداء من مرحلة الغريزة فمرحلة الروح فمرحلة العقل فمرحلة ما بعد التحضر، و كنا دائما نلجأ الى أمثلة من التاريخ .

و انتهينا الى تحليل الدور الحضاري التاريخي للانسان انطلاقا من تحقيق شرطين :

.../...

شرط الاقناع و الاقتناع بالفكرة القرآنية و كيف يقومان بفعل موحد مشترك حتى يكون الانسان هذا يقدم دورة " كممثل " و " كشاهد " على عصره وأن يكون حاكما على نفسه وعلى غيره في حركاته التاريخية .

و خصصت الفصل الرابع من هذا الباب لمقارنة بين الحضارة الاسلامية والحضارة المسيحية انتهى بنا تحليلنا الى أن الحضارة تاريخ يستند الى جغرافيا ثم تجاوب لـ : " و تلك الايام نداولها بين الناس " ، وعززت تحليلا في كل هذه بأمثلة واقعية تاريخية مستندة الى منهج التحليل والتركيب.

و ختمت بحثي هذا المتواضع بعدة استنتاجات نعتقد أنها مؤشر نحو بحوث أخرى توفي فكرة التاريخ حقها في فكر مالك بن نبي.

و من الصعوبا ت التي وقفت أمام محاولتنا هذه هـــــي :

أو لا : ان فكرة التاريخ في فكر مالك بن نبــــي تشغل جانبا هاما و جوهريـــا في دراساتـــه لفكرة الحضارة ، هذا يعني أن الفكرة جاء ت مع عمـــق أفكاره في هذه الأخيـــر ة ، أي كون أنـــه لم يخصص لها دراسة خاصـــة في بعض كتبـــه ، كان بالنسبة لمحاولتنا هذه جهدا كبير يتمثـــل في البحث عنها في عمق تلك الأفكار الخاصـــة بالحضارة ، مما اضطرنا الى دراســـة كل ماهب ودب من أفكاره .

و ثانيا : ان فكرة التاريخ عنده لم نعثرلها على دراسة خاصة بها من طرف دارسي فكر مالك بن نبـي ، مما اضطرالى الفـــير مرات عديدة .و تمكنا فعلا من بعضها

و ثالثا : ان الاهتمام بفكرة التاريخ كفلسفة قائمة بذاتها لم تتداول أيضا حتى عند منظر ي الفكـــر العالمي ماعدا دراسة أحد المتخصصيـن فيها الا وهوالفيلسوف الانجليزي " أرنولدتوينـبي" اضطرنا الى النظر في الدراسا ت القائمة حولها ومقارنتها ببعضهـــا البعض .

و من الصعوبا ت الأخرى نذكر صعوبا ت تتمثل في المراجع والمصادر الكافيـة و المتخصصة في فكرة التاريـخ ، ضف الى كل هذا أن هناك جملة مشاكل اجتماعيـة و اقتصاديـــة كون انني كأول محاول في البحث في فكرة التاريخ عند مالك بن نبــي مع التكاليـف الاجتماعيـة الملقاة على عا تقي ، مع التوافق بين البحث والعمل ، مع مواجهـــة مشكل نفسي تمثل في كون انني أعدت الرسالة للمرة الثانية بعدأن رفضت رسالتي الأولى لظروف علمية و موضوعيــة بعد عرضها على لجنة القراء ة و بعدموافقة الأستاذ المشرف الأول بطبعها ؟ "

و مع كل و اكثر لا اريد ان أطيل الحديث حوله اعتقدأنني تغلبت كشاب ناشيء على كل هذه الصعوبات التي يواجهها أي باحث ، وعلى التي لا يواجهها أيضا .

.../...

ونعتقـــدأن الفضـــل الأول يعودالى جميـــع اساتذتـــي الكرام والى الاستاذ المشـــــر ف د/ عبدالرزاق قســــوم الــذي " تبنـــــى" الاشـــــــراف على رسالـــــــة كـان وأن سبـــــق أن رفضـــت و مـدى تحملـــه لكـــــــــل التوجيهــــــا ت و الارشادات في ضـوء رؤيـة للبحـــث ، و أشكره أخيـــــــرا لأنــه كان بمثابـــة " المعـــز ز" الأول لا عـادةدمجي في البحـث أولا،وثانيا لمدى انهماكـــــه في مراجعة بحثـــــي و توجيهاتـه التي لـم يبخل بها علينا ، ومع كـــل هـذا نذكـــر من أعماقنـا أنـه في " الاعادة افادة " شاكريـــن كل من تعلمنا عليـــه حرفا وكل من ساهـــم بقســــط أو بآ خـــر في مساعدتنا لانجاز هــــذه المحاولـة المتواضعـــــــة .

وشكـــــــــرا

الاخضـــر شريـــــط : في1988/08/12.

الباب الأول

الأصول الفلسفية لفكرة التاريخ

الفصل الأول : فكرة التاريخ عند ابن خلدون
الفصل الثاني : فكرة التاريخ عند هيجل
الفصل الثالث : فكرة التاريخ عند ماركس
الفصل الرابع : فكرة التاريخ عند توينبي

الفصل الأول

فكرة التاريخ عند ابن خلدون

فكرة التاريخ عند ابن خلدون[1] (1332_1406م)

يمكن أعتبار العلامة المسلم ابن خلدون أحدالذين أرسواقواعد البحث التاريخي ، وتأكيد حقيقة أن الحوادث مرتبطة بعضها ببعض. فهو بحق الرائدالأول لدراسة علم العمران في تاريخ الفكرالانساني، حيث أستطاع أن يستخلص دراسته للعمران ، أن الحضارات تتعاقب على الجنس البشري في أربع مراحل هي:

01- مرحلة البداوة

02- مرحلة التحضير

03- مرحلة الترف

04- مرحلة التدهور" التفسخ"

ومعنى هذا أن الحضارة عمرا لعمرالافراد، حيث نجدالأفراد، فيطور بداوتهم يتسمون بالخشونة ، والشجاعة والتعصب ، ممايدفعهم الى تأسيس الدولة التيتمثل الطورالحضاري فيحياتهم ، ويستمرون في مسيرتهم التحضرية ، الى أن ينغمسوا في قمة الترف الذي هو الموءشرالأول لبداية التدهور" التفسخ"

وأما عن التاريخ في حركته فهو" تمثل لتلك الجماعة التي تنقلب في صور مختلفة من حالة البداوة ، ثم القبيلة ، ثم الدولة "[2]. وأما عن القوة المحركة للجماعة فهي الدين والعصبية باعتبارهما أقوى عاملين يتم بهما اتحادالجماعةبارادة الحاكم ، وبما يوءلف بين أفرادهامن حاجات ومن أمور.

ومن تحليلنالهذا الكلام الذي قديبدوا غامضا للقارئ ندرك أهمية العصبية ومالها من دورأساسي في البناء الفردي أو الجماعي ، وبتعبيرابن خلدونفانها " الرابطة الحيوية "التي تشدالافراد بعضهم لبعضاذا أنهاالقرابة الطبيعية ، وهو

---

1) عبدالرحمن ، بن خلدون : الموسوعة الفلسفية المختصرة ،اشراف زكي نجيب محمود دارالقلم ، بيروت ، لبنان (بدون تاريخص14.

2) المصدر نفسه ، ص14.

بهذا يخالف فكرة أوغست كونت(1857م) القائل أن الاتحاد والانسجام بين الأفراديتم " بتلاحم اللحمة العقلية مع اللحمة العاطفية "[1]، بمعنى أنه لابد من مستوى عقلي مقبول،ولابد من مستوى عاطفي أيضا مقبول،حتى يتم الاتحاد، وهذا لايوءهل المجتمع"البدائي"مثلا" للاتحاد" أو"الانسجام" ، لأن هذا المجتمع فاقد للشرطين السالفي الذكر، ومن هنا فان مايمكن أن يقال في هذا الشأن هو أن تفسير "كونت"، لم يأخذ في الحسبان هذه الحالة ، رغم مايدعي من أنه وضع فلسفة للتاريخ يتجلى مضمونها، في أن التاريخ صيرورة من المرحلة الكهنونية الى الميتافيزيقية الى العلمية الوضعية ، وبخلاف هذا فان ابن خلدون يرى أن القرابة الطبيعية هي الواسطة التي يلتحم الأفراد بها ، ومن هنا تكون لهم نفس العصبية بمعنى أن لهم نفس المزاج البيولوجي، اذا فالخصائص الطبيعية والوراثية هي التي تتحكم في علاقاتهم .

وبهذا المعنى فان تفسير ابن خلدون يصبح صحيحا أكثر في مجاله التاريخي اذ أن التلاحم يحصل في بداية التطور ، وشاهدعيان ذلك المجتمع القبلي الجاهلي ،على أيام بعثه النبي (ص) أومجتمع مابعد الموحدين على أيام ابن خلدون ،ويتجلى لنا ذلك واضحا حين يحدثنا القرآن الكريم عن تلك القبائل من الأعراب حينما يقول: ((قالت الأعراب آمنا ، قل لم توءمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم))[2] أو في قوله تعالى :((الأعراب أشد كفرا ونفاقا ...))[3]

ويولي ابن خلدون مفهوم العصبية أهمية كبرى، حتى أن الملك والدولة العامة في رأيه يحصلان بغلبة العصبية ،وابن خلدون حينما يوءكد ذلك فانه لاينفي الخصائص الطبيعية للانسان التي من سماتها التنافس والغلبة في شكل صراع حاد بين الأفراد، والذي في رأيه أساس كل تطور اجتماعي في التاريخ، بينما ابن خلدون يصور التنافس والغلبة في شكل ضرورة تفرضها العصبية" الملقحة "بالدين

---

1)محمد البهي: الفكر الاسلامي في مواجهة الاستعمار الحديث، المكتبة العصرية ،صيدا بيروت، بدون تاريخ ص55.

2)سورة الحجرات آية 14.

3) سورة التوبة آية 98.

وحينئـــذ ينفـي كل شكـــل من أشكال الصراع الذي ربما ـ في كثير من الحالات كان صـراعـا دنيويـا لحتـا ، أي خاليـا من أي دافـع روحـي ، غائي هـادف ولنقـف هنـا لنتأمـل مفهـوم التنافس والغلبـة للعصبيـة ، فنجدأنه لايمـت بصلـة الى التفسير " الطبيعـي "المتمثـل في فكرة"الحاجـة " عند" كارلمـاركس (1883م) ولافكـرة"المنفعـة" عنـد" ادم سميث"*(1790م)، لأنّ هـذا التفسير لايحقـق لنـا الغائيـة التي تعمل عملها في التنظيـم الاجتماعي للافراد وبالتالـي في تاريـخ شعـبما . وتفسيـرالماركسية في فكرتها هـذه عن الحاجة تصـور لنـا الانسـانالمادي والمادي في حال اشبـاع " حاجة" بطـن. أو في حال اشباع لـذة مـال كمـا ترى الرأسماليـة .

فالتنافس ليس من أجل الصراع كما تقول النظرية الماركسية وليسمـن أجـل الحيـاة الراغـدة كما تقـول زميلتهـا الرأسمالية ، بل أنه تنافس طبيعـي غيـرأنـه هادف الى توجيـه السلـوك الاقتصادي نحو علاقـة أفقيـة تربـطالفـرد بالمجتمـع من جهـة ، ومن جهـة أخـرى فهـي علاقـة عموديـة يتحكم فيهـا الوازع أو السلطـان كما يقـول ابن خلـدون.

لاحظنـا أن الملـك والدولـة العامـة أنمـا يحصلان بالغلبـة والعصبيـة يقـول في هـذا المعنـى ابن خلـدون:" ان الملـك منصـب شريـف ملذوذ يستمل على جميـع الخيـرات الدنيويـة والشهوات البدنيـة والملاذ النفسانيـة فيقع فيـه التنافـس، وقلأنيسلمـه أحـد لصاحبـه الااذاغلـب غلبـة فتقع المنازعـة وتفضـي الى الحـرب والقتـال والمغالبـة وشيء منها لايقـع الابالعصبيـة ".(1)

---

*) كارل ماركس فيلسوف أشتراكيالماني(1818-1883م)صاحب البيانالشيوعي مع أنجلز فريدريك" ورأس المال" الموءلف الاساسـي للماركسية .

*) آدمسميت اقتصاديأنجليزي(1723-1790) صاحب نظريـة الاقتصـادالحـر.

1) ابن خلدون ، المقدمـة ، تحقيق عبدالواحدوافي، الطبعة الثانية، لجنة البيان العربيـة (بدون تاريخ) جـ 2ص637.

وبهذا نرى أن ابن خلدون لاينكر القتال والحرب باعتبارهما شروراً لابد منهما وباعتبارهما قوتي شر لامناص منهما ، اذ أنه لايمكننا أن نتصور الحياة بدون هذا الجانب الذي هو جانب سلبي بالنسبة للحياة في طورها الحضاري، أعني أن جانب الشر له دور، ولذلك فهو ينجم تلقائيا عن التطور التاريخي، بمعنى أن الشر في هذه الحال ليس مفتعلا من طرف عنصري ، التنافس والغلبة ، بل هو يسايرهما حتى يتمكنا " هاتان الاثنتان " من أداء دورهما الايجابي في الحياة ؛ وهو تفسير لم تستطع أية نظرية على مدار التاريخ أن تتنكر له :" سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا"(1).

ويحلل لنا ابن خلدون الدور الايجابي الذي تقوم به هذه القاعدة : " العصبية "، من أجل بناء صرح التاريخ ، فأهميتها في سير الحركة التاريخية تتحدد عنده كالتالي :

- انها تستند الى البداوة في الأول ، أي حيثما وجد البدو تتوغل فيه العصبية ، والافراد في هذه الحال يكونون مهيئين نفسيا مزاجيا بفضل طبيعتهم الخشنة لتمتين صلة القرابة فيما بينهم ، ويستدل ابن خلدون على ذلك من مدى الاختبارات التي فرضها القرآن الكريم على الاعراب، ونجد في مقدمته أوصافا كثيرة للبدو لاداعي لذكرها في هذا المقام ، وأشهرها أن البدو مفطورون على الخير ، والافراد في مرحلة البداوة مستعدون أتم الاستعداد لاقامة صلات التعاون والبناء وتشييد معالم " القوة "* دائما باشعاع من العصبية بوازعها الديني.

---

1) سورة الأحزاب ، آية 62.

*) القوة عند ابن خلدون ، بمعنى البأس، ولايمكننا حملها على المفهوم المادي.

سقنا آراء ابن خلدون هذه حول العصبية ، وذلك من أجل ايضاح القاعدة الاولى التي ينبني عليها تفسيره للتاريخ، وإلا استحال علينا فهم التطور التاريخي ويتحتم علينا الآن أن نقف مع تفسيره لتطور الدول وتعاقبها ، حتى تكون قد ألممنا بالتفسير التاريخي لهذا المفكر من الناحية الموضوعية .

إن ابن خلدون يرى أن الدولة تمر بأطوار على النحو التالي:

- **الطور الاول:** ويسميه ابن خلدون بطور الظفر بالبغية والغلبة وغلبة المدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها .

ويكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد(.....) وينفرد دونهم بشيء منه لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع فيها الغلب وهي لم تزل بعد بحالها "[1] ويعني من كلامه هذا أن صاحب الملك لايتم له ذلك الابعدة شروط أولاها أن يكون مالكا لأسباب القوة ،(كأن تكون هي العصبية ، وعاملا التناصر والتعاون) .والشرط الثاني أن تكون هناك ظروف تداعت بدولة أخرى الى الضعف والتقهقر مما يجعله (أي صاحب الملك) يستطيع الفتك بها والمسك بزمام السلطان ، دون أن يكون هناك عامل طبيعي آخر غير العامل الذي سميناه ، بعامل القوة التي أكسبها هذا الملك والمتمثل في خشونة أفراده ، وتوثبهم المستمدة من العصبية .

اذن فعملية الغلبة بشروطها الاساسية ، تعتبر ذات أهمية في تطور المجتمع وليس بشيء آخر.

- **والطور الثاني** للدولة عند ابن خلدون هو "طور الاستبداد على قومه (أي قوم صاحب الملك) والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة .ويكون صاحب الدولة في هذا الطور، معتنيا باصطناع الرجال

---

1) المقدمة ص330 .

واتخاذ الموالي والصنائع والاستكثار من ذلك لجدع أنوف عصبية وعشيرية المقاسمين له نسبة الضار بينهم في الملك بمثل سنه ".(1).

وابن خلدون يرى أن هذا الطور ضروري أيضا ، اذ أنه اذا كان الطور الأول كمرحلة سابقة لهذا الطور فان هذا الاخير، ربما كانت فيه الفوضى في التمسك بزمام الملك ، لذلك فان العمليتين تتسمان بشكل ضروري: الاولى أن يقضي على كل محاولة استكبار وتطاول تحاول أن تمسك بالملك ،أي يقهرها مباشرة ." ونجد هذه الأمثلة واردة في التاريخ الاسلامي على عهد زعيم القصر الأموي معاوية بن أبي سفيان قامع الثورات ومجدد الدولة "، وفي الآن نفسه لابد وأن تكون هناك عناية كبرى بالصنائع ، أي الاهتمام بتقوية الشؤون الاقتصادية والاجتماعية كالاهتمام بعامل بناء الدولة اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ، ونجد أن هذه العملية تقدمت في التاريخ عند نابليون بونابارت (1769-1821) ، اذ أنه لم تكن لتشده الحروب في عملية تنوير باريس .

ويعقب هذا الطور طور ثالث، ويسميه ابن خلدون بطور" الفراغ والدعة لتحصل ثمرات الملك بما تنتزع طباع البشر اليه من تحصيل المال،وتخليد الآثار ، فيستفرغ صاحب الدولة وسعه في الحياة ..... وتشييد المباني...... واعتراض جنوده ...... وأدرار أرزاقهم .... فيباهي بهم الدولة المساهمة ويرهب الدول المحاربة ".(2).

يمكن حصر هذا الطور في كلمة واحدة هي " التباهي بالمظاهر المادية والروحية الثقافية للدولة أمام الدول ، أو الدويلات التي تكون في مرحلة أدنى منها في التطور، وهو مانسميه حاليا " بتصدير المعالم الحضارية حتى تأخذ نسيجتها العالمية " ، وهو أسلوب تنتهجه الحضارة الغربية

1) المصدر نفسه،ص330.

2) المصدر السابق نفسه ص330.

من أجل الهيمنة والسيطرة على الدول الضعيفة ، واذ كان تفسير ابن خلدون هذا لايساعد هذه الحضارة الغربية على هذه الروح العنصرية ! لاننا نلاحظ أن تعريف ابن خلدون لعالم الحضارة : ليس من أجل الفخر أو النرجسية ولكن حتى تكون الدولة بمثابة قدوة حسنة للدويلات الاخرى*، أمّا الدولة الحديثة "الغربية" فهي تحاول أن تفرض سيطرتها من أجل ترك العالم الثالث يتخبط في ظلمات الجهل والتخلف لاغير والا ماذا يعني تصدير ثقافة في أوج شهرتها أي "أزمتها" تنكر لها مفكر غربي كتشبينغلر "E .SPHINGER" (1986م) . بكتابه " تدهور الحضارة الغربية ".

وينتقل ابن خلدون في تفسيره لتعاقب الدول الى الطور الرابع من أطوار الدولة والذي يسميه " طور القنوع والمسالمة ، ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا ومقلدا للماضين من سلفه "(1)

ففي هذا الطور يصبح صاحب الدولة ، أو صاحب الملك في استقرار دائم ، بسبب تكيفه النفسي الذي حصل له مع عامة الناس، لكن هذا لايمنعه من الاستفادة من عبر التاريخ ، وبالخصوص من تلك الدولة الاسلامية التي أنتجت حضارة من أخصب الحضارات في التاريخ**

اذا كان الملك في هذه الحال يكون بمثابة قوة وراحة للضمير الانساني وتبصر له بسوالف الامور.

ويعقب هذا الطور طور خامس، وهو الذي يسميه ابن خلدون بطور الاسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفاً لما جمعه أولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على أبطاله ،ففي مجاله

---

*) نقصد بالدويلات تلك التي أنتشرت في عهد ابن خلدون في بلاد المغرب.

*) تشبينغلر أسوالد مفكر ألماني 1936م وجه فلسفته لنقد الحضارة الغربية المعاصرة

1) المصدر السابق نفسه ص331.

**) زيغريدهونكة شمس الله تسطع على الغرب جماعة اسلامية ، دار الفكر،دمشق1978

كان سلفه يوءسسون وهو كان يهدم لما كانوا يبنون وفي هذا الطور تحصل الدولة طبيعة الهرم ، ويستولي عليها المرض المزمن الذي لاتكاد تخلص منه ولايكون لها منه براء الا أن تنقرض"(1)

ان هذا الطور لهو الطور الاخير من أطوار الدولة ، ونلاحظ أنه يتميز بعدة ميزات هي:

أولا: أن صاحب الملك لايصبح جادا في عملية تأسيس أمورعدالته بحيث يتسرب اليه شيء من الملل ، وكل أنواع الراحة ، حتى اتباع الشهوات ، كالاعتناء بمظاهر اللهو ، والترف ، انه يصبح في حالة " مرضية " شبيهة بهرم الشيخ الذي لايصبح قادرا على شيء الا أن يأتي توافه الأمور ، وهكذا تكون رعيته لانه حسب ماورد في الاثر" كما تكونوا يولى عليكم(2)

والنتيجة التي نتوصل اليها من تحليلنا لفكرة العصبية وعلاقتها بفكرة تطور الدولة أن الملك غاية طبيعية للعصبية بل هو غاية لكل " مجد ونهاية لكل حسب"(3) . ولكن تفسخ العصبية ينجم عنه فساد الحسب ، حسب قانون : الموروث من الناس لاينتهي الا فاسدا : وهذا ما ينتهي أخيرا الى التفسخ والاضمحلال وغالبا ما تُحدَّد مدته في العقب الواحد بأربعة آباء"(4)

واذا تفحصنا جيدا نظرة ابن خلدون لتطور الدول مراعين في ذلك جميع الجوانب فاننا نعثر على أنه يرى أن تطور الدولة انما هو " تطور علاقات الملك مع أهل عصبية"(5) .

---

1) المصدر السابق نفسه ، ص332.

2) حديث شريف ، رواه مسلم في صحيحه .

3) المقدمة ص 638.

4) المقدمة ص6565.

5) المصدر نفسه ص6565.

واذا كانت الدولة هي دولة العصبية الغالبة ، فان الملك انما يستمد سلطته منها فان انحراف عن الموصلات التي بوأته الرئاسة داخل العصبية نفسها ، تقلصت العصبية.ومن مدى تدرج العصبية في أهل الدولة من القوة الى الضعف من الالتئام والتعاضد الى الانحلال والتخاذل ، فان التطور يتم في ثلاثة أجيال هي:

أولا: الجيل الذي حملته البداوة على أمن من العصبية فهو في أفراده "على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة ، والافتراس والاشتراك بالمجد ، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم ، فحدهم مرهف ، وجانبهم مرهوب ، والناس لهم مغلوبين"[1] (أي مطيعين).

420367

ان هذا الجيل الأول يصوره لنا ابن خلدون بأنه جيل البداوة ويتميز بعدة ميزات منها ميزات روحية اخلاقية ، وأخري مادية بيولوجية ،فأما الأولى ، كأن تكون أخلاقه حميدة ، وأن يمتاز بالبسالة والبطولة ، وأن يكون محافظا على كرامته وكرمه ، وأن يكون بذلك جيلاشجاعا ، لايخاف أية قوة غالبة ، ثم أنه أيضا ذو بنية بيولوجية قوية ، تمتاز بالخشونة وقوة المزاج .وهذه الميزات ينجم عنها أن هذا الجيل يكون ذا جانب مرهوب ، وحد مرهف ، وكل هذا ناتج عما يملك هذا الجيل من سورة في العصبية ومتانة في التلاحم والتعاون ، وقوة الرباط الذي يوءلف بين أفراده ، اذا فهو جيل يمكن الاعتماد عليه في بناء حضارة

ثانيا : الجيل الذي تحولت حاله "[2] بالملك والترف من البداوة الى الحضارة ، من الشظف الى الترف والخصب ، ومن الاشتراك بالمجد ، الى أنفراد الواحد به ، وكسل الباقيين عن السعي فيه ، وعن عز الاستطالة ، الى ذل الاستكانة ، فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء ، وتدنس منهم المهانة والخضوع.

---

1) المصدر نفسه، 6565.

2) المقدمة ص، 445.

تلك هي الصفات التي جاءت في مقدمة ابن خلدون للجيل الثاني ونرى أنها تميز هذا الجيل - يعني الجيل الثاني بأنه ليس بالجيل الذي ينعم بنعيم الحضارة ، مع أنه لاينسى خلق البداوة بالمرة ، اذا فهو جيل استطاع أن يحقق أهم فترة في التاريخ ، من حيث السلطان وقوة البطش ثم انه الجيل الذي أصبحت فيه الدولة قوية بما تملك من قوة التصرف في المال والمعاش ، وقوة التصرف في العمران البشري وقوة التصرف في الحياة الاخلاقية ، وهو أيضا ليس بالجيل الذي رحل عن موطنه الأولى ، وتخلى عن الصفات الاخلاقية ولم ينقطع عنها اطلاقا ، بل رشحها وثبتها وعمل بها عملا سديدا ، اذ أصبح يوظف كل الصفات الاخلاقية في جميع ميادين الحياة سواء منها الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية ، وحتى السياسية ، وليس عيبا بعد هذا أن يعيش متنعما برغد العيش في الحضارة ، وليس غريبا أن يكون أيضا هو الجيل الذي تبلغ رسالته الحضارية الى دويلات أخرى أقل تحضراً منه ، اذا فهذا الجيل له مكانته الدولية والعالمية .

ثالثا : الجيل الثالث ، وهو الجيل الذي يغرق في نعيم الشهوات ، فهو اذا جيل تنسخ الحضارة ، والملاحظ فيه ، مثلا أن النساء والولدان يصبحون عالة على المجتمع ، وهو اذاً سن الشيخوخة بحيث أن " سورة " العصبية تفتقد " معاملها " " Sa S o l ificient " أي معامل تخصيب العصبية وهو الذي تتفكك الدولة حينئذ ويترتب هذا الجيل اقتسام أملاكه ، فهو الجيل الذي رمت به رياح الشيخوخة الى الممات ، نحو التفكك والاضمحلال انه الجيل الهالك لحضارته " لدولته " كيف لا وقد أصبح شيخا هرما غير قادر على فعل أو ترك أي نشاط مهما كان هذا النشاط ، فأوصاله بدأت تتلاشى ودب فيه الوهن والضعف وأشتعل الشيب في رأسه ، فأموره تسير في فوضى

سياسيـة واقتصاديـة واجتماعية واخلاقيـة وغيرهـا.

ان ابن خلـدون اذن قد جعل في تصوره للحركة التاريخية ثلاث لبنات أساسيـة هـي:

دور العصبيـة في تحفيز البنيان الاجتماعي التاريخـي، والتقسيم المنهجي لتطـور الدولـة ثم أخيـرا دور الاجيـال في تعاقب الدول.

ومع كل هذا لم تسلم نظريـة ابن خلـدون من الانتقادات اذ أخذ عليه بعض النقـاد ونذكر على سبيل المثال منهم الدكتور عماد الدين خليـل في كتـابـه: " ابـن خلـدون اسلاميا ". اذ لاحظ أن ابـن خلـدون، عمم مقولاتـه ذلك:" أننـا بالرجوع الى معطيـات مقدمتـه (أي مقدمـة ابن خلدون) جميعها نضع أيدينـا على عشرين التعميمات لمقولات قد تنطبق على عصر ما أو مكان ما، لكنها لا تنطبق على كل مكان وزمـان"(1) من مثل تحديد الزمن الصارم لأعمار الدول. ومن نشوء الدول لا تقـوم الا بالعصبيـة .... النخ ولنقرأ بما هذا الحكم لعماد الدين خليـل الذي ورد في المقـدمة الخامسة من الباب الأول".... وأعلم أن أثر هذا الخصـب في البـدن وأحوالـه يظهر حتى في حال الديـن والعبادة، فنجد المتقشفين من أهـل الباديـة أو الحاضـرة ممن يأخـذ نفسـه بالجـوع والتجافـي عن الملاذ أحسـن دينـا واقبـالا علـى على العبـادة من أهل الترف والخصب" تحليل صائـب لكنـه مايلبـث أن يمارس التعميـم الذي يبعـد عن جادة الصـواب بدرجـة أو بأخـرى فيقـول:" بل نجد أهل الديـن قليليـن في المدن والأمصار لما يعمهـا من القسـاد والغفلـة المتصلـة بالاكثـار من اللحمان والأدم ولباب البر، ويختـص وجـود العبـاد والزهـاد لذلـك بالمتقشفيـن في غذائهـم من أهل البوادي، وكذلك نجـد حال أهـل المدينـة الواحدة في ذلـك مختلفـا باختلاف حالها فـي الترف والخصـب."(2)

---

1) عماد الدين خليل، ابن خلدون اسلاميا، المكتب الاسلامي ط1 دار الفكر بيروت 1983، ص 104، 105.

2) المصدر نفسـه ص 496.

ان هذا الحكم على مافيه من الاجتهاد ، لايخفى بمواقفنا الكاملة وذلك لكوننا نعرف أن الدعوة الاسلامية شقت طريقها في المدن والامصار وقامت على أكتاف أناس اختلفت حظوظهم من الطعام والشراب ، ونعرف أيضا أن البادية كانت أقرب الى الارتداد بعيد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانه لم يبق مخلصا للاسلام ودولته في تلك الفتنة الجامحة كما تذكر الروايات ، غير المدن الكبيرة الاصيلة في تحضرها كالمدينة ومكة والطائف.(1)

ويمكن للقارىء أن يرجع الى فهارس مقدمته (ابن خلدون) لكي يرى بأن عينه مزيدا من الامثلة على تعميماته ، ان ابن خلدون يسحب على مدى الزمان والمكان ، وقائع هي بمثابة ابداد محدودة من حركة الزمان وأبعاد المكان، ومن ثمة لايجوز لنا أن نستنتج أن الذي دفع ابن خلدون الى اصدار تلك المقولات بحق العرب ، ليس مجرد ردفعل نفسي وفكري ازاء ما أحدثته هجمات بعض قبائلهم في الشمال الافريقي مع ترجيحنا النسبي لهذا العامل وانما رغبة منه في التعميم الذي مارسه في أكثر من مكان والذي يقود بالضرورات الى مد المقولات أو النظريات أو القوانين الى أكبر مدى زماني أو مكاني، لكي يعطيها صفة الشمولية ويجعلها أكثر ثقلا وأهمية في حركة التاريخ على حساب الوقائع التاريخية نفسها".(2).

ومن ثمة ، فانه اذا كانت بعض القبائل العربية في فترة ما من تاريخها لم تقدر على التغلب الا على البسائط ، عمم هذا الحكم في مقدمة ابن خلدون وأصبح :" أن العرب لايتغلبون الا على البسائط ".ولكننا نعرف ماالذي فعله العرب المسلمون خلال فتوحاتهم وكيف أنهم تحدوا جغرافية العالم فلم يقف شيء دونهم" !!

1) نفسه ص105.
2) المصدر السابق ص106.

ويضيف الدكتور عماد الدين خليل أننا نجد من التعميمات غير الموضوعية في بعض الاحكام الاخرى، كالحكم على الرأي القائل" اذا كانت بعض الجماعات العربية لدى تغلبها على أوطان أسرع اليها الخراب بالتعميم في قول ابن خلدون " أن العرب ان تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب" ومع ذلك فان الدكتور عماد الدين خليل يرى أننا نعرف ماتفجر على أيدي العرب المسلمين بعد الفتح من خير حضاري عميم نقل العالم الى الى الأمام تمدنا وتحضرا.

ويرى الدكتور خليل أنه اذا كانت بعض الجماعات بعيدة من سياسة الملك" والحقيقة أننا نعرف أن العرب المسلمين هم الذين ساسوا ثلاث دول كبرى على الاقل لعبت دورا فعالا في تاريخ البشرية ، وهي دولة الراشدين ، ودولة الأمويين في الشام والأندلس ودولة العباسيين.

ثم ان ابن خلدون لم يحدد لنا مصطلح " العرب" الوارد في مقدمته تحديدا صارما لايدع لنا مجالا للشك ، هل المقصود " بالعرب" هم البدو أو العرب ، الذين يتكلمون العربية أم الاثنين معا ؟ ان تحديدا كهذا يبقى نتيجا لنزعة التعميم التي تعتبر أحد مناقض مقدمة ابن خلدون ، وضمن هذا المجال نشير الى ذلك الجدل الذي دار رحاه بين كل من الدكتور طه حسين وساطع الحصري حول لفظة (العرب) وما المقصود بها ، هل المقصود بها العرب بمعنى البدو أم بمعنى العرب كأمة اسلامية ؟.

ان التاريخ يسير في خط معين ، وان الحضارة غير أبدية في المجتمع بل هي مجرد مرحلة زمنية كبقية المراحل ، ان هذه النقطة لفتت أنتباه نقاده، لاننا لو تمعنا في تعريف ابن خلدون نجدها ، لايركز على أن أي مجتمع ينتقل من البداوة الى طور الحضارة ثم الترف فالتدهور بقدر مايركز على

الأسباب التي تؤدي الى هذه المراحل ، وهذا ما أغفل عنه جل من توجه بالنقد لنظرية ابن خلدون . ثم اننا نفهم من هذه النظرية أننا لانستطيع تحديد الفترة الزمنية التي يمكن أن يظل فيها المجتمع في طور من أطوار تطوره، كما نفهم منها أيضا أنه من الممكن أن يرجع المجتمع من مرحلة الترف الى مرحلة التحضر اذا ما استيقظ وأدرك نفسه قبل أن يهوي الى مرحلة التدهور ، وفي هذا المعنى يقول الدكتور عكاشة شايف "الصراع الحضاري في العالم الاسلامي" "ينبغي أن لانحصر مدلول نظرية ابن خلدون في المجال الخاص بتكوين الدولة اذ أن تكوين الحضارة الانسانية يتعدى تكوين الدول وتكوين الدولة ماهو سوى جزء من تكوين الحضارة التي يساهم فيها أكثر من مجتمع فانحطاط أو تدهور بعض الدول الغربية بعد الحرب العالمية الثانية لم يؤد الى انحطاط القارة الأوربية ، لأن شمولية الحضارة هي التي ساعدت الدول المتدهورة على أن تعود من طور التدهور الى طور التحضر دون أن تعاني مرة أخرى من مرحلة البداوة"(1).

ماهي وجهة نظر مالك بن نبي في فكرة التاريخ هذه التي قدمها ابن خلدون انه يرى أن تصور ابن خلدون للحضارة على أساس أنه محصور في ما يسميه ابن خلدون بالدولة هو تفسير ضيق لكنا يتقدم تفسيره الذي ينطبق على الرقعة الجغرافية التي عاشها .

ويضيف مالك بن نبي أن ابن خلدون حينما يصور لنا تطور الدول من جيل الى جيل ، وكأنه يشبهها بالكائن الحي في تطوره من الطفولة الى الشباب فالشيخوخة وهو حسب رأي مالك بن نبي تفسير ضيق لأنه بيولوجي

---

(1) عكاشة ، شايف، الصراع الحضاري في العالم الاسلامي ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1984 ص57.

والحقيقة أن الهوة عميقة بين ما يصدق من مفهوم التطور في عالم البيولوجيا وبين الشيء الذي لايصدق على عالم السياسة والمجتمع.

وللانصاف نقول أنه مهما قيل عن نظرية ابن خلدون في فكرة التاريخ عنده ، فان التاريخ يبقى هو العلة الأولى في تدهور دول وتحضر دول ، ثم . ان ابن خلدون اذا كان قد تفطن الى شيء مما نسميه نحن بفلسفة التاريخ فان تفسيره يبقى مهما جدا خصوصا وأن الحال يقتضي من حين لآخر أن نعود اليه وأن نستفيد من هذا التصور ، ويبقى اذا هو المرجع وهو المصدر لكل فلسفة تاريخ بالمفهوم الاسلامي.

الفصل الثاني

فكرة التاريخ عند هيجل

فكرة التاريخ عند هيجل

أول ما يخطر بالبال . . . يعتبر هيجل من المثاليين التابعين للمثالية الكانتية (1) فثمة حلقة متصلة من كانط فيخته فشلنج فهيجل ولكن هذا التصور لمكانة هيجل بين هؤلاء يبدو تصورا زائفا اذ الواقع ان هيجل ليس الحلقة الاخيرة في السلسلة ، بل يقوم مذهبه مستقلا عن المذاهب الاخرى ولايشترك معها الا في قليل من الصفات ، وفيما عدا هذا فمذهبه أصيل ، ثم انه تأثر خصوصا بالنزعة الطبيعية اليونانية بمدرسة التنوير التي سادت في القرن الثامن عشر واتصل بكلتا الحركتين عبر كانط والمثالية الالمانية عموما . (2)

ويمكن تلخيص مميزات الفلسفة الهيجلية في النقاط التالية :

1- **العقل أو الروح** هو الحقيقة النهائية وأساس الحقائق جميعا ، ولايصل مرتبة ادراك نفسه ادراكا كاملا الا اذا أجتاز عدة مراحل سابقة وأستوعبها في نفسه . والحقيقة والفكر لفظان لهما مدلول واحد وبذلك تصبح الفكرة والشيء الواقعي حقيقة واحدة وتصبح الحقائق الواقعة تعبيرا عن الفكرة وهي التي تكشفه عنها .

2- **الفكر عند هيجل:** وحدة عضوية ذات أجزاء منفصلة ولكنها في الوقت نفسه متصلة فالكل ممثل في كل جزء ، كما أن كل جزء موجود في الكل ومراتب الفكر ان أجزاء متفاوتة من مجموع الحقيقة ولا يعرف منطق الوجود تعاقبا في الافكار بين السابق واللاحق بل ان كل فكرة تتضمن

---

(1) الكانتية نسبة الى الفيلسوف الالماني كانط (1804م)

(2) فيختيه فيلسوف ألماني ويعتبر مع شلينغ ممن ساهموا في وضع القواعد الأولى لفكرة الامة الالمانية .

الاقتصري، وتلخيصها . ومن ثم يصبح التاريخ هو تجلي الحقيقة المطلقة التي لاينقطع وجودها .

3- ان وحدة الفكر انما هي وحدة بين أنواء في الحياة العادية وبالنسبة للعقل العادي ويعني هيجل بذلك أن العقل العادي يتوهم أن أجزاء الكل متناقضة متعارضة لاأنساق بينها ولاأنسجام ، وهو يقع في هذا الخطأ لأنه يرى الجزء فيحسبه كلا في حد ذاته ..

وعلى ذلك يصبح المطلق هو وحدة الاطراف المتناقضة في وحدة شاملة كما يصبح الاساس الأول الذي يوصلنا الى الحقيقة هو الاعتراف باتحاد الاضداد وانسجامها فكل اثبات يتضمن نفيا وكل نفي يتضمن اثباتا .

الديالكتيك عند هيجل:

ان الديالكتيك عند هيجل يرتبط أرتباطا وثيقا بفكرة العقل فهو تبين من طبيعة العقل وماهيته أو هو حوار العقل نفسه ، وهو يحدد في مواضع عديدة مايقصده بالمنهج الديالكتيكي، وخلاصته أنه نمو أو تطور الفكر يجري من الوضع الى السلب الى التأليف بينهما ، أي على أساس هذه النقاط الثلاث من الموضوع الى نقيضه ثم الى الموقف من كليهما أي مركب الموضوع وفي هذا يقول:" إن التفكير الديالكتيكي كما نفهمه هو ادراك التعارض في الوحدة ، أو ادراك الموجب في السالب ، وهذا السلوك هو سلوك الفكر النظري " ويقول في موضع آخر:" - أطلق كلمة ديالكتيك على المبدأ المحرك للتصورات حيث أنه ليس فقط يحل بجزئيات الكل بل وأيضا هو الذي يحدثها " . واللفظ ديالكتيك لايعني أن موضوعا أوقضية أوشيئا معطى للشعور أو العاطفة أو الوعي المباشر ينحل ويفتلط من أجل أن نشتق منه متناقضاته ، فهذا هو الديالكتيك السلبي كما نجده عند أفلاطون

لأن النتيجة الأخيرة لهذا الديالكتيك السلبي هي أن نقدم الشك في أمثال ما . وهو أمر يمكن أن يدرك على نحو ما أدركه الشكاك القدماء على أنه تناقض أو يدرك على النحو الفاسد الذي أدركه عليه المحدثون أي على أنه اقتراب من الحقيقة ، بينما الديالكتيك العالي للتصور نحو إدراك التحديدين لا على أنه حدود متضاد ، بل أيضا على أنه يخرج من ذاته محتوى ونتيجة إيجابيين ، وعلى هذا فالديالكتيك يمكن أن يكون تقدما باطنيا محايثا وعلى هذا فالديالكتيك ليس نشاطا ذاتيا لفكرة خارجية ، بل هو عينة روح المحتوى الذي ينتج عضويا فروعه وثماره ، انه الفكرة التي تنمو بفضل نشاط عقليتها الداخلي وهذه الحركة الثلاثية ليست قاصرة على الفكر بل انها تتناول العالم بأسره وكل ما هو موجود في العالم من تاريخ وطبيعة وفلسفة ودين وسياسة .

فلسفة المطلق عند هيجل:

يقول هيجل في تعريفه المطلق بأنه الروح ، واستكشاف تلك الروح وفهمها هو الغرض من كل فلسفة وكل ثقافة ، وهي النقطة التي تتلاشى عندها صور المعرفة جميعها من علم ودين ، ويرى هيجل ان ادراك الانسان للكون يتحتم عليه أن يبحث عن تعليل للكون ، وهو يرفض ادراكنا للعالم عن طريق التصوف والهام البصيرة ، ويرى أن الوسيلة الوحيدة لادراك الكون هي انتقالنا من مراتب العقل الدنيا الى مراتبه العليا ، ولا تستطيع الفلسفة أن تنتقل من النهائي الى اللانهائي دون أن تعترف بنقطة البداية ، يقول هيجل في كتابه "فلسفة الحق" : "ان ما هو عقلي حقيقي وما هو حقيقي عقلي" . وهذه العبارة هي مفتاح فلسفته ، فالحقيقة كلها تعبر عن العقل والكون كله يحقق وجود الفكر .

لقد كان المطلق في أول أمره فكرة خالصة أزلية ثم عبر الى الطبيعة حيث تحول الى لاشعور ، ثم عاد فاستيقظ في الانسان ثم أخذ يحقق نفسه فيما ينشأ في العالم من نظم هو هدف مازال في مفهومها ، ويجب أن تتحرر بهذا المفهوم لكي تكتسب واقعا مستقلا .

المجتمع :

ان اتساع الأسرة ، بوصفه انتقالا من الأسرة ذاتها الى مبدأ آخر هو في الوجود تارة مجرد نمو هذا الوجود في شعب أو أمة ، لها بالتالي أصل طبيعي مشترك ، وهو تارة أخرى تجمع جماعات أسرية مشتتة اما بقدرة سيد أو بالقبول الحر ، وتدخل تحت هذا الاتحاد الحاجات التي تربط كل جماعة بالجماعة الأخرى والعمل المتبادل الذي ترضى به كل واحدة أخرى.

والناس يدخلون في علاقات اجتماعية متنوعة ، ويشكلون جماعات ومنظمات ويقيمون مؤسسات سياسية مختلفة من الأسرة الى المجتمع الى الدولة قبل أن تظهر الفلسفة ،وهم لاينتظرون ظهور الفلسفة لتعلمهم كيف يقيمون النظم السياسية أو كيف تبني الدول، ان الفلسفة تأتي لتجد أن الواقع الاجتماعي قد أكتمل بناؤه ، وهي عندما تعبر عن هذا الواقع في صورة مذهب فلسفي فهي انما تعبر عن الأفكار السائدة التي تعتبر محاور سياسية يرتكز عليها بناء المجتمع . فمهمة الفلسفة اذا هي الكشف عن الأفكار الأساسية أوالركائز العقلية التي يقوم عليها هذا البناء.

الدولة :

الدولة هي الجوهر الاجتماعي الذي وصل الى الشعور بذاته ، وهي تجمع في ذاتها بين مبدأ الأسرة ومبدأ المجتمع المدني ، والوحدة التي

توجد في الأسرة على أنها شعور بالمحبة هي جوهرها ، لكن الجوهر ماهنا أرتفع من خلال المبدأ الثاني ، أي من خلال الارادة الحرة العاقلة الى ماهو كلي:

ويقول في موضع آخر:" الدولة هي تحقيق الفكرة الاخلاقية ، والروح الاخلاقية هي الارادة الظاهرة المتميزة الجوهرية التي تعقل ذاتها ، والدولة هي تحقق الحرية العينية ، وبما أن الحرية هي جوهر العقل ، والدولة الجانب الموضوعي للعقل ، فان الحرية هي جوهر الدولة ويضيف هيجل: " ان الدولة هي واقعية الحرية في هذه الحالة فان الحرية تقوم على الفردية " يتعلق بها من مصالح تتلقى نموها وحقوقها بذاتها وهذا في اطار الاسرة والتنظيمات الاجتماعية المدنية وانها أي الفردية من تلقاء ذاتها وبدون توجيه تندمج في المصلحة العامة وتعيها وتريدها لأن هذه المصلحة العامة هي روح الدولة وغايتها النهائية وكنتيجة لهذا فانه لامعنى للكلي الذي هو مجموع الأفراد ولاقيمة من دون وعي وارادة هؤلاء الأفراد له ، ففالية الأفراد وارادتهم الواعية له هي مصدر قيمته ومعناه ، يقول هيجل: بما أن أفراد الجماعة اجتماعية وفن ودين وعلم ، فازداد بذلك ثروة وكمالاً ثم عاد الى نفسه آخر الأمر مرة ثانية .

فكرة الحرية عند هيجل:

لايمكن بحال من الأحوال أن نبحث في فلسفة هيجل السياسية دون أن نتعرض بالتحليل لنظريته في الحرية ، ان الحرية عنده جوهر الروح ، فكما أن جوهر المادة هو الثقل فكذلك الحرية هي جوهر الروح بل ماهيتها اننا نشعر شعورا مباشرا بأن الحرية هي في مقدمة السمات التي تتميز بها الروح ان لم نقل بأنها الصفة الأولى التي تتمتع بها الذات،

ولكن الفلسفة تعلمنا أن كل الصفات الاخرى التي نتملكها الذات انما تقوم أولا وقبل كل شيء على صفة الحرية ، مادامت كل هذه الصفات ، انما هي بمثابة وسائل أو أدوات مجعولة من أجل تحقيق الحرية ، وليس في الروح مبدأ يمكن أن نحدده بمثابة الحق الأوحد اللهم الا الحرية ، وتبعا لذلك فان محور الارتكاز في الفلسفة النظرية أو التأملية كلها انما هو مفهوم الحرية.

الدولة غاية التاريخ الهيجلي:

تمثل الدولة غاية التاريخ عندهيجل " وذلك بتجلي فكرة المطلق فيها ومع ذلك فهي نتاج تطور من الاسرة فالمجتمع المدني فالدولة ، هذا الطريق الطويل في التطور يشمل برمته وقائع التاريخ وعلينا أن نتفحص الان بقدر الامكان كلا من الاسرة والمجتمع المدني لنصل الى الدولة فما هي الاسرة عند هيجل؟

الاسرة عند هيجل:

تتحدد الاسرة من حيث هي جوهرية مباشرة للروح ، بوحدتها الشعورية بالحب ، بحيث ان استعداد الروح الخاص يكون هو وعي امتلاك المرء لفرديته في هذه الوحدة ، التي هي الماهية في ذاتها ولذاتها ، ووعيه بأنه لايكون موجودا فيها ، الا بوصفه عضوا وليس بوصفه شخصا لذاته .

ان الحق الذي يخص الفرد بموجب وحدة الاسرة والذي يكون حياته في هذه الوحدة لايتخذ صورة الحق بوصفه لحظة مجردة للفردية المحددة الا حينما تبدأ الاسرة بالتفكك ، أي أن وجودهم الشخصي والواقعي في الأول كان يدخل في لحظات تكوين الكل .

وتنقسم الاسرة بصورة طبيعية وجوهرية ، وفقا لمبدأ الشخصية الى عدد من

الأسر التي تتصرف عضوياً كما يتصرف الأشخاص الشخصيين المستقلين وتكون نتيجة ذلك في علاقة خارجية فيما بينها ، وبتعبير آخر فان ما يربط الأسرة بوصفها معنى اخلاقي هم كائنات روحية هم ذواتهم ، ويحملون بالتالي عنصري الفردية القصوى الواعية الارادية والكلية القصوى التي تعرف الواقعية الجوهرية وتريدها .

والدولة بوصفها روحا لايمكن أن تكون الا مشابهة كل يتفاضل الى ألوان من النشاط الخاصة تصدر عن نفس الفكرة الخاصة بالحقوق ، والتشريع هو التوزيع العضوي للقوة الدولة وهو الذي يتضمن التعينات التي وفقا لارادة العقل لاتوجد في الأفراد الا على سبيل الامكان والقوة لكنها عن طريق التشريع تصل الى الشعور والوعي بذاتها .

وتشكل المؤسسات أو الدستور القاعدة الثابتة للدولة كما تشكل في الوقت نفسه ثقة الافراد ومشاعرهم المدنية أيضا ، وهذا يدل على توفر دعائم الحرية العامة لأن الحرية الخاصة تكون بها متحققة في الواقع وعقلية في الوقت نفسه وتشكل القوانين في الدولة الأساس الدال على مفهوم الحرية الموضوعية ، وهي تبدو للذات الفردية وارادتها الاعتباطية ومصالحها الجزئية تبدوا وكأنها حواجز وحدود لكنها في المقام الثاني غايات مطلقة ، وفي المقام الثالث توحد جوهر الارادة الفردية التي نجد في هذه القوانين حريتها بحيث تصبح هذه القوانين بمثابة عادات أخلاقية اجتماعية لها قيمتها في حقيقة هذه الشخصية .

وهيجل يمجد الدولة يرى فيها الكائن الاجتماعي الأكبر ، ويرى أن الانسان لايصل الى الحرية الحقيقية الا عن طريق الدولة وذلك حينما يعيش الانسان القانون بدلا من أن يخضع له خضوعا سلبيا ، فانه بهذا لايصبح قهرا بل شكل من أشكال التحرير ، بأن يجعل الانسان يضبط نفسه وفرديته

العينية ووجداناته، الحية، ومنفعته الأنانية وهيجل يضع معيارا لهذه المشاركة في الروح الجماعية أي روح المجتمع ممثلة في الدولة، لكن مثل هذا الوضع لايتحقق الا اذا كانت الدولة جيدة واخلاق الناس متينة". ويرى هيجل أن تقدما من هذا النوع يحدث عن طريق فعل الصفوة المختارة من أبناء هذه الدولة غيرأن عمل هؤلاء الصفوة لن ينجح الا اذا كانت أفكارهم ومشاعرهم ومصالحهم مطابقة للعقل خيرا من الأنظمة الموجودة، وبالتالي يكون أصدق من هذه الموءسسات الموجودة وأقرب الى الكلي:

التاريخ الكلي حسب هيجل:

كنا عرفنا " التاريخ" بأنه تصاعد الفكرة الأولى الأساسية نحو الفكر الكلي، فما هو جوهر التاريخ حسب هيجل ؟

كل ماكتبه هيجل عن التاريخ الكوني يقوم على ابراز العقل عاملا بصورة متصاعدة في الأحداث التي ليس فيها أي حدث عارض بل كل شيء مدموج في" حياة الفكر" ومن هنا كان " تاريخ" هيجل هو" تاريخ" العقل فهو " المحكمة العليا" ودور الفيلسوف هو البحث عن "سبب"الأحداث ذلك أن كل الواقع هو " موضوع" العقل، لكن السوءال المطروح ماهو هدف "التاريخ" حسب هيجل؟ يرى هيجل أن العقل العامل في التاريخ يصل الى غايته بواسطة " حيلة" فهو يستخدم" أهواء"الناس هوءلاء الذين يتبعون مصلحتهم ويحققونها " ولكنهم بذات الوقت يحققون غاية أبعد ، متأصلة ، وان كانوا لايعونها ، ولا هي في قصدهم " وهذه الغاية هي الحرية التي ماهية الروح ومعدن التاريخ ولهذا نرى أن هيجل نحى بالحضارات الشرقية القديمة والقبائل الأمريكية والافريقية في ترتيبه العام للتاريخ الكوني ذلك أن الحرية لم تتحقق الا عند الاغريقيين الأحرار، ولكن بالرغم من احتلال الفكر الاغريقي والعالم

الاغريقي ، لمركز النقيض من تاريخ هيجل عن الحرية الا أنه لم يبلغ الا سن المراهقة في تصور هيجل لحرية "الفكر" ويعود الفضل الى المسيحية التي حطمت " الشمولية الجمالية " للحضارة القديمة ، ووحدت مقولتا " الخاص والعام " في وعي المواطن وبذلك دفعت تقدما كبيرا في مجال الحرية فهل "الفكر" العامل في " التاريخ" هو ذو صبغة فردية أو شعبية ؟

" الفكر في التاريخ الكوني عند هيجل هو "الفكر القومي" " أي نمو مبدأ يرتدي أولا شكل " رغبة " غامضة تبرز الى الخوارج ، وتنزع لكي تصبح موضوعية وتنتشر هذه " الرغبة " في الدين في العلم ، في الفن ، في المصائر وفي الأحداث "، ويقول هيجل " يمثل الفكر القومي - تماما المفهوم الأعلى الذي كونه هذا الفكر عن ذاته ". لكن هذه المرحلة معرفة للتجاوز عند خمود الفكر الناشط. فتحل لحظة العدم السياسي والملل. فيندثر "الفكر القومي" دون أن يموت وينتقل من القوة الى الفعل " يتفصل ، دون أن يفنى غير أنه يترك المجال الى شعب آخر وكل شعب لا تحين فرصته الا مرة واحدة .... وبهذا يبرر هيجل الحروب بين الشعوب وفتح المجال الى التاريخ الكوني أي " المحكمة العليا ".

رأينا كيف أن فكرة هيجل عن التاريخ مبنية أساسا على ما يسميه بالمنطق الجدلي وهو ما أجمع النقاد على تسميته بالمثالية الديالكتيكية ورأينا كيف أن العقل يتجلى ويتوقمن في أسمى مظاهره في التاريخ أي حينما يتحقق من تطور الأسرة الى المجتمع المدني فالدولة التي ترمز في نظر هيجل الى العلاقة الموجودة بين عالم السياسة والمجتمع من جهة والتاريخ من جهة أخرى حين تتجلى بالطبع فكرة المطلق ، ورأينا كيف أن المطلق في نظر هيجل لا يمثل سوى سريان فكرة الروح عبر مراحل تاريخية ما ومع كل هذا فلقد أجمع النقاد على تقديم بعض الانتقادات المتمثلة في التالي

1= بالنسبة للمنطق الجدلي الذي بسنى عليه هيجل فكرته عن التاريخ ، صحيح أن كل شيء مدين بوجوده الى نقيضه ، وأن هناك صراعا أبديا بين الميول والاتجاهات المتضاربة ، وبأنه حين يحقق نظام اجتماعي ماكل فيه من امكانيات يبدأ بالانحلال ، وتتولد من باطنة نفسه قوى تحطمه تماما وتقيم أنظمة جديدة على أنقاضه ولكن هيجل يتوسع فيما يدعيه أكثر مما يجب ، انه يعتقد أن هناك صراعا دائما وتوفيقا بين النقائض وأن الموحد يحتوي على العناصر التي لاتزال فعالة من كل الفرضية ونقيضها ويقر بنا خطوة واحدة من الحقيقة . (1)

2= ثم ان هيجل لايفرق بين ماهو نقيض ، وما هو واضح متميز يقول كروجة بهذا الشأن " من ذا يستطيع أن يقنع نفسه بأن الدين هو عدم وجود الفن وأن الدين والفن ما هما الا تجريديان ليست لهما حقيقة الا في الفلسفة ، موحد الاثنين أو أن الروح العملية هي نفي الروح النظرية ، وأن المحسوس نفي للحدس ، وأن المجتمع المدني نفي للأسرة وأن السلوك الخلقي نفي للحقوق وأن كل هذه التصورات لايمكن التفكير فيها خارج نطاق موحدها الذي هو الروح الحرة ، والفكرة والنزعة الاخلاقية للدولة بنفس الطريقة كالوجود وعدمه التي لاتصدق الا بالصيرورة فقط "(2)

3= وأما قول هيجل بأن النقيض لاينفي الا النواحي الناقصة من الفرضية فانه يؤدي الى سوء فهم آخر ، ان هذه الفكرة تجعل المرء يستنتج أن الصراع بين المتناقضات منطقي تماما وتقوا على انجازه الحكمة الواعية التي يتمتع

---

1) عبد الحميد صديقي: ، تفسير التاريخ ت ، كاظم الجوادي، الدار الكويتية للطباعة والنشر بدون تاريخ ص68.

2) المصدر نفسه ص68-69.

بهـا الأفـراد ، الا أن هيجـل ، على العكس من ذلـك يقـول ان الأفرادليس لـهم في الخطـوط العريـضة من التطور التاريخي الا معلومات بسيطة جدا عما يقولـون به فعـلا، اذأنهم كلهم مجرد أدوات ، وليسوا سادة هذه الصيرورة التاريخيـة فهـذه الصيرورة صيرورة لاشعوريـة بالنسبة للأفـراد.

4= ان الصيرورة الديالكتيكية التي جاء بها " هيجـل" قد علمت الناس عبـادة القـوة وقد ساند هو نفسـه كل رجـل أرتقى عرش السلطـان أ حيـن حاول نابليـون بغـراب جيشـه أن يدخـل العلاقـات البرجوازيـة الى ألمانيـا كان " هيجل" الـذي كان في ذلـك الوقـت يضـع أسلـوبـه الديالكتيكي ، يتجاوب مع الثورة الفرنسيـة ورحب بدخـول جيش نابليـون الى (ينـا) باعتباره التجسيـد التاريخي لشكـل جديـد للروح المطلقـة ثم سمي نابليـون (الروح المطلقـة على جـواد أشهـب ، ولكن بعـد عشـرين سنـة من ذلك حيـن قـوي الحكـم الملكي الاقطاعـي في ألمانيـا والذي كـان على رأسـه فريدريـك وليم الثالث ، كان هيجـل قدفقـد أفكاره الثوريـة وأصبح فيلسـوف الدولـة في مملكـة بروسيـا".

ونريـد أن ننظـر آخـر الأمـر في نظرية هيجـل عن الدولة فيقول" أنه كما يعلـم يعتقـد بأن الانفصـال شـيء لاوجـود لـه في عالـم الحقيقـة ، فالعالـم كما يتصـور ليس مجموعـة وحـدات صلبـة ، ذرات أو أرواح كل منهـا قائمـة بذاتها اتماما.[1] وعنـده أن مايظهـر من استقـلال بين كـل من المجتمع المدني والأسـرة والدولة ماهـو الا خداع " بصري " للذي ينظـر في المجتمع التاريخي دون أن يستعيـن " بتلسكـوب" التاريـخ .

---

1) المصـدر نفسـه ص٧٤ .79 .

الفصل الثالث

فكرة التاريخ عند كارل ماركس

فكرة التاريخ عند كارل ماركس (١٨٨٣م)

يقول كارل ماركس في كتابه نقد الاقتصاد السياسي : "يجب علينا أن نعمل على تغيير التاريخ بدلا من أن نركن الى تفسيره" . وهو يعني من كلامه هذا أن تاريخ البشرية لازال قائما على نظريات تفسره وتشكل الافلاطونية حجر الاساس هذا التفسير تلك الافلاطونية التي زعم هيجل أنه وبانكاره للمنهج الجدلي قد نفض عليها الغبار ، ولكن في الحقيقة مافعله هيجل رغم ابتكاره هذا أنه قطف ثمرة الافلاطونية حسب تعبير كارل ماركس وكان على هيجل أن يعيد النظر في الفكرة من أساسها أي بمعنى أن لايتمسك بقانون التصاعد الذي كشف عنه أفلاطون والذي أحسن تباته الفكر البشري ، بل عليه أن يقول بأن فكرة التصاعد لم تعد صالحة خصوصا وأن الفكرة تناولت من وجهة نظر فردانية وكان عليها أن تتناول من وجهة نظر اجتماعية ، ومن هنا بقي في نظر كارل ماركس أن كل مانطلته النظريات السابقة وهيجل على رأسهم هو أن أصحابها يفسرون الفكرة الافلاطونية بمناهج جديدة ، وهم بهذا كما يقول كارل ماركس شأنهم شأن يوم " سينارنا" لايأتي الابعد الغسق. والفكرة كما نراها هي لهيجل في الاساس الأن كارل ماركس يستغلها ليرد بها عن فكرة التفسير الذي يتهم به هيجل ويقول فيه عنه بأنه روتيني .

هذا الكلام أو ماشابهه نجده في الكتاب الذي مهد به كارل ماركس لاهم أفكاره وهو كتاب" نقد الدولة الهيجيلية ".

وعندما يفرغ كارل ماركس من نقده لفكرة التاريخ عند هيجل يحاول أن يقدم لنا الفكرة في قالبها الجديد وهي التي تتمثل في التالي:

تقوم فكرة التاريخ على تصور عام لتاريخ البشرية نفترض فيه أن هذا التاريخ قام على أساس مراحل " وهذه المراحل هي نفسها التي أسسها أوغست كونت" والاختلاف في نقطة الانطلاق كان أولاها المرحلة المشاعية وهي تلك التي

ساد فيها " الانتخاب الطبيعي" أي هي المرحلة التي أعلنت الانسان لأن يعيش مع الطبيعة ويتوافق معها ، لاشيء غير الانسان الأول وأدواته والطبيعة وكل ماحصل من تكاثر لهذا الانسان الأول كان الملك مشاعا بين أفراد ، لأنه لم يكن هناك أختلاف في أن كل ماهو على الطبيعة غير مباح أو هو ليس في متناول الجميع وكان هذا المجتمع الأول يعيش على الصيد وعلى الثمار التي يجدها في الطبيعة : ان الطبيعة وفرت هذا الحق الطبيعي : ان الانسان يعيش والحق الطبيعي ثم أنتقل المجتمع فيما بعد الى مجتمع زراعي "رغم صيحة روسو. أن أول من حدد أول قطعة في التاريخ هو المجرم" الا أن كارل ماركس رأى أن هذا التطور انما حصل في أساسه عندما تطورت وسائل الانتاج وقوى الانتاج، أي عندما أستطاع الانسان أن يجد أدواته الزراعية من الخشب أو من الحجر، بمعنى على أيام العصر الذي وصفوه بالعصر الحجري الذي ظهر نتيجة لتطور كما قلنا في وسائل الانتاج أي الأداة وقوى الانتاج أي الانسان في ذاك الوقت .ونتيجة للصراع الذي كان بين المالك وبين المملوك كان هناك عصر آخر عرف بعصر الرق حيث كان السيد يملك والعبد لايملك من قوة الانتاج سوى عرقه .وهكذا توسعت رقعة طبقة الرقيق حتى أنها أخذت بزمام الأراضي الكبرى الصالحة للزراعة من يد ذاك السيد لتتحول بها الى الملكية الجماعية ودائما نتيجة لتطور وسائل الانتاج من جهة وقوى الانتاج ، حصل وأن الملاكين الصغار، أصبحوا ملاكين كبارا فعملوا في عهد الثورة الصناعية على ايجاد أسواق لهم داخل وخارج أوربا . وفعلا هنا تحول المجتمع من مجتمع المزارعين الى الحرفيين أو أصحاب الصنائع ، ولنفس السبب .

ويعمل عامل تراكم رؤوس الأموال من جهة وعامل التنافس ، وعامل الاحتكار من جهة أخرى على توفير قاعدة جديدة ظهرت نتيجة تقلص الحرفيين وأصحاب الصنائع بسبب العوامل السالفة الذكر، فحصل وأن وجدت

ويعمل عامل تراكم رؤوس الأموال من جهة وعامل التنافس وعامل الاحتكار من جهة أخرى على توفير قاعدة جديدة ظهرت نتيجة تقلص الحرفيين وأصحاب الصنائع بسبب العوامل السالفة الذكر ، فحصل وأن وجدت "نخبة" من هذه الطبقة والتي هي نخبة البورجوازيين.

فالبورجوازية أيضا ساعدتها على الظهور عاماجملة عوامل أهمها :
التطور الذي حصل في وسائل الانتاج وفي قوى الانتاج ، وأيضا عاملا" الاحتكار" " والتنافس" ، و لكن هذه البورجوازية على حد قول كارل ماركس نفسه "تحمل بذور فنائها بيدها"[1] وعندئذ حسب ماركس فان المجتمع يتحول من البورجوازية الى الاشتراكية ، بتعبير آخر لما تتسع الطبقة الشغيلة أو البروليتاريا فانها تمتص البورجوازيين ، وتستولي على زمام الأمور في الحكم أي لما تتسلط البروليتاريا التمتع جميع الحقوق التي تنازل عليها البورجوازيون قسرا وعن طريق القوة بسبب حكم البروليتاريا .

فالاشتراكية تتحقق فيها جملة مبادىء منها " لكل حسب عمله ولكل حسب حاجته ."[2]، ويصبح اذا المجتمع الاشتراكي تسوده المساواة والعدالة الاجتماعية بحيث يزول استغلال الانسان للانسان الذي كان في الرأسمالية وفي الاشتراكية ، تزول كل العقبات التي عملت عبر القرون على تخلف الانسان ومنها عقبة الاحتكار وعقبة التنافس، لأنه في ظل الاشتراكية تتحقق العدالة الاجتماعية بفضل التوزيع العادل والحكم التي نقطت اليه ديكتاتورية البروليتاريا .

---

1) أنظر كارل ماركس، فريديك أنجلز، البيان الشيوعي ، دار الطليعة ، بيروت، لبنان بدون تاريخ ص15.

2) نقد الاقتصاد السياسي، دار الطليعة ، بيروت لبنان ، بدون تاريخ ص206.

ومع أن الاشتراكية هي مرحلة تكون فيها وسائل الانتاج ملكية جماعية وحتى قوى الانتاج تتحول الى ملكية جماعية ، ورغم ذوبان كل فردانية الأن المجتمع الاشتراكي يهدف الى تحقيق والى العودة الى المشاعية فعندئذ تأتي المرحلة الشيوعية وهي آخر مرحلة يتحقق فيها الفردوس الأرضي ، وتصبح القاعدة المعمول بها " لكل حسب حاجته ولكل حسب طاقته "، ومن هنا تصبح وسائل الانتاج ملكية جماعية وتصبح الفوارق الاجتماعية غير معترف بها في هذا النموذج الاجتماعي انه فعلا نموذج المجتمع الذي تحلم به الاشتراكية حاليا .

من غير الممكن أن نتعرف على النظرة الماركسية في التاريخ ، اذا لم نتفحص مفهوم المادية الدياليكتيكية فحسب رأي مجموعة من الأساتذة السوفيات أنه لابد من معرفة الأسباب والقوانين التي تسير التاريخ فيقولون:" فان عرفنا الأسباب وعثرنا عليها امكننا خلق الظواهر التي يريدها المجتمع أو عرقلت نشوء الظواهر الضارة به ، أو غير المرغوب فيها ، والنضال ضدها."(1)

اذا واضح جدا أن المفهوم الماركسي للتاريخ ، هو قبل كل شيء العلية الواقع وبتعبير آخر هو ادراك لانعكاس" الموضوع"، والذي هو الواقع الاجتماعي بوقائعه الاقتصادية خاصة ـ ومدى تأثيراتها ." لكن فعالية التاريخ منطق باطني أمام العلوم الطبيعية فلا باطن لظواهرها ، ومن ثم كانت العلة ترتبط بالمعلول فيها ، علاقة ظاهرية فضلا عن افادتها الحتمية ، ان واقع التاريخ تتصل بالانسان الذي ينعم بالحرية ولايخضع لمنطق الحتمية .(2)

---

1) جماعة من الأساتذة السوفيات، المادية الدياليكتيكية ، فوءادمرعي وآخرين، دمشق دار الجماهير ص193.

2) محمود صبحي أحمد في فلسفة التاريخ ، موءسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية 1975 ص42.

ولايمنعنا كل هذا بقدر مانفهم التصور الماركسي للتاريخ في بحثنا هذا ، ففي رأي أنجلز في كتابه الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية " ان الانتاج والعلاقات وكل العلاقات الاقتصادية لايمثلون سوى عناوين لتاريخ الحضارة"(1) ومن هذا المنطلق فان التاريخ في رأي أنجلز لايمثل سوى" صراع الطبقات الاجتماعية فيما بينها"(2).

وهكذا حسب التفسير الماركسي في البنيان الفوقي " أي تلك المجموعة من القوانين السياسية والايديولوجية والدين وحتى الفن هي المفسرة من طرف القاعدة الاقتصادية يقول ماركس" في هذه الظروف علينا أن نعمل على تغيير التاريخ بدلا من الركون الى تفسيره"(3).

ويكون بذلك التفسير الماركسي للتاريخ كما لاحظنا هو التغيير الجذري للحياة الاجتماعية - خاصة حينما نرى الماركسية متأثرة في ذلك بفلسفة " كونت" عند تقسيمها للتاريخ البشري الى مراحل مراعية في كل تلك المراحل العامل الاقتصادي ومدى تأثيره عليها)، فالتاريخ بدأ في نظر الماركسية من المرحلة المشاعية التي كان الملك فيها بين الناس مشاعا ، وعند بروز فكرة التقسيم للملكية بتأثير من "الفردانية" ظهرت مرحلة الاقطاع ، وبتوسيع نفوذ هذه الاخيرة تحت جاذبية ، أن كل ملكية كبرى تذيب الملكية الصغرى في فلكها ، حسب القاعدة البيولوجية التي سطرها داروين" البقاء للاقوى" ظهرت المرحلة البورجوازية وهي نتيجة حتمية لتطور الصراع الطبقي بين الفئات والطبقات الاجتماعية من جهة ، ومن جهة أخرى نتيجة للتطور الديالكتيكي ، لكل من الطبقتين الخاضعة لعبء الاحتكار والاستغلال والمنافسة لأنه وحسب التنبوءات الماركسية لابد أن تحمل البورجوازية بذور فنائها بيدها .

---

1) أنظر : 1)MALEK BEN NEBI:L'IDEE D'UN COMMONWEALTH ISLAMIQUE MOSQUE DES ETUDIANT ALGER P 7.

2) المصدر نفسه ص 35 .

3) فريدريك أنجلز ، التفسير الاشتراكي للتاريخ ت راشد البراوي ط2 دار النهضة

لأن التطور التطور والنضال الاجتماعي لطبقة كبرى أجتماعية (البروليتاريا) يوءعلها لان تأخذ بمقاليد السلطة أي الطبقة الكادحة ، وبذلك تتحقق الدولة الاشتراكية وتسود المساواة والاخوة . ويتحقق كما أسلفنا بذلك أهم مبدأ في الماركسية " من كل حسب عمله ولكل حسب حاجته " . هذا المبدأ الذي قال عنه الدكتور محمد البهي" وعندما اتضح خداع هذا الشعار الماركسي واستحال تحقيقه في تجربة الماركسية في روسيا وشرق أوروبا .... استحدث ما يسمى بالحافز الفردي في الانتاج."(1)

وهكذا وبحكم قوانين الحتمية الاجتماعية التي تسيرها العوامل الاقتصادية فان الديالكتيك يستمد والصراع سيبقى الى أن تتحقق المرحلة الشيوعية ، اذ تستولي الطبقة الكادحة على الحكم ؛ ويصبح الناس ينتجون بحكم منطق حد من كل حسب حاجته ولكل حسب طاقته" وعندئذ يتحقق المجتمع المشاعي ويتحقق الفردوس الارضي ، كما تضمن النظرة الماركسية .

اذا فماركس ينظر للتاريخ على أنه تغيير للبنيات الاجتماعية ، لكن اذا وضعنا هذه النظرة تحت مجهر البحث فسنرى.

أولا: ان الانطلاق من المادة كتفسير للتاريخ ، فيه ضرب من المجازفة لأن المادة اصطلاح يعتمد ادراك طبيعة على التقدم العلمي الانساني وتحليل المادة علميا في الوقت الحاضر انتهى الى كونها ذرات، تتكون من شحنات كهربائية يطلق تفجيرها قوى عظيمة ".(2)

" وكما ان علم الفلك حاليا يفند قول ماركس بأزلية المادة"(3)

ثانيا : ان افتراض ارادة الانسان خاضعة لحتمية المادية التاريخية باطل،

---

1) مجلة الايكونوميست البريطانية في عددها الصادر في 1967/01/21 ص221 تحت عنوان التفوق في الاقتصاد الاشتراكي.

2) جعفر حسين حصباك، في تفسير التاريخ، فصل التفسير الماركسي للتاريخ، منشورات مكتبة النهضة ، بغداد (بدون تاريخ)ص38.

والاكيف نفسر ظهور الأبطال والقدسين ، والانبياء المنبرين للتاريخ .

ثالثا : " ان الديالكتيك منهج علمي غير محدود، فهو في سيرورة لغوية أبدية فلماذا يتوقف في المرحلة الشيوعية "(1)

رابعا : ان التفسير الماركسي للتاريخ حقيقة ربما كانت صحيحة في رقعة جغرافية معينة ، فأني لها أن تكون عالمية !

هذه جملة انتقادات وجهة لفكرة التاريخ حسب ماجاء بها كارل ماركس وهي تركز كما نرى على أهم لبنة في التفسير الماركسي للتاريخ ، الا وهي المادية التاريخية .

والحقيقة أن تقسيم الماركسية للتاريخ البشري الى مراحل، يفترض أن المرحلة الأولى كانت مشاعية أي أن الملكية أنذاك كانت مشاعة بين الافراد . فهو مجرد افتراض يبقى مدى صحته أو كذبه معلق من القرون التي تلي الفكرة الماركسية ، ونحن اذ نناقش فنقول أنه منذ كارل ماركس الى أيامنا هذه يوجد حوالي قرنين من الزمن والحقيقة المؤكدة علميا أن المرحلة الأخيرة ما الماركسية . لم تثمر أيضا هي الأخرى بعد، مما يؤكد أن قضية التنبوء بالمرحلة الأخيرة من الماركسية وهي الشيوعية ذهبت ادراج الرياح ، واذا كانت المرحلة الأخيرة والمرحلة الأولى من تقسيم الماركسية للتاريخ البشري، مشتبهان من حيث أن الأخيرة هي عودة الى الأولى بطريقة أخرى فانه منطقيا يمكننا أن نستنتج أنه اذا كذبت الأخيرة فان الأخيرة ستكذب ، آخذين بعين الاعتبار الفرض الأخيرة دليل على الفرض الأول.

---

1) باقر الصدر، اقتصادنا دار الكتاب اللبناني ، بيروت (بدون تاريخ)ص46.

ثم لوعدنا معها الى الغرض الأول فنجد أنه يبقى صحيحا في فكر القرن 19. أما مع عصر " الكومبيوتر" أي القرن العشرين ، فانه يصبح باطلا بدليل : أن الكومبيوتر يؤكد اليوم أن المرحلة الأولى سادتها المؤاخاة أكثر مما سادتها العداوة كما صورتها لنا الماركسية " مجتمع الغاب".

اننا واذ نتناول بالبحث هذه النقاط في الماركسية فلأنها لاتصدق الا على مجتمع معين هو المجتمع الأوروبي آثاره التاريخية ، أما المجتمع الاسلامي فان آثاره التاريخية تؤكد أن آدم عليه السلام أب البشرية كان نبيا .

الفصل الرابع

فكرة التاريخ عند توينبي

فكرة التاريخ عند توينبي

لاحظنا أن العوامل الاقتصادية لاتستطيع أن تسير الحركة التاريخية وحدها لأنها حصرتها في اطار جغرافي خاص !

هذه التفسيرات الطبيعية لم تعد كافية في نظر فيلسوف التاريخ الانجليزي أرنولد توينبي (1975م) الذي يرى أن عوائق الطبيعة الحيوية تلك التي تفرض مايسميه بالتحدي " LE DEFIT " هي التي تمكن التاريخ من أن يصنع المستقبل ويحلل. لنا توينبي عالمي التحدي (المشروط الاستجابة كمايلي:

يرى هذا المؤرخ أن تحدي البيئة وحوافز مختلفة ،منها حافز البلاد الشاقة وحافز الأرض الجديدة ، وحافز الضربات (الحروب) وحافز الضغوط .... الخ وكلها تفرض استجابة (1).

ويردف قائلا: هل ثمة تحد أشد من أن يسير استجابة (2)، وهو يعني بذلك أن البناء التاريخي أنمو ذو وليد حالة نفسية ، هذه الحالة النفسية التي بدورها تتوتر الدرجة أنها تتحدى جميع العوائق وعلى الخصوص منها التحدي الطبيعي، اذ أن أي تحد للطبيعة في نظر توينبي انما يبرهن على أن هذا الشعب أوذاك قادر على صنع تاريخه وهو المثال الذي وجدناه واضحا في جملة الحضارات التي قامت في الصحاري ، فرغم قساوة الطبيعة فأن تلك الشعوب استطاعت أن يتجدى هذه القساوة ، وذلك لما تملك من قوة في النفس ، مكنتها من ذلك اذا كل تحد له استجابة و سواء بالايجاب وهو ماقصدنا اليه من انشاء حضارات أو بالسلب وهو مارمينا اليه من تخلف الشعوب .

---

1) يرجع توينبي الاستجابة الى أنها فردية ،مما جعل اصحاب المذهب الجماعي يشنون عليه حملات انتقادية .

2) أرنولد توينبي ، دراسة التاريخ ،فؤاد محمد شبل ،الادارة الثقافية ،جامعة الدول العربية 1960.

وتوينبي باغترانه لعامل الاستجابة من الطبيعة الحيوية ، فانه يلاحظ أيضا أن الجنس ليس هو أساس الحضارة (وهو هنا يعود الى تلك النظريات التي سادت بداية هذا القرن والتي ترى أن الجنس الآري مثلا هو أرقى الشعوب وهو الذي بامكانه أن يبني حضارة لاتزول أو تلك النظرية التي رأت منذ زمن سالف أن اليهود باعتبارهم شعب الله المختار هم وحدهم الذين فضلهم الله على باقي الشعوب بامكانهم بناء حضارة لاتزول أيضا. هما نظريتا الجنس هاتان النظريتان العرقيتان مبنيتان على أساس الروح العنصرية التي نقلوها من اليهود الى النازيين بطريقة خالف تعرف). اذا فتوينبي لايعطي أهمية لعامل الجنس في كونه يبني حضارة أو في كونه يساهم في السيرورة التاريخية وهو يقول في هذا المعنى" بيد أنه قيل ما فيه الكفاية لتسويغ رفضنا للنظرية القائلة أن جنسا أعلى هو الذي كان سبب الانتقال الحضاري وصانعه من حالة البيين* " Yang " الى حالة اليانغ" yang "* من الكون السكون الى الحركة الدائبة في جزء بعد الآخر من أجزاء العالم ، منذ زمن يرجع الى ألف سنة مضت "(1).

ثم يقرر بعد كل هذا أن نظريتا " الجنس" و" البيئة" : كلتاهما تحليل للتباين الملحوظ في التصرف والسلوك النفسي" الفكري والروحي" لاقسام مختلفة من البشر ، وذلك باغتراض علاقة نسبية ثابتة ودائمة كالعلاقة بين العلة والمعلول، بين هذا التباين النفسي، وطائفة من عناصر التباين الذي لوحظ في محيطه الطبيعي غير الروحي، وتجد نظرية الجنس علة التنوع ، في اختلاف الصفات البدائية البشرية ، ونجد نظرية البيئة في اختلاف الأحوال المناخية والجغرافية ، التي تعيش فيها المجتمعات المختلفة ، هذا مايشير

---

* ... البيين رمز الذكورة عند الصينيين القدماء واليانغ رمز الانوثة وهذا يعني فلسفة تقوم على أن الكوني أو العالم تتشكل بناء على التوافق الذي يحصل بين عنصر الذكورة وعنصر الانوثة ، وتوينبي هنا يقتبس هذان المصطلحان الصينيان ويوظفها في فكرة الجنس وكيف يساهم أو لا يساهم في التصدي الطبيعي.

1) المصدر السابق نفسه ص93.

اليه توينبي، حين يدلي بالحقيقة نفسها " وعلى أية حال فانه لا الجنس ولا البيئة كما تصورناهما حتى الآن، قد قدما ، أو يمكن - كما هو ظاهر - أن يقدما أي دليل على سبب حدوث هذا التحول العظيم في تلك الحضارات الغابرة منذ ألف سنة مضت"(1).

ان توينبي لا يعطي أي مدلول لنظريتا الجنس أو البيئة باعتبارهما أساس البناء التاريخي لأنهما كما قلنا عاجزان عن تقديم أي دليل يثبت ذاك التحدي الحضاري الذي حصل منذ أزمنة غابرة في شعوب لم يك ليتوفر فيها هذان العاملان في شيء.

بعد أن استعرضنا نظرية التحدي والاستجابة ، نلاحظ أن توينبي يعيد فكرة "الارتقاء" L'EVOLUtion " الا أن هذا الأخير يعتبر شيء طبيعي، فيقول " يحدث الارتقاء ، وقتما تصبح الاستجابة لتحد معين لا ناجحة في نفسها فحسب ولكنها تستثير تحديا يقابل باستجابة ناجحة"(2).

وهو يعني من كلامه هذا أن القانون الفيزيائي يمكن تطبيقه أيضا في نظرية التحدي، ذاك القانون الذي يقول : لكل فعل رد فعل ولكنه يصوغه بحيث يصبح لكل تحد استجابة ، أي أن التحدي اذا كان ناجحا تكون الاستجابة فيه ناجحة واذا كان فاشلا تكون الاستجابة فيه فاشلة ، وهو يدعم كلامه هذا بجملة من الأمثلة (يصوغها لنا في الحضارات الغابرة ، فمثلا يرى أن شعبا كالشعب العربي المسلم استطاع أن يقوم بتحدي يعتبر تحديا ناجحا على أيام الرسول الأعظم محمد (ص) وعندئذ كانت له استجابة ، لمسناها في حضارة كل من بغداد ودمشق والقيروان وتيهيرت وفاس ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى

---

1) المصدر نفسه ص93.

2) المصدر نفسه الجزء الرابع ص267.

يعطينا توينبي النموذج الذي فشلت محاولاته في التحدي الطبيعي فكانت استجابته أيضا فاشلة، وهذا النموذج هو الشعب الذي يسمى اليوم بالشعب البدائي" PREMITIF " انه لازال لم يحقق تحديه الناجح، وعندئذ لازال لم يحقق الاستجابة المرجوة منه ، فلذلك وجدناه متحجرا ومتعلقا لايعرف ولايسمع للحضارة صيتا .

وتوينبي يرى أن الارتقاء " EVOLUTION " يكون جماعيا لكن "المجتمع ميدانيا يعمل للعدد من الكائنات البشرية"[1] اذا فالافراد هم مصدر الفعل ومن هنا فان الأحوال الصعبة أكثر من السهلة هي التي تولد هذه الأعمال المجيدة أعني تفسير بداية الحضارات.

والمقياس الحقيقي للنمو الحضاري أو التقدم في محل التقدم الذاتي حسب توينبي هو عندما تصبح الحضارة -"الشخصية النامية"- هي نفسها بيئة لنفسها ، وتحديا لنفسها ، ومجال عمل لنفسها"[2]

واذا كان النمو الحضاري ضرورة فرضت بفعل التحدي والاستجابة ، هذا الذي يتم على مستوى الأفراد ككائنات بشرية كما أسلفنا ، فانه حسب توينبي"... لاعلاقة للتقدم التقني بالتقدم الحضاري، غير أننا نستهدي هذا التقدم التقني... للعثور على غرضنا من البحث"[3]

والنمو الحضاري حسب هذا المؤرخ يتكامل من تحقيق غاية الى صراع جديد ، ومن حل مشكلة الى مجابهة أخرى ، ومن هدأة موقتة الى حركة ناجعة ، وفي كل هذا أي حتى تتتابع الحركة ، وتطرد يجب أن يكون هناك دافعا حيويا" VITALE " يدفع الفئة المتحداه من التوازن الى التضعضع ومن التضعضع الى التوازن وهكذا الى مالانهاية له تي الحال الدائم[4]

1) المصدر السابق نفسه ،ص 269.
2) منح خوري، التاريخ الحضاري عند توينبي، دار العلم للملايين بيروت ص174.
3) المصدر نفسه ص174.
4) أرنولد توينبي ، دراسة في التاريخ ، الجزء الثالث ص119.

اذا فالدافع الحيوي له دور كبير في عمليات النشوء الحضاري، لأنه هو الذي يخلق ما يسمى الاستجابة الظافرة لتحدي البيئة المناسبة"(1)

وعلى هذا الأساس، فان كان الدافع الحيوي ، لا" المجال الحيوي" كما تقول بذلك النظرية النازية ممثلة بشخصها " هتلر" أو فيلسوفها فيتشه الألماني الذي عرض المشروع " أي مشروع النازية " في نظرية على هتلر الذي عمل على تطبيقه عسكريا خصوصا إبان الحرب العالمية الثانية - هو الذي فرض عاملا مهما في الحركة)التاريخية التي كانت حسب هذا التفسير الطبيعي " تفسير توينبي للتاريخ". فانه اذا أفترضنا أن الدافع قد ضعف لأسباب ما قد تكون فراغه "الكف"* حسب تعبير بافلوف "PAVLOVE" "فان النشاط المشترك للتاريخ سيضعف (ذلك ما يسميه البعض بأفول حضارة") فهل نعتبر دائما هذا العامل المحرك للتاريخ؟ أي عامل الدافع الحيوي ، فاذا كانت الاجابة بلا فان هذا التفسير يكون ضربا من المجازفة . ثم ليس هذا وحسب ، بل ان العلاقات الاجتماعية لا تكون بينها الصلات وطيدة لدرجة أن أمور ربما تكون ميتافيزيقية - عالقة بما يسمى بالتاريخي التكويني "PHERE, BIO, HISTORIQUE" تلك هي النقطة التي أستغلها منتقدوا توينبي حينما لاحظوا عليه أنه من جهة يركن الى الدين في تفسيره للحضارات ، ومن جهة أخرى فانه يضفي على تفسيره هذا شيء من الذاتية " الطبيعية" متجاهلا من كل هذا المجتمع كحتمية تفترضها الحركة التاريخية .

فتفسير توينبي لا يعدو أن يكون كشفا عن مكانة علم النفس في التاريخ، وليس علم الاجتماع ، ونقطة عدم تلاقينا معه هي: أنه كان بامكانه أن يجعل عامل الدافع الحيوي عالقا بأسباب "ربما تكون ميتافيزيقية

1) منخوري، التاريخ الحضاري، عند توينبي، ص 30.

* لاحظ أن توينبي متأثر بالنظرية [illegible] لدرجة أنه استعملها في تفسيره للتاريخ وليس هنا مجال انتقاد هذه النظرية ، والكف حسب بافلوف هو الحالة النفسية التي تتوقف فيها الدفقات أو السيالات العصبية لأن المواصلات تعرقل طريق مرورها .

وذلك من أجل تمتين الصلات بين الذات كاستجابة حيوية ، والمجتمع كصلات تتجاوب مع هذه الاستجابة من أجل القيام بالعمل المشترك في التاريخ..

اذا لاحظنا أنه لايكفي عامل الدافع الحيوي ، الفارق للتصدي والاستجابة ، من أجل القيام بالعمل المشترك ، ناظرين من جهة الى أهمية هذا التفسير ، على أنه محدد لمبادئ أساسية ، ومن جهة أخرى على أنه ليس مشكل الانطلاق - ربما يكون من المفيد أن يطرقه رجل كمالك بن نبي:

ان توينبي يعيد الحركة التاريخية الى عامل ربما كان أساسيا ألاوهو " الدافع الحيوي" غير أنه من خلال الانتقادات التي أتينا بها ، لاحظنا مدى عدم جدوى " اللافعالية " في هذه الحركة خاصة عندما آل بنا هذا التفسير الى جعل الدافع الحيوي والاستجابة للتحدي الطبيعي، سببا في نشوء الحركة فهو بهذا المعنى لايكاد يخرج من كونه تفسيرا طبيعيا ميكانيكيا .

ولقد كان مهما أن نرى في عامل الدافع الحيوي نظرة من نظرات ابن خلدون حين كان يعيد عامل الدافع الحيوي الى عامل " العصبية " أعني أن كلامنا أنطلق من عصبية بيولوجية " وليس من عامل فكرة " الحاجة " التي أتى بها كارل ماركس ، لما أرجع حركة التاريخ الى عامل وحيد هو العامل الاقتصادي.

والجدير بالملاحظة هو أنه مهما قلنا عن تفسير توينبي للتاريخ الا أننا لايمكننا أن ننكر أن العامل الحيوي يدخل في بناء أصل التاريخ وهو بهذا المعنى يعطي فرصة لمالك بن نبي الذي يقول " ونحن يمكننا الى حد ما أن نسوغ هذا الرأي الذي ذهب اليه المؤرخ " وهو يعني توينبي " صياغة جديدة في

ضوء القرآن الكريم ، فقد تستطيع حيث لم نصل بهذه الطريقة الى تفسير واضح لمنشأ الحركة التي ولدت المجتمع الاسلامي وغاياته التاريخية ، - ان تفسير هذه الحركة بالعوامل النفسية التي حققت هذه القوة الروحية في المجتمع أعني شروط هذه الحركة عبر القرون".(1)

وهذا ما نقوم بتحليله في الفصول القادمة مع المفكر مالك بن نبي.

---

(1) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ت: عبدالصبور شاهين، دار الفكر ،دمشق 1974 ص21.

الباب الثاني

الفصل الأول : التصور المادي والتصور الغيبي
الفصل الثاني : معامل الفعالية
الفصل الثالث : مقولة الوعد والوعيد

الفصل الأول

التصور المادي والتصور الغيبي

التصـــــــور المادي والتصور الغيبـــي

قبل الشـروع في تقديـــم هـــذا التصـــور علينا أن نذلل ، ما المقصـــود بالتصـــور المادي ،وما المقصـــود بالتصور الغيبـــي؟

ان معنى التصـور المادي واضـح ، فالمقصود بـه مجموع النســـــق الفكريـــة التي بنـت المفاهيـم أي مفاهيمها على أساس مادي، حسي طبيعـي ......" ولعل أهم أمثلـة على ذلـك التصـور الماركسـي الذي نقول عنه أنــــه تصـــور مادي

أما بالنسبـــة لمصطلـح التصـور الغيبـي ، فهذا هو الذي قصدنـا بـــه التذليل ، لأن المفهـوم قد يفهـم فهمـا بالمعنـى السلبـي على ضـوء ما طفـى علينـا من خلفيـات التصـــور المادي أننا نقصد بـه مجموع النسق الفكريـــة التي فســرت الاشيـــاء انطـلاقا من أرضيـة دينيـة" اذا فحتـى يكون المصطلح واضحـا علينـا أن نقدمـه بهـذا الشكـل.

وبعد تذليلنا للمصطلحيـن فما هـي نقـاط التلاقـي، وما هي نقاط الاختلاف ، وما العـــــلاقـة التي تربـط بينهما ، وما المقصـود من طرحهما كعلاقـــة في فصل يحمـل عنـوان تصـور التاريـخ في فكـر مالك بن نبـــي.

الواقـع أن مالك بن نبـي يقيم دراسـة تحليليـة نقديـة للتصـور المادي ليستنتـج بعض النتائـج . ويدرس التصـور الغيبـي ويقيمه ليستنتـــج أيضا بعــض النتائـج الاخـرى ، هـذا في كتابـه الظـاهـرة القرآنيـــة ، وحســب تصـورنـا لفكـرة التاريـخ عنـده رأينـا أن نأتـي بهذه المقارنـــة للتصـورين معـا ، لأن "الفكـرة" أي "الظاهرة القرآنية": أو أية فكـرة أخـــرى تتماشـــى والمنظـور التاريخـي الذي يسمـى بأسس نقطـة انطـلاقة التصـور التاريخـــي في فكـر مالــك بـــن نبــي.

وقد يكون ذلك صحيحا أو غير صحيح والمهم أننا رأينا، كما أسلفنا والمهم من كل هذا، أن مالك بن نبي في مدخله لتحليل هذين التصورين يوقع السؤال التالي أرضا، هل أن المادة أسبق أم الفكرة، يعني هل أن الاولى أوجدت الثانية أم العكس. غير أن هذا نوع من الهدر للوقت ولا فائدة من الجواب على سؤال كهذا، والا تمثل لنا هذا السؤال، بالسؤال، هل أن الدجاجة أسبق أم البيضة أسبق؟ وهي كما نلاحظ حلقة مفرغة، مهما أجهدنا فيها عقولنا لا نستطيع أن نعطي جوابا يقينيا، لأن القضية لايحددها لنا علم البيولوجيا، وعلم الانطولوجيا أو أي علم آخر، ولأن القضية شبيهة أيضا بين يناقش، أي جنس الملائكة أهم ذكور أم هم اناث." أأشهدوا خلقهم "ـ !

ثم ينتقل بنا مالك بن نبي الى الافتراض الذي يصوغه لنا وهو التالي:

ولو أفترضنا جدلا أن المادة هي الصيغة النهائية أو الاخيرة للحياة والكائنات الحية، فكيف ينتظر من ميت أن يتحول الى حي، وهو لايملك قدرة التحول؟ ولو قلنا أنه يملك قدرة التحول لوقعنا في تناقض يكشف عنه في التالي:

1ـ ان التحوّل " أي فعل التحويل" هو المُقام عليه عمل التحويل حتى يصبح هو الآخر محوِّلا، وهو الذي لايتحول، وهذا مستحيل.

2ـ ان الذي لايتحول لايستطيع أن يحول، كما أن فاقد الشيء لايعطيه.

وبعد أن يقضي مالك بن نبي في هذه المذهبية، يضرب لنا عدة أمثلة عن أصحاب التصور المادي وهي أمثلة هزلية هادفة، والا ما هي تلك التي يقيم على أثرها مقارنة بين عابد التمساح على ضفاف نهر النيجر وذلك الذي أدعى أن جده" القرد"، فلاحظ أن الصورتين ليستا مختلفتين الا في مستوى ما من التطور. فالاول لم "يتطور" لانه عبد حيواناً زاحفاً " دون بذل جهد عقلي"، والثاني عبد حيوانا "متطورا " لانه بذل في ذلك

جهـــدا كبيـــرا أهـم جهـد فيـه هو: "أصـل الأنـواع " The origine of Speic es *(1)
ويحـدد مالـك بن نبـي - بعد أن بيـن مـدى تهـاوي اللبنـة الأولـــى
لانطـلاقــة المذهـب المادي**(2).

انه مادامـت هـذه اللبنـة التي هـي أساسيـة في هـذا التصـــور
المادي قد تهاوت فكيـف لا يتهاوى من ورائها تفكير دعم أسسا وبنى قواعد أخـــرى
للفكـــر البشـري؟.

وأهـم هـذا الفكـر في رأيـه هـو الفكـرة الماركسيـة، المنطلقـــة
أساسا في الجدلية الهيجلية "التي قلبها على رأسها بمنطـق "ديالكتيكي" «كارل ماركس»
أو جـدلي مختلـف أعـاده كارل ماركـس الى منطـق جـدلي مادي، وليـس
مثـالي. ومن هنـا يلاحـظ مالك بن نبـي على فلسفة التاريـخ عند ماركـس
وكيـف يسـرلها أن تتهاوى؟ لأن بنـاءها غير قويمـة، ولأنه أيضا "كل تفكيـر
في مشكلـة الانسـان هو بالدرجـة الأولـى تفكير في مشكلـة الحضارة"(3).

ويعـود بنـا قليـلا الى المذهـب الغيبـي، فيرى أنـه اذ تتبعنا الأمـور
من زاويـة المحلـل الخبيـر دون أن تأخذنـا الأهـواء، فانه، حتـى "قوانيـن
الأمـم المتحـدة لاموتيـة في أساسها، أما ما يطلقـون عليه قانونهـم
المدنـي، فانـه دينـي في جوهـره، ولاسيمـا في فرنسا*، حيـث اشتـق من الشريعة
الاسـلاميـة(4)! اذا فان مالـك يعتـرف بدايـة أن كل ما نسميـه قانونا سـواء
القانـون اللائيكـي أو القانـون الذي تعاهـدت عليـه الأمم المتحـــدة
فانهما في أساسهما، من أصل دينـي لكن ذهـب بهما الانحـراف الـى التحريف!

---

1)(1)* عنوان كتاب للرحالـة البيولوجي تشارلز "دارويـن" توفي سنة 1882 صاحب نظرية
الانتخـاب الطبيعي في علم البيولوجيا ونظريته في التطـور".
2**) منطقيا اذا تهاوى الأساس تهاوى الكل.
3) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ت، عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق 1982، ص37.
4) المصدر نفسه ص68. *يرى مالك بن نبي أن نابليون بونابارت عندما قام بحملته على مصر استفاد
من الشريعة الاسلامية لما وجد فيها من شرائع تخدم مصلحته ونقلها أي نابليون الى فرنسا الى
دول أوروبـــا.

انهما لاهوتيان .

أولا: لأن الحملة التي قام بها نابليون بونابارت على مصر لم تكن في شيء لتخلوا من اقتباس لبعض قوانين الشريعة الاسلامية ، هذا حسب شهادة المؤرخين والفرنسيين منهم على الخصوص .

ثانيا: حتى الانسان حينما يضع قانونا من دون شك فانه يعيده الى أحكام ترسبت في ذهنه سواء شعر بها أم لم يشعر . دينية في أصلها - الأن الانسان تغميه حالة " التجبر" أو" الاستكبار" في الأرض ؛ عوض أن يعترف وأن يستجيب لأصلها فإنه يجحدها .

والحقيقة أن قضية قوانين الأمم المتحدة لاهوتية في أصلها وأن أي قانون لاهوتي في أصله . - حسب تفسير مالك بن نبي ، فيه نوع من الغموض لأنه لو تقبلنا فكرة أقتباس نابليون لقوانين الشريعة مرحلته على مصر بشهادة المؤرخين ، فان قضية تعميم هذا على كل شيء سمي قانونا أنه لاهوتي في الاصل فيه شيء من المخاطرة ، لأننا نعلم أنه صحيح أن كل ماهو قانوني هو الصادر عن العقل وعن العرق والتقاليد وو....." ولكن السؤال المطروح من أدرانا أن الامم لاتجتمع عن ظلالة ، ثم من أدرانا أن "عقلها" المفكر في القانون لايعتمد على النص".

ويقدم مالك بن نبي جملة دلائل وبراهين يعتقد أنها مبنية وقائمة على التسلسل ، حيث أن ماخلفت يد العمران البشري والحضاري هو من أصل ديني فيقول" كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للانسان في الأحقاب الزاهرة لحضارته ، أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي فانه يجد سطورا من الفكرة الدينية"(1).

---

1) المصدر السابق نفسه ص68.

ونفهم من كلامه السالف أنه اذا كان الانسان قد تفطن، واستطاع أن يتعرف على أصالته عبر الأحقاب الزمنية ، سواء رجع في ذلك الى العصور الأولى لميلاده أو الى العصور البدائية أو حتى الى العصور المزدهرة من حضارته فانه يلاحظ أن الدين متجسد دائما بين سطور حضارته (مالك بن نبي يوافق الأنثروبولوجيين المعاصرين في تعريفهم للانسان " انه حيوان ديني، ولكنه مساوية لمعنى " التوحش" ويقول هو بأن "بدائي" بدائي يعني متحضر ومتخلف عن الركب الحضاري المعاصر والأحسن عنده أن نسميه " متخلف أو" متحجر" أو"راكد" .) فالدين يكون كما قلنا متجسدا دائما بين سطور حضارة الانسان في أي زمن كان ، فالدين يكون متجسدا في الآثار المادية أو الروحية والدين يكون متجسدا في الآفاق المستقبلية ، والدين يكون متجسدا في سلوك الانسان اجتماعيا .

فبالنسبة لتجسد الدين في الآثار ، فلا يمكننا أن ننكر وجود جسر كبير من " المتاحف" لازالت آثار الدين مرسومة عليها .

ثم يرسم لنا مالك بن نبي رسما حقيقيا عن أكذوبة العصر والتي مفادها أن العلم والدين شيئا لا يلتقيان فيبدي فيها رأيا قائلا " ان عصور الانضطرابات الاجتماعية والاختلال الروحي هي وحدها تخلق الصراع بين العلم والدين"[1] ومفاد كلامه هذا أنه لم يكن بالحسبان أن نقول أن الصراع الذي نشأ بين العلم والدين هو في أساسه صراع تاريخي ولكن كان من الحسبان القول أن الذي ولّد هذا الصراع هو تلك العصور التي امتازت بالاضطراب السياسي والعقائدي والروحي وهي التي وحدها ولّدت هذا العصر .

---

1) المصدر السابق نفسه ص69.

وللكلام هذا صحيح خصوصا اذا تصفحنا التاريخ فسنجد العصر الذي ولد هذا الصراع سياسية واجتماعية وثقافية هو الذي تسبب في الوضع الذي آلت اليه الحضارة الغربية اليوم (راجع تدهور الحضارة الغربية (لاسوالد شبينغلر) والحقيقة أن هذه الاضطرابات تخص المبررات الثقافية للديانة المسيحية ، اذ أننا لاحظنا ذاك الصراع الذي نشأ بين " غاليلي" العالم والرياضي الفلكي ورجال الدين المسيحيين الذي ساقوا هذا الأول الى السجون بقولته، " وبالرغم من ذلك فهي تدور- يعني الارض- " حدث هذا كله عندما أدعت الكنيسة أن " العلم" تحتكره هي وحدها وعندما أدعت أيضا أن زمام الأمور كلها بيدها (مالها وهي لاتملك الاقهر رجل" كغاليلي" الذي أبتغى وابتغاء العلم ،وبالجملة فان العصر - : أي عصر النهضة الأوربي كان عصر اضطرابات- عصر خصومة بين العلم والدين، وهلم جرفي التاريخ الغابر.

ويستند ابن نبي الى دليل آخر يثبت به فكرته عن أن كل شيء يعود في أساسه الى أصل ديني، يعني كل شيء من تفسيرون قانون ومن أثار مادية أوعلمية ...." اذ يرى أن الجهود التي بذلها علماء "الانثروبولوجيا" حول دراسة تخص نسل الانسان بالتظافر وبالتعاون مع علم ""الاثنوغرافيا" " Etnographie " أنتهت بهم الى تعريف الانسان"أنه حيوان ديني

والواقع أن الدراسة التي أقامتها فرقة علماء "الانثروبولوجيا" حول الانسان في المجتمعات البيدائية" وهي في الحقيقة كما يقول بن نبي - لايمكن القول بأنها (بيدائية) بل هي مجتمعات فطرية (أي لازالت لم تدنسها الحضارة -هي دراسة لازالت تشوبها شائبة من الظنون ، خصوصا اذا تفهمنا جيدا" أن القس الاجتماعي هو الدين في نظر زعيم مدرسة علم الاجتماع" دوركايم".

وعليـــه فان فكـرة أن الانســان البدائـي دينـي والمتحضر لاديـنـــــي هـــي فكـــرة تحتــاج الى النظــرمن عـــدة زوايـــا : من الزاويـــة البيولوجيـــة والفنيـــة والاجتماعيـــة والنفسيـــة ...." ولهـذا أن الفصـل القاطـع فيهـــــــا سيبقـــى فيـــه نـــوع من " اللاعلميـــــــة ".

وكخـــلاصـــة لهـــذا الفصـــل نقـــول:

- أن المذهـــب المادي لايعطينـــا تفسيـــرا لظـــاهـــرة التـــوالد الحيوافي مثـــلا، وأن قضيـــة المذهـــب المادي" الجـــدلي" يقـــع في تناقـــض لاحل مـــن ورائــــه ســـوى رفـــض هـــذا المبـــدأ و...."(1)

ولمزيـــد من التحليـــل لازال علمـــاء البيولوجيـــا يعانـــون من مشكـــــلات ظـــاهـــرة التوالـــد الحيـــوانـــي، وعلى الخصـــوص منهـــم علمـــاء الأجنـــــــة " Embriologie s ": اذلاحـــظهـــو ءلاء كيـــف أن نفـــس العدد وكيـــــف أن في نفـــس النـــوع في الكروموزوســـات ينتقـــل من جيـــل الى جيـــل بواسطـــــة عمليـــة الالقـــاح الحيانـــي، الاأنه مثلا لدى عائلـــة الحصـــان" 'Famille Du CHevale لايتم الالقـــاح فيهـــا بهـــذه الصيغـــة ، وفسر علمـــاء البيولوجيـــا هـــذه الظاهرة بحالة استثنائية تحـــدث فيهـــا مايسمى اصطـــلاحـــا عنـــدهم " بالطفـــرة "" هذا المصطلح من ابــــــداع الداروينية والداروينيـــة الحديثـــة جـــرت جـــراه ، وان كل من مصطلحـــي " الطفــــــــرة" أو الانتقال العفـــوي" لايقـــدمان تفسيرا كافيا يقنع مثلا الطبيب والجراح الأمريكي اليكسيـــس كاريل صاحب كتاب الانســـان ذلك المجهـــول" " L'HommE Cet Inco n u ".

وهنـــاك أدلـــة وشـــواهد أخرى تفيد في النهاية الظـــاهـــرة أي ظاهرة التوالـــد الحيـــوانـــي الى الخـــالـــق.

---

1) المصدر السابـــق نفســـه ،ص 69.

2) راجع هذه الأدلة والشواهد التي يقدمها صاحب كتاب" man stand alone "

والذي هو رد على كتاب" man stand alone " الأول لصاحبه عنتري مورسيون والثاني لصاحبه جوليان هوكسلي ترجم الكتاب تحت عنوان" العلم يدعو الى الايمان".

الفصل الثاني

معالم الفعالية

معامل الفعالية

بعد أن ينتهي مالك بن نبي من تحليله لتلك المقارنة التي يقيمها بين المذهبين: المذهب المادي والمذهب الغيبي، ويخلص منها الى نتيجة تكمن في أنه مهما قلنا أنه توجد علاقة ما بين المذهبين الا أنهما يختلفان أختلافا كبيرا، هذا الاختلاف يوءهل المذهب الغيبي أن يتفوق ويأخذ بتقارير مالك بن نبي.

ان مالك بن نبي يجعل لهذا المذهب العنصر الاساسي في تحريكه ألا وهو ما يسميه " بمعامل "الفعالية معامل Coeficient De L'èfficacitèe" فماذا يعني بن نبي لمعامل الفعالية هذا وكيف يراه ضروريا في تحريك لـ ويبسير المذهب الغيبي كي يقسم جملة أفكار على أثره منها فكرة التاريخ التي سنتناولها في الفصل القادم.

ان معامل الفعالية يعني بكل بساطة عند مالك بن نبي العنصر المشترك بين مجموع العوامل (الطبيعية والميتافيزيقية) أي أنه العنصر الذي يساهم الى حد ما في بعث الحياة النفسية في الحركة، مهما كان تشكل هذه الحركة.

والحقيقة أنه يرى أي بن نبي أن تاريخ مجتمع من المجتمعات مهما كان في بدائيته " : هو تجاوب هذا المجتمع " الظرف استثنائي، أو ذاك: وبالتمام أن الظرف الاستثنائي هذا يأتي نتيجة تلقائية لعمل جماعة ما في التاريخ وهو نفسه ما حصل للمجتمع القبلي الجاهلي وقت أن كان محمد (ص) يتعبد في غار حراء، فهذا العمل من جانب محمد (ص) في غار حراء ومن ذاك المجتمع الذي كان يضم عناصر جاهلية لخصه لنا جواب الصحابة، بعد نزول آيات تحريم الخمر حين قالوا "أنتهينا أنتهينا يارسول الله" ـ نتصد طبعا بعد أن نزلت آية :" يا أيها الذين آمنوا ،انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون".." (1) اذاً ان المصير المشترك

---

(1) المائدة آية 90

بين محمد (ص) وقومه ، ما كان ليكون تاريخا حافلا بالذكريات وحافلا بحضارة " تمت بين طياتها العلم والدين معا " طوال قرون عدة ، لولا مسير مصير واحد هو "الرفا استثنائي" مثل بكلام الله عز وجل" اقرأ ، باسم ربك الذي خلق ..." [1] اذا أن أي عمل في التاريخ لا يأخذ حقيقته الا اذا كان مستمدا من روح أصيلة عرفت لأول مرة نتيجة مشاعر شتى تحكمت فيها .

ونتيجة للهو وما يسميه مالك بن نبي "بالبذرة الدينية" أي معامل القدرة على العمل ، ومعامل القدرة على القيام ببناء ، مهما كان هذا البناء ، ومهما كان تشكله .

"والبذرة الدينية" عملها هو نفسه عمل النطفة في عالم البيولوجيا ، فهي أساس الكائن الحي في عالم الحيوان ، والأولى أساسها بناء الذات الفردية والذات الاجتماعية معا في آن واحد .

ويزيد ابن نبي في تحليله لهذا المعامل الآلي" هو البذرة الدينية" وهو معامل الفعالية :ـ أنه أيا سا مقتبس من فكرة "توينبي" : التي يرى فيها عمل يخضع لحدين : حد سلبي وحد ايجابي ويراعي بذلك الحد السلبي وهو تلك الحالة التي تكون عليها النفس" الضمير" حالة الضعف بعبارة أخرى كيف يكون عليه الضمير ، عندما يضعف ـ أمام التحدي والاستجابة ؟ والجواب هو أنه في هذه الحالة فان الاستجابة هي الاخرى تضعف ، واذا ضعفت الاستجابة ضعف التحدي ،" كل تحد قوي له استجابة أقوى" والعكس صحيح ، وعندما ضعف الضمير فان التحدي يضعف ، وبالتالي الاستجابة أيضا تضعف . و مالك بن نبي يضفي على هذا التفسير الذي هو تفسير توينبي طابعا غير الطابع الذي صاغه منه" توينبي" ، وهو تلك الهداية "التي عثر عليها في القرآن الكريم

---

1) سورة الـ ق آية 1.

أي أن ضعف وقوة الدوافع الحيوية طبيعية ، غير أن الشيء الذي يبقيها غافلة سواء في الحالة الأولى أو في الحالة الثانية هو" حالة" تجاوب الشروط النفسية للقوة الروحية .

من خلال هذا الكلام يتضح أن الانسان بصفته أضعف كائنات خلق الله فإنه تارة عرضة للقوة والتطور (قوة لنفس على الخصوص) وتارة أخرى فإنه يعاني ضعفا كبيرا في قواه النفسية وأحسن واحد عبر عن هذا الجانب هو الفيلسوف الوجودي كولين ولدن في كتابه الانسان وقواه الخفية بين كيف أن الحياة النفسية الداخلية للانسان ان لم يكن ملوءها القلق والعبث فإن بهذا المعنى تكون نفسا ضعيفة ؛ هذا حسب التصور الوجودي لهذا الفيلسوف غير أننا بين حالة الضعف هذه طبيعة في النفس الانسانية وكل تحايل عليها يسبب حالة القوة اذ كل من الضعف والقوة حالتان طبيعيتان . وتفسير هذه الحالة التي هي حالة الضعف والقوة في الضمير وبالتالي في التحدي كالتالي يرى مبالك بن نبي أن حالة القوة تطرأ على النفس عندما يكون الضمير الانساني قد استطاع أن يتحدى في المجال الاخلاقي كل قوة موازنة له ، وان تحدي أي عارض وأي حالة طبيعية (تتماشى معها استجابة نفسية) عن الدوافع التي تميز النفس الانسانية ، وهي بالتالي استجابة رضي عن الضمير من النفس فتشتد عند الانسان ، وتزداد نفسه قوة ونشاطا ، أما في الحالة الثانية أي الحالة التي يضعف فيها الضمير فنلاحظ أنه يضعف نتيجة لضعف يصيب القوى النفسية : بمعنى أن الدوافع النفسية تصبح مشلولة مما ينجم عنها ضعف في كل شيء حتى اخلاقيا فان الضمير يكون أيضا ضعيفا ، وهكذا يكون التحدي بمقدار ضعف هذه الاستجابة وبعبارة أخرى لا تكون هناك استجابة بل مجرد فعل آلي لا ينجم أولا يتولد عنه شيء .

ويضرب لنا مالك بن نبي مثالين عن هذه "الحالة" أي حالة قوة التحدي ، وقوة الاستجابة المثال الأول الذي يسوغه لنا هو :

ان رجلا كالشيخ الامام ابن باديس لم تكن لتنجيه يده الضعيفة أمام محاولة الاغتيال التي قام بها الفرنسيون ضده ، لولا اشتداد قوة الروح أو ما يمكن أن نسميه بقوة "الفعالية" : حيث لوحظ أن الزعيم الروحي للثورة الجزائرية آنذاك ، ولحركة الاصلاح ، تتعرض لهذه المحاولة - أي محاولة الاغتيال التي كان من ورائها الاستعمار الفرنسي ، لكنه نجى بأعجوبة منها - أي من المحاولة - فلنتساءل كيف كان لتلك اليد الضعيفة للرجل أي لابن باديس أن تردسكينه في مستوى القوى التي كانت أكبر منها ، يدكيد العلامة البرائد ابن باديس.

طبعا ان القصة التي أوردناها فيها شيء من الخيال والطوباوية ، حتى أنها قد تتهم أ نها أسطورة ، والحقيقة أنها لو كانت بدغير ابن باديس في تلك اللحظة ما كانت لتردد الغدر الفرنسي ، والأمثلة على ذلك كثيرة ومشهورة ، فكم من يد جزائرية غدرت بها يد "الاستعمار الفرنسي منذ 1830 الى 1962 !!.

نفس القصص الطريقة نجدها تتكرر لأمثال ابن باديس، وخذ على سبيل المثال كتاب" أيام من حياتي" لصاحبته ، زينب الغزالي، فستجد فعلا تحدي الروح ضد القوى المادية بمعنى آخر ستجد تحديا في مستوى فعالية امرأة مسلمة أمام جبروت الطغاة ليس هذا وحسب بل انك تجد أنها أي السيدة زينب نام أو تسكن زنزانتها في الستينات مع "كلاب" الطواغيت ..(1)

---

(1) راجع زينب الغزالي أيام من حياتي ، دار الشروق، ط الثالثة 1979.

والمثل الثاني الذي أخذ به مالك بن نبي هو مثال ذاك الأمر الرباني " ليحي عليه السلام في القرآن الكريم " والمتمثل في أمر الله تعالى ليحيى عليه السلام بأن يأخذ الكتاب بقوة فقال له :" يا يحي خذ الكتاب بقوة "(1) اذ أن كلمة "خذ الكتاب بقوة" كانت دليلا على أن يحيى - عليه السلام - عليه أن يأخذ الكتاب لكن مع شيء من الفعالية النفسية "الروحية" وبعبارة أخرى على يحي أن يكون كفئا للاخذ بالكتاب على المستوى النفسي ، لأنه وحسب ما هو معروف ان قوة الانسان تكمن بداخله وليس في خارجه .

ويمكننا أن نأتي بأمثلة أخرى تدعم هذه الفكرة من واقعنا التاريخي المعاصر ، فهناك أمثلة كثيرة وردت في هذا التاريخ وخصوصا التاريخ القريب الذي عايشناه والذي عايشه آباؤنا وأجدادنا ، ان مدى صبر المجاهدون الجزائريون ، في تصديهم لعدوان الاستعمار الفرنسي أيام الثورة الجزائرية لعظيم جدا ، خصوصا اذا علمنا أن ميزان القوة المادية كان لصالح كفة الاستعمار الفرنسي - قوات الحلف الاطلسي والفرنسي وما أدراك !...*

وبالرغم من كل ذلك فانه عملية الاستقلال توجت بالنصر المبين رغم أنف الأعداء وعلى رأسهم الجينيرال "ديغول".

وعندئذ دقت ساعة ميلاد مجتمع هو المجتمع الجزائري الذي طال ما غاب عن الساحة السياسية والدولية والتاريخية ، وان ساعة الميلاد هذه تدق لما تكون لجماعة " فعالية " وقوة نفسية في الدفاع عن الانسان وكرامته وشرفه من جهة ، ومن جهة أخرى عندما يراد لمجتمع أن يعيد بناء تاريخه وحضارته ، ان الفعالية من لحظات الميلاد ، ولكن اذا كنا تكلمنا على هذه الفعالية في مثالين ـ أو أكثر ، فانما أردنا ان نثبت فكرة هي فكرة "الفاعلية"

---

1) مريم آية 11.

والسؤال الذي من الممكن أن يطرح علينا هو كيف تتجلى هذه الفاعليـــة؟ وما هي شروطها ؟.

للاجابة على ذلك نقول: ان "الفاعلية" " L'eëecacitè "تشترط ثلاث عوامل حسب مالك بن نبي : انها تشترط الطاقة " Ener gie " وهي "البذرة الدينية" ثم تشترط الوسط الذي يعتبر أهم عامل يساعدها على النمو" " La Germination " "ثم تشترط الفطرة".

وسأتي الآن على تفصيل هذه الاشياء التي يشترطها بن نبي لعامل الفعالية ولنبدأ بالعنصر الأول:

ان العنصر الأول الذي هو البذرة الدينية لايمكنه أن يقوم وحده انه يتطلب الشروط الأولى ، بعبارة أخرى انه يتطلب شرط الوسط، وشرط الفطرة ،وكلهم يتماشون معا ولايمكن فصل واحدعن الآخر اذا أقتضى ذلك المنهج.

ان عامل الفعالية يقوم على أساس البذرة الدينية لأن هذه الأخيرة تعمل عمل الطاقة للمحرك انها هي التي تزود هذا المحرك " المجتمع التاريخي" لأن يسير برتب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية أي أنها تعلمه كيف يتحضر.

وكل عدول بها نحو شكل من أشكال "الرهبنة" أو "الجمود" انما يجعل هذا المحرك الذي أشرنا اليه سابقا يتوقف عن السير، عندما أيضا تنتهي منه آخر قطرة من "البنزين" . وهي الحالة الثانية ، أو عندما توضع طاقة أخرى غير البنزين في المحرك الذي لم نتحرك في هذه الحالة . لأنه محرك "بنزين" وليس محرك طاقة شمسية أوكهربائية أو......".

وأما العنصر الثاني أو الشرط الثاني لقيام الفعالية فهو عامل الوسط ان مجتمعا كالمجتمع الذي قام بعد عصر الانحطاط ماكان عليه ليقوم من نومه ولو أتيناله بحالة كمالة "قار حراء".

وأما الشرط الثالث ، فهو الفطرة ، ونقصد بها أن مجتمع الفطرة يكون أكثر تجاوبا مع الفاعلية من المجتمع "السياسي" لان كل شيء يسمى "سياسة" آنذاك" يصبح فلسفة ، أو مجموع الأفكار المزاحمة للفكرة "الفطرة" قد تنال من فاعليتها .

يقول المفكر مالك بن نبي مشيرا الى ما أسلفناه في تحليلنا هذا :"والفاعلية تكون أقوى في الوسط الذي ينتج أقوى الدوافع وأنشط الحركات، وأقوم التوجيهات:"(1).

---

1) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، دار الفكر ، دمشق، ص132 1981.

الفصل الثالث

الوعد والوعيد

الوعد والوعيد

يعرّف مالك الوعيد بأنه "هو الحد الأدنى الذي لا يوجد دونه جهدا مؤثرا، والوعد" هو الحد الأعلى الذي يصبح الجهد من ورائه مستحيلا، وذلك حين تطغى قساوة التحدي على القوة الروحية التي منحها الانسان"(1).

ان تعريف مالك لهذا يبدو للقارئ على أنه غامض نوعا ما، لكن تقصي حقيقته سيزيل عنا هذا الغموض.

أولا: ان الوعيد هو أية محاولة تكون موجهة لرد الانسان الى غايته ومثله في هذا الكون، تكون ناجحة، في حالة ما اذا كان الجهد المبذول من طرف القوة الروحية قويا، وأعني بالقوة الروحية الدوافع النفسية في حالتها الفطرية، وفي هذه الحال فان كل جهد كما قلنا يكون مبذولا، يستطيع أن يؤثر في حياة الانسان الداخلية. وبالتالي فان هذا الاخير يتمكن من أن يقوم بعمله مهما كان هذا العمل.

وأما الوعد فانه على العكس من كل هذا تماما، اي أن الجهد المبذول من طرف الانسان تجاه أي عمل، يكون نسبيا من المستحيل، لأنه لا يمكننا أن ننتظر منه نتيجة سواء كانت هذه النتيجة ايجابية أو سلبية - ففي كلتا الحالتين يكون الجهد المبذول غير مثمر، ولأنه أيضا لا يتمكن من أن يحفز الدوافع النفسية في الذات الانسانية وعلى هذا النحو يصبح الجهد المبذول لا تأثير له.

من خلال فهمنا لهذه الفكرة أي فكرة الوعد والوعيد نرى أن هذين المفهومين شرطان ضروريان لكي تقوم النفس الانسانية بوظيفتها في الجد والنشاط.

---

1) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ص69.

والاثنانـه أستحال عليهما أي عمل يمكن أن تقوم به ، لأنه في الحالة هذه تصبح النفس الانسانية تتخبط اما في اليأس أو في القنوط هذا هو الذي يسميه لنا ما يسميه الوجوديون بالتعب والحيرة والقلق والتفاهة : لأن الحياة لا غاية ولا قصد من ورائها الا السقوط في أحضان العمل اللاقصدي أو ما يسميه الوجوديون أيضا بالعبث . فالحياة حسب رأيهم عبث.

وهكذا يصبح أي عمل - حسب قاعدة الوعيد أيضا - خارجا عن نطاقه القصدي - حسب تصور المتصوفة فان الحال هذه يكون كل تصورفيها لاقصد من ورائه سوى الخوف والهلع من اليوم الآخر ... مما يجعل النشاط الدنيوي مستحيلا ، وحتى الخوف والهلع حسب المتصوفة لا يخدم أية غاية سوى الرهبنة وابتداع الحضرات"[1]. وفي هذه المرة فان كل نشاط دنيوي كما قلنا لا يحقق العلاقة الاجتماعية ناهيك عن تحقيق العلاقة بين العبد بين المعبود . وغالبية الظن أن تكون العلاقة متكاملة بين السماء والأرض والأرض وما فيها من مجتمعات تهدف الى التحضر وحده .

اذن ان الخطوة التي يهدف اليها رجال الصوفية هي خطوة طريقها غير واضح : انهم يسيئون سلبا الى تحرك المجتمع ، والوجوديون يكنمون حق المجتمع ايجابا ، وبتعبير أدق فان رجال الصوفية عملهم سلبي تجاه أنفسهم ، واتجاه الآخرين ، وأما الوجوديون فعملهم سلبي أو يتناقض اليه ضربا من تهميش الحركة التاريخية .

ومن الناحية الفلسفية فان الوعد والوعيد يخضعان للشروط النفسية للفرد وبالتالي للمجتمع ، وعندما تتأهب هذه الشروط للحركة عندها يكون قد تم تجاوب بينهما وبين الحياة الروحية . وبتعبير آخر عندما توضع الحياة النفسية بين حدين نفهمهما من الآيتين الكريمتين: "... فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون" (2) وآية "... انه لا ييأسون من روح الله الا القوم الكافرون"(3).

---

1) .... الى .... المتصوفة ....

2) سورة الأعراف آية 99.

3) سورة يوسف آية 87.

ويضرب لنا مالك بن نبي أمثلة عن حالة الوعد والوعيد من التاريخ فيسوق الحالة التي كانت تشد بلال - رضي الله عنه الى الصمود أمام أية قوة كانت بسبابته وبقوله : " أحد... أحد... " في أحلك محنة وهي نفس التأثيرات التي كانت تشد تلك المرأة الزانية* حين ألحت على الرسول (ص) حتى يقيم الحد عليها ، وهي أيضا الحالة التي كان عليها ابن باديس رائد الاصلاح في الجزائر عندما تعرض لحادثة أغتيال دبرها له الاستعمار الفرنساوي : " ان كنا كيف نتصور تلك اليد الضعيفة ترديد المعتدي عليا بالخنجر فلم تكن دوافع البقاء هي تحكمت في هذه الحالة فحسب بل كان ذلك المؤثر الروحي الذي يجري في حياته النفسية هو الذي مكن هذا الرجل من دفع يد البلاء عنه "(1).

لانه حسب مايشير اليه مالك بن نبي في كتابه تأملات : " فاليد تأخذ ببطش في حالة التوتر وهي حالة نفهمها في آية : " يايحي خذ الكتاب بقوة "(2) وهي ليست سوى حالة محققة للنداء أعني النداء الذي يضع الشروط النفسية بين الوعد والوعيد القرآني . وليس ذاك الذي يتكلم عنه صاحب كتاب حوار الحضارات(3) الذي يرى: "أن الوعد موقف على مدى التأمل في الضعف خوفا من القوة التي هي قوة الحضارة الغربية . "(4)

---

* [illegible]

1) مالك بن نبي ، تأملات ، ت عمر كامل مسقاوي، ط4، دار الفكر ، دمشق 1979 ص35 .
2) المصدر السابق نفسه ، مريم آية 11.
3) روجية غارودي: رجا غارودي ت محمد مزالي، منشورات، عويدات 1979 .
4) هذا التباين الثقافي منشأه عقائدي لأن الانغلاق كعنصر ثقافي أصلها العقيدة مهما كانت هذه العقيدة حسب ماعلمنا مالك بن نبي.

واذا كان حداً الوعد والوعيد، طرفين ناهيين كأنما يحققان اللاافراط واللاتفريط، في الأعمال والواجبات فهو ما يكن - حسب مالك بن نبي - فالنتيجة المثمرة عمليا يلاحظها في آية :" ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليئوس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فخور"(1).

كأنما القصة هنا تربوية بالدرجة الأولى انتهدف الى ترقية النفوس نحو غاية مثلى ، والبلوغ الى هذه الغاية المثلى تتطلب أن تبقى موزونة بميزان تتساوى فيه الكفتان، وكل ترجيح لكفة يعني اما يأس وكفر أو فرح وفخر وكل من اليأس والكفر والفرح والفخر يأخذان بناصية الانسان الى الهلاك والهلاك وحده حيث لاتتحقق الشروط المطلوبة من الانسان في هذه الدار.

وخلاصة القول أن الحركة التاريخية موقوفة على شروط اقلاعها الأولى ومن ضمن هذه الشروط شرط واحد هو هذا الذي تتبعنا دراسته ، في هذا الفصل ، وهو بكلمة وضع نفسية الانسان في الشرط الوحيد الذي يخول لها الاقلاع أي وضعها بين وعد ووعيد.

ونعقب في الأخير على هذا الفصل فنقول أن فكرة الوعد والوعيد التي يقحمها مالك بن نبي كشرط أساسي للاقلاع في الحركة التاريخية ، ان هذه الفكرة ليست بجديدة ، اذنادى الفكر الاسلامي بها على أيام المعتزلة حين جعلوها من أفكارهم الخمس. ونود هنا أن نبين الفرق بين الفكرتين هنا يعني عند مالك بن نبي ، وعند المعتزلة ، فنرى أن المعتزلة " أتفقوا على أن المؤمن اذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض، والتفضل

---

1) سورة يونس آية 69.

معنى آخر وراء الثواب، واذا خرج من غير توبة لكبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار، لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار ، وسموا هذا النمط " وعدا ووعيدا "[1].

تما أن فكرة الوعد والوعيد في فكر مالك بن نبي فلا تبقى تأويلا عقليا للتصور الاسلامي كما شاهدناها عند المعتزلة ، بل هي نظرة مقتبسة من لغة علم النفس وعلم الاجتماع ، ومدى تجاوب التصور الاسلامي مع هذين العلمين في الفكرة ، لان كل علم هو كشف عن الحقيقة بطرق مختلفة .

1) عبدالكريم أحمد الشهرستاني ، الملل والنحل ورد هذا للدكتور محمود قاسم نصوص مختارة من الفلسفة الاسلامية مكتبة الانجلو المصرية ، بدون تاريخ ص46.

الباب الثالث

أسس فكرة التاريخ عند مالك بن نبي

الفصل الأول : عالم الأشخاص .
الفصل الثاني : عالم الأفكار .
الفصل الثالث : عالم الأشياء .
الفصل الرابع : الإيديولوجيا .

فكــــــرة التاريـــخ عنـد مالـــك بــــن نبـي

تبيـن لنا من البـاب الثـانـي أن من أسـس التاريخ ، التصور الحقيقـي للفكـرة والفاعليـة القويـة لها ، ومكانة النفس الانسانية في درجة التفاعل معها ، أو وضعها بين حدي الوعد والوعيد ، يبين هذا مالك بن نبي في كتابه "ميلاد مجتمع " حينما يشير الى أن العلاقة الروحية في الواقع هي أصل العلاقة الاجتماعية في المجال الزماني"(1). ومن هنا فالعلاقة الروحية هي علاقة بين وعد الله ووعيده للانسان بالمفهوم الاجتماعي بعد هضم هذه العلاقة في مجال الفرد ، ويردف مالك بن نبي أن الفرد مشروط بالجماعة بمعنى أنه لايمكن روية هذه العلاقة الروحية المتجسدة اجتماعيا الا اذا قامت اللبنة الأولى " الفرد" بتبليغها ، واذا لم يبلغها المجتمع فهو آثم ، ذاك مايشير اليه القرآن مثلا في قوله :" كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر..."(2).

واذا كنا قد تعرفنا في الفصل السابق على أسس الحركة التاريخية فنود الآن أن نتعرف على شروط الحركة التاريخية ، فما هي؟ وبعبارة أخرى ما هي الشروط التي تسير الحركة التاريخية عبر" معالم في الطريق"* ؟ من أجل صناعة التاريخ لأن صناعته ليست بالأمر الهين اذ أنه بمجرد أن يحقق الانسان وعد ووعيد الله :"يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم"(3).

تبدأ لوازم أخرى تعمل عملها من خلال الفرد في الطريق الاجتماعي ومن خلال المجتمع في الطريق العالمي الفائي.

---

1) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ، ت : عبد الصبور شاهين، دار الفكر ، دمشق الجزء الأول 1979 [illegible] 92
2) آل عمـــران ، آية 110
*) كتاب المفكر المسلم . سيد قطب .
3) الأنفـال آيـة 24.

يحلل مالك بن نبي الآراء المختلفة في تفسير الحركة التاريخية . أعتبارا من أن فكرة " المجتمع " ترتبط بونسج المتحرك بعناصر ثلاثة :

(أ) حركة مستمرة .

(ب) انتاج دائم لأسبابها .

(جـ) غايتها أو هدفها

ويري مالك بن نبي أن مخططا كهذا يبتدئ في الحلقة المفرغة ، اذا ما حاولنا تحديدا أي من هذه العناصر الاسبق : لانه اذا حاولنا أن نقول أن الحركة هي التي تؤدي الى أسبابها فاننا نقع في تناقض . اذأننا نبين المجتمع في حركية مستمرة دون أن نحدد الاسباب الاولى لهذه الحركة . يقول مالك بن نبي في هذا المضمار : " أن كل وسط انساني يندمج في حركاته منتج لأسباب هذه الحركة ينطوي على عامل أساسي يقهر الخمود الفطري طبقا المبدأ الميكانيكا الكلاسيكي - حين يحيل عناصر الخمود في وسط معين الى قيم حركية "(1) وهو يعني من كلامه هذا أن الحركة التاريخية لمجتمع ما عليها أن لا تتكئ الى شجرة الجمود من جهة ، ومن جهة أخرى عليها أن تغذي نفسها بنفسها عندما تقهر الخمود الفطري وتنتج لنفسها قيما تساهم في تحريكها . بمعنى آخر فان الحركة ، وان كانت لا تخلو من الجانب الميكانيكي فيها هذا الذي ينبئ السؤال الذي طرحنا سابقا - فان الجانب النفسي هو المنتج للقيم التي تساهم في سير حركته بالتمام : فكما أنه في علم الكهرباء الميكانيكية أن المولد الكهربائي ينتج شحنات كهربائية في الوقت الذي يزوده بها العمل الميكانيكي للمحرك ، كأن نقول أن المحرك هو المنتج للشحنات الكهربائية في حين أنه يقيم عمل ميكانيكي يصرف فيه كهرباء تستهلك من طرف المولد الذي بدوره ينتج شروط بناء الدورة الكهربائية .

---

1) مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ص17 .

وينقلنا مالك الى مفسري الحركة التاريخية من أعلام الفكر العالمي فيلاحظ أن هيجل يرجع الأسباب التي تحكم كل حركة تاريخية ، أي كل تغير اجتماعي الى مبدأ التعارض: " الذي يتكون من قضية ونقيضها والتركيب بينهما والحركة التاريخية تنشأ طبقا لهذه الأسباب المتعارضة ، وبالتالي فان غايته تتمثل أمامه في صورة اندماج وتركيب محتوم ، وبتعبير آخر، فان وضعا ما وحالة ما لجماعة من الجماعات الإنسانية يشكل قضية ، ثم ان كل تغيير سواء كان هذا التغيير اقتصاديا أو أخلاقيا أو .. فانه يشكل بالتالي العنصر المضاد تماما للوضع الأول وهو ما يسميه هيجل بنقيض القضية ، وان حركة التاريخ لا تظهر في جماعة من الجماعات الانسانية عندما تتم على صورة قضية ونقيضها الان هذا " الجدل " هو الهدف الأول الذي تسعى اليه هذه الجماعة الانسانية .

ويبدي مالك بن نبي رأيه أيضا في المذاهب الحديثة - نقصد المذاهب التاريخية - فيؤكد أنها انطلقت في تفسيراتها من هذه الجدلية الهيجلية ولو أن بعض المفكرين أضفوا على عامل الأسباب المتعارضة طابعا اقتصاديا . وعليه فان المجتمع الذي يوجد بهذه الصفة ويشكل حضارته يكون ناشئا من فكرة " التعارض الاقتصادي " هذه، التي هي الفكرة الماركسية .

يقدم لنا مالك بن نبي دليلا حول هذه الفكرة ومدى صحتها وصلاحيتها في واقع ما ، فيرى أن الفكرة الماركسية في رقعتها الجغرافية أستطاعت أن تحقق نجاحا في ميدان الدخل الفردي ، ومع الأسف فان هذا الدخل نفسه توصلت اليه كل من اليابان وأنجلترا بالرغم من أن الدولتين لا تنتميان الى فكرة ماركس الاقتصادية . يقول في هذا المعنى: " ... وبذلك نستطيع أن نتدرج الى أن نثبت العكس أن أنتشار الفكرة الشيوعية محدود داخل هذه الحدود الاقتصادية المطابقة لحدود جغرافية معينة ، وان التفكير الماركسي لم يجد وراء هذه الحدود

المزدوجة لظروف تواقلمه ، فهو بهذه الصورة لايستطيع أن يقدم لنا تفسيرا معقولا للمجالات التي لم ينتشر فيها على الخريطة ".(1).

ثم ينتقل الى فكرة "توينبي " حول تفسير الحركة التاريخية فيرى أنها هي نفسها مأخوذة عن فكرة التعارض التي أتى بها هيجل ، ولقد كان كارل ماركس قد أعطى فكرة التعارض: "مفهوم الصراع الطبقي" أعطاه صبغة مادية أقتصادية . في حين أن توينبي جعل ماسماه هيجل الحالة الراهنة بمجتمع ماشيئا طبيعيا غالبا مايكون موازيا في مدى قوته للطبيعة الانسانية مايجعل " التحدي ممكنا "فنقيض القضية هنا هو مايسميه "بالتحدي" وما ينجم عن التحدي نسميه بالاستجابة وحسب تعبير هيجل بين القضية ونقيضها .

ومالك يرى أن توينبي قدم تفسيرا غير تفسير ماركس أو هيجل للحركة التاريخية لما يجعل النشاط موجها بين طرفي نقيض : الحد الأول يمثل الطبيعة عنده والحد الثاني يمثل الجانب النفسي للانسان. وفي رأيه أنه كلما كان تحديا كلما كانت استجابة ، وكلما حدث العكس . كلما كان هناك اخفاقا . أن الحركة مشروطة بجملة عوامل تبدوا كأنها حتية بين الطبيعة التي تشكل المجال الحيوي والانسان الذي يشكل عنصر التجاوب ، وبتعبير مالك بن نبي فان الحركة التاريخية حسب توينبي مرهونة بشرطيها حين يتحقق اللاافراط واللاتفريط ، وشرحا لفكرته يقول. أنه كلما كانت الطبيعة قاسية كلما استطاع الانسان أن يتغلب عليها ويسخرها لنفسه ، شرط أن يملك ضميرا قويا أوشعورا قويا تجاه عملية التسخير هذه ، وهذه الحال أو هذا الوضع هو وحده الذي يمكن الحركة التاريخية من السير. أما اذا حدث العكس من هذا ، أي في حالة ما اذا كانت قوة التحدي " الطبيعة " أصلب وأمتن من قوة الاستجابة " الانسان " أو كان العكس بمعنى : أن قوة الاستجابة كانت أمتن عودا عند الانسان منها في الطبيعة : ويستند مالك بن نبي في هذا الى

---

1) المصدر السابق نفسه ص 19 .

مثاليين يستدل بهما توينبي من التاريخ ، اذ يلاحظ على أن :- الكلام لمالك بن نبي - الشعوب التي هاجرت الى أعالي النيل، ابان العصر الحجري الجديد تستطيع أن تحدث تغييرا ذا بال في شرائط حياتها منذ ذلك الحين لأنها قد عمدت الى الفرار من قسوة التحدي ، أما أخوانهم الذين كانوا يعيشون في الوادي المنخفض فقد آثروا مواجهة التحدي الذي واجهتهم به الطبيعة المناخ ، فغيروا شرائط حياتهم تغييرا تاما ونجحوا في اقامة أول مجتمع متحضر شهده التاريخ "(1).

ويستطرد مالك بن نبي قائلا :" أن الاسكيمو الذين يعدون نموذجا للجماعة الانسانية التي لاتغير شرائط وجودها ، لأن تحدي الطبيعة لها قد أربى على مكانياتها وقواها جمدها في شكل من أشكال الحياة الساكنة "(2) ان القضية هي قضية وجود أو لا وجود يعني في رأي العلامة تويمي ، اما أن يتحدى الانسان الطبيعة ، وتتحداه هي ؛ فهي الحالة الاولى يبني ويقيم حضارته ، وفي الحالة الثانية فان الجمود يصيب حيثه حتى كان حياته تصبح شكلا من الاشكال التي ترضي الطبيعة حسب ، بمعنى أنها ترضي الواقع التي تعيشه الشعوب ، ومنها شعوب الايسكيمو مثلا .

ان هذا حسب مايشير اليه مالك بن نبي هو التفسير الذي قدمه توينمي للحركة التاريخية ، وهو تفسير يصح كثيرا ، كما نرى في المجال الطبيعي ، ولهذا انتبه مالك بن نبي اليه وحاول أن يصوغه صياغة أخرى في نهج آخر" ونحن يمكننا الى حد ما أن نصوغ هذا الرأي الذي ذهب اليه المؤرخ "توينبي" صياغة جديدة في ضوء القرآن الكريم . فقد نستطيع - حيث لم نصل لهذه الطريقة الى تفسير واضح لمنشأ الحركة التي ولدت المجتمع الاسلامي وغايته التاريخية أن نفسر هذه الحركة بالعوامل النفسية التي حفزت القوة الروحية لهذا

1) المصدر السابق نفسه ص20.
2) المصدر نفسه ص20.

المجتمع ، أعني شروطحركته عبر القرون (1)

ان مالك بن نبي كما أسلفنا في هذا القول يريد أن يدحض فكرة كون المجتمع عندما يريد أن يقيم حركته التاريخية ،يكفيه أن نحفز فيه الدوافع الطبيعية النفسية ، فنرى أنه لا يمكننا أن نقول بذلك تحفي هذه الدوافع في رأيه هو الاخر بحاجة الى عامل يحفزه ، ولذلك " فالحالة النفسية " الطبيعية غير كافية وحدها لتمرير وتسيير الحركة التاريخية وبعبارة أوضح ، فانها لو كانت كذلك كان عليها أن تحفز شعوبا كثيرة اذ لا فرق بين المجتمع الاسلامي والمجتمع البذوي ابان تشكلها ، ولكن تبقى المسافة بعيدة بينهما حينما نرى أن المجتمع الاول يتشكل بأفراده " كأنهم بنيان مرصوص" الشيء الذي يمكنه من أن يبقى سائرا بين القرون في حين أن الثاني فانه يتشكل حسب اباضة البوغا "هذا الذي لم يسمح له بأن يمارس سيره عبر القرون.

ومالك بن نبي عندما يقدم هذا النقد "لتوينبي" فانما يريد أن يحقق فكرته لكن هذه المرة في قالب آخر هو قالب " الوعد" والوعيد" الذي عثر عليه في القرآن الكريم فهو يقدم تعريفه "للوعد والوعيد" كما أشر الى ذلك في الفصل الماضي ، ويخلص الى ضرب مثالين عليهما كحالتين نفسيتين:
المثال الاول طبعا يأخذه من التاريخ الاسلامي في أيامه الاولى وهو حالة صبر بلال الصحابي الجليل رضي الله عنه - على ما كان يلقاه من عذاب وبلاء ، وكيف أستطاع أن يتعدى قوة قريس بقولته أحد، أحد..." يقول مالك بن نبي عنه :" ولم تستطع قوة في الارض، وما كان لها أن تستطيع أن تخفض أصبعه اذ أن روحه في اللحظة التي كانوا يصبون فيها العذاب على بدنه كانت منغمرة في فيض نوراني لا يوصف هو" وعد الحق"(2).

1) المصدر السابق نفسه ص21.

2) المصدر نفسه ص21.

والمثال الثاني هو مثال المرأة الزانية* التي طلبت من الرسول (ص) اقامة حد الزنا عليها ، يبرز لنا قيمة " الوعيد" في توجيه الطاقات النفسية في حالة معينة"(1).

ان هذا الفهم لاسس الحركة التاريخية ولعوامل انطلاقها أو لشروطها هو الذي يمكننا من أن نستنتج أن النفس الانسانية تقع في حالتها الطبيعية بين حدى : وعد ، ووعيد ، وكل مجال لها خارج هذين الحدين هو مجال اما " اليأس" ، أو القنوط ، وعندئذ يمكن القول أن الحركة التاريخية لايمكنها أن تتم في هاتين الحالتين ، لانهما حالتان تنعدم فيهما الحركة التاريخية حسب ، بل وحتى الحركة الطبيعية .

وحسب أننا قد وضعنا ، قد المستطاع جملة الآراء التي خاضت في سير الحركة التاريخية ، ابتداءا من فكرة هيجل :" الجدلية التاريخية" ومرورا بالجدلية المادية لماركس ، ووقفنا مع توينبي" في تعويضه لفكرة التعارض بفكرة التحدي والاستجابة ، ووقوفا أيضا عند العامل الذي يجعله محفزا للحركة التاريخية وهو محفز طبيعي ، لنتعرف الآن على صياغة هذا الرأي الأخير صياغة أخرى كما فعل مالك بن نبي الذي يشير الى أن" آلية الحركة التاريخية انما ترجع في حقيقتها الى مجموعة العوامل النفسية التي تعتبر نتاجا عن بعض القوى ، الروحية ، وهذه القوى الروحية التي تجعل من النفس المحرك الجوهري للتاريخ الانساني"(2).

ومالك بن نبي ، هذا كله يعود الى المورخ الفرنسي" جيزو"(3) محلل الحركة التاريخية في أوروبا الذي يرى أن التاريخ من حيث كونه علم ماوقع

*) سيرة ابن هشام حديث المرأة الزانية واقامة الحد.

1) المصدر السابق نفسه ص21.

2) المصدر نفسه ص 23.

3) جيزو" Guizot " فيلسوف وموارخ فرنسي معاصر من أهم موالفاته ، معرفة التاريخ.

فلايمكن أن يتناول موضوعه بطريقتين " فأما أن يجد مجال دراسته في الفرد نفسه في كل ما يؤثر في حياته ، ويغير من صفاته الانسانية ، واما نجده في الوسط الذي يحيط بهذا الفرد ، أعني في كل ما يؤثر في حياة المجتمع ويغير من صفاته ، والتاريخ على أي حال ليس سوى هذا التغيير الذي تتعرض له الذات والمجال الذي يحوطها على السواء "(1).

وتفسير ذلك أن التاريخ في حركته حسب ما يشير "جيزو" " Guizot "* هو تغيير نفسي يقع للذات أولا وقبل كل شيء ، بمعنى أن ذات الانسان عند ما تحفزها جملة عوامل كان تكون عوامل ميتافيزيقية أوروحية ، فانها تفعل فعلها في المجتمع الذي بدورها يضع تاريخه ، ويبقى المشكل المطروح هو هل أن هذه " الذات " هي التي تشكل الافراد أم أن الافراد هم الذين يشكلون هذه الذات ففي نظر " جيزو " ان المشكل سواء طرحناه بالطريقة الاولى أو الطريقة الثانية فان "الحدث" الذي نتوخاه من كل ذلك هو تحول " الذات " أي "ذات" كفرد الى "ذات" كشخص ، وهذا هو المهم .

ان التحول من الحالة الاولى الى الحالة الثانية وبفعل العوامل الذي أشرنا اليها سابقا هو الذي ترك مالك بن نبي يفكر في أن التاريخ : هو ضرب من النشاط المشترك "للاشخاص" "والافكار" "والاشياء" . وبتعبير أدق فان صناعة التاريخ تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاث :

أ - تأثير عالم "الاشخاص

ب - تأثير عالم الافكار .

ج - تأثير عالم الاشياء .

ان تأثير هذه العوالم مجتمعة هو الذي يمكن الحركة التاريخية من السير ، فحسب مالك بن نبي أن أسس الحركة التاريخية هي العوالم الثلاث هذه التي سنحللها قدر المستطاع في الفصول المواليـــة .

---

1) المصدر السابق نفسه . ص 23.

* جيزو" Guizot "فيلسوف ومؤرخ فرنسي معاصر من أهم مؤلفاته معرفة التاريخ.

الفصل الأول

عالم الأشخاص

عالـــــم الأشخـــاص

انه لتذليـل مصطلح" علم الاشخـاص" والذي في الحقيقـة لانجد لـه تحديـدا كلفـظ قاموسـي عنـد مالـك بن نبي - علينـا أن نعـود الى ما نستطيـع من قـراءات تخص اللفظـة في جميـع كتابـاته . ولكـن مع ذلـك يمكننا أن نستبين بعض التعريفـات التي يقدمها والتي في رأينـا تحدد مصطلـح " عـالـم الاشخـــاص.

ان لكلمـة شخـص معنى خاصـا ومضبـوطـا في فكـر مالك بن نبي ، فهـي تعنـي : " الكائن المعقـد الذي ينتـج الحضـارة وهذا الكائـن هو في ذاتـه نتـاج حضـارة ، ، اذ هو يديـن لهـا بكـل مايملـك من أفكـار وأشيـاء[1]". وهـو بهـذا المعنـى يبـدي فرقـا هائـلا بيـن كلمـة " فرد" وكلمـة "شخص" اذ أن الكلمـة الأولـى لاتـدل سوى على النـوع كما عرفتـه الحيـاة البيولوجيـة ونعنـي بهـذا أن الفـرد هو مجمـوع الصفـات الجسمانيـة التي تميـز النوع عن غيـره من الانواع ، في حيـن أن كلمـة شخص كما عـرفت معناهـي أولا وقبل كل شـيء تغييـر في المجـال الثقـافي ذاك المجـال الذي يديـن له الفـرد حتى يصبـح شخصـا : بمعنى أن الفـرد متـى أصبحـت لـه شبكـة علاقـات اجتماعيـة تغيـر وأصبـح شخصـا .

من هـذا التوضيـح كلمـة شخـص نستطيـع الآن أن نذلل المصطلح السابـق فهو يعنـي : مجمـوع الكائنـات المعقـدة التي تنتـج حضـارة ، وهي الكائنـات التي تمثـل في ذاتهـا نتـاج حضـارة ... الخ، وبعبارة أخـرى فمالك بن نبـي يعنـي بعالـم الاشخـاص العالم الذي تغيـرت فيه الافـراد بسبب شـروط ثقافيـة الى أن كونـت عالما خاصـا بها - والذي هـو في حقيقتـه ايجاد مناخ ثقافـي خاص للعلاقـات الاجتماعيـة سميناه عالـم الاشخـاص.

---

1) مالـك بن نبـي، ميـلاد مجتمـع ص26.

والآن وبعد أن قربنا المفهوم من الأذهان يبقى علينا أن نبين كيف يكون لعالم الأشخاص تأثير - طبعا مع بقية العوالم - في سير التاريخ وبالتالي مشاركته في صنعه ؟ ومع ذلك يستعصي علينا الأمر اذا أنجرينا مباشرة الى تبيين هذا التأثير دون أخذ العموميات التي ينطلق منها عالم الأشخاص في تأثيره ، لهذا علينا أن نتقيد في كثير من الحالات بالنص الذي يهم موضوعنا هذا .

يقول مالك بن نبي : "ان الطبيعة توجد النوع ، ولكن التاريخ يصنع المجتمع وهدف الطبيعة هو المحافظة على البقاء ، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل الحياة الراقية هو ما نطلق عليه اسم الحضارة"(1) .
وهو يعني من كلامه هذا .

أولا : يحدد لنا مفهوم الانسان ، فهو في نشأته يوجد على شكله الطبيعي أي تكون مجموع الصفات البيولوجية هي التي تصنع سمات شخصيته سواء أكانت هذه الصفات صفات جسمانية ، كالطول أو القصر ، والسمنة ، والنحافة ، وضخامة البنية الجسدية ... الخ ." أو كانت هذه الصفات صفات وراثية ، كوراثة الصفات السائدة من الآباء والأجداد والصفات الخاصة بالجانب الطبيعي في الانسان .

والانسان بهذه الحالة شبيه بعالم الحيوان من حيث الخاصة البيولوجية لكنه يختلف عن هذا العالم الحيواني كليا ، اذ أكد اليوم علماء البيولوجيا على أن الانسان اليوم ببيولوجيا غير عالم الحيوان والمهم هو أن الخاصية الطبيعية في الانسان لا توجد سوى في نوع الانسان والخاصية الطبيعية في نوع الحيوان لا توجد سوى في الحيوان . وهكذا فان الحياة الطبيعية في عالم الانسان لا تؤهله سوى أن يلبي حاجياته

---

1) المصدر السابق نفسه ، ص16.

البيولوجية الى جانب ذلك يوجد فيه أيضا مجموع الاستعدادات الفطرية التي يمكن الفرد من عمل التغيير . فالطبيعة عندما تأتي بالنوع الانساني تأتي به كما هو بيولوجيا فقط - بينما - حتى يكتمل دور الانسان وحتى لا يبقى الانسان مجرد فرد بل يتحول الى شخص هناك عمل آخر ينتظر هذا الانسان ، هذا العمل هو القيام بعملية تغيير وشحذ للملكات الفطرية فيه كي يوجهها نحو أهداف نبيلة ونحو غايات ترضي الانسان في جانبه القيمي ، الاخلاقي خاصة. ان هذا العمل هو مايقوم به الفرد من عملية تغيير نفسي تتماشى والوجهة التي تحددها له الشرائع والايديولوجية الخاصة به. والانسان بهذا الحال يمكن له أن يتغير من فرد الى شخص عندما يغير أولا : الجانب الذاتي فيه من حالة "الطين" الى حالة " العقل" حين اذ يمكنه أن يغير الواقع المحيط به. ثم ان عملية التغيير هذه تكون وفق شروط هي:

أولا: أن يقتنع الانسان بالفكرة الموجهة لمناهجه في الحياة .

ثانيا : أن يقنع الاخرين بهذه الفكرة .

واذا قام الانسان بهذا العمل الثنائي فقط فانه يستطيع أن يكون مساهما الى حد ما الى صنع التاريخ ، وبالتالي نستطيع أن نقول عنه أنه شخص مساهم في صنع الحضارة .

ان عمل التغيير الذي يحول الانسان من كونه فردا" INDIVUIDU "الى كونه شخصا " PERSONNE "يقتضي أيضا عدة شروط :

أولا: على الانسان أن يتمكن من فهم نفسه ، ومن فهم الواقع المحيط به .

ثانيا : أن يكون متفهما للفكرة التي توجهه في فهم ذاته وفي فهم ذلك الواقع الذي يحيط به .

وبتعبير أدق فان اعلى نهي الانسان أن يقوم على هذه البسيطة، خاصة محور طانجة - جاكرطة [1] بالارتفاع الى مستوى الحضارة*، وعلى الانسان هناك في محور واشنطن - موسكو أن يعلن الاقلاع للأمر، تلك الحضارة الاثم والاعلى: "... وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين" (1). ثم ان عمل التغيير سواء هنا أو هناك لايمكنه أن يقوم أو أن يتم الا اذا استجابا القوم لآية: "لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم" (2).

بمعنى أن عمل التغيير من الناحية الاجتماعية شروط:

أولا: بالتغيير من الناحية الفردية في هذه الحال على الانسان اذا كانت لاتوجهه مبادئ أفكار مادية سرفة أن يستجيب لدعاء الله له، وعندئذ فان عمل التغيير الاجتماعي لايتوافق الا وما يمليه الله للقوم. لانه وبتلك الكلمة التي ألقاها الى هؤلاء القوم لا فقط" يستطعون أن يتم الشيئ وا بتطبيق آخر فان التآلف والمحبة بين القوم لاتتم أولا تقوم الا اذا أستجابوا لها" أي للفكرة الموجهة "عندئذ" فقط" اذا تجاوب القوم توحدوا واذا توحدوا أصبحوا قوة: كيف يتوحدون؟ اذا أصبحت أفكارهم ذات منطلق عقائدي واحد وترتب عنها سلوكاتهم الاجتماعية " الاخلاقية وأصبح ذوقهم للحياة وللكون واحد" جماليا" فأصبحوا اخوة متحابين، ونعتقد أن هذا هو ما كان يشير اليه الحديث الشريف: "المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه البعض" (3) ومالك بن نبي اذ يرى ان انتقال الانسان من مجرد فرد الى كونه شخص هو أولا وقبل كل شيء تغيير في المجال الثقافي كما

---

* يرى مالك بن نبي أن المجتمع الخاص بنا لم يصل بعد الى مستوى الحضارة وانما هو في مرحلة بادرة حضارة

1) آل عمران آية 139.

2) التوبة آية 10.

3) حديث شريف رواه مسلم في صحيحه.

أسلفنا سابقا ، ومن هنا في رأيه فانه، لايوجد شيء ذا أهمية كبرى من العمل الذي يتسنى الانسان أن يقوم به من تمتين الأواصر والروابط مع غيره من الأفراد، وهو يقول في هذا المعنى: "ان العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده، هو اقامة شبكة العلاقات الاجتماعية"(1) طبعا حتى يتمكن الأفراد من ربط بعضهم البعض، وحتى تكون بينهم صلات وروابط أخلاقية موحدة ، والا فاذا يعني تجمع أفراد بعضهم الى بعض طبعا ليس له أي معنى ، اذ لم تحدد هذه الروابط شروط أخلاقية تجمع بين الأفراد ثم ان الجموع الغفيرة التي نراها تتجمع من أجل هدف ما لايكون لها أي اتصال في مجال العلاقات الاجتماعية أي لايرتبط بعضها برابطة أخلاقية تبقى مجرد جماع . فهي اضافة فرد الى فرد "1+1+1...؟"، بمعنى أن تجمع على أي كان لا يؤهل العلاقات الاجتماعية للارتباط فهو فاقد. وهكذا لاحظنا التعبير القرآني لما وصف أولئك الضالين عن الطريق المستقيم فأخرجهم لنا في معركة مع الايمان فقال: " سيهزم الجمع ويولون الدبر .."(2) فكلمة الجمع هنا تعبير صادق على أن مجرد اضافات فردية لبعضها البعض، لاتجدي ولاتنفع، اذ لم تكن البناءات اللازمة في المجال الثقافي هي الرابطة لهذه الجماعة كي تتحول الى جماعة " جمعة "(*).

ثم ان الاجتماع الانساني على ضوء هذه العلاقات ذات الاطر الثقافية الخاصة ، هي بالتالي التي تؤهل هذا المجتمع، أن ينتج فقط أفكار، وأشياء ، والملاحظ أن العمل الأول الذي قام به الرسول (ص) - حين هاجر من مكة الى المدينة - هو بناء مسجد وأخى بين المهاجرين والأنصار، والحقيقة أن هذا العمل الأول دليل قاطع على

1) المصدر السابق نفسه ص26.
2) القمر ، آية 45.
*) يرى مالك بن نبي أن كلمة "جمعة" رمز وتعبير صادق لتذكير المجتمع الاسلامي بساعة ميلاده .

أنه، في المسجد يستطيع الفرد المسلم أن يتذكر ساعة ميلاده، حتى يحافظ على استمرارية النوعية من ناحية الكم والكيف، بمعنى أن الانسان في هذا الحال يمكن الى حد ما أن يضمن شروط بقائه، " كشخص مسلم ". وان العمل الثاني الذي هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لم يكن ممكنا دونه، فاليوم بأي تجاوب بين الفكرة القرآنية وعالم الانسان مالم يكن في امكان كل أنصاري أن يتقاسم شروط الحياة مع أخيه المهاجر. هذا العمل الذي للأسف لازالت الأمة تفتقر اليه اليوم.

فعمل كهذا اذا حللناه من الناحية النفسية لاحظنا أنه أعطى الدفعة الحيوية للرجل المسلم فانطلق مع التاريخ في شخص" عقبة بن نافع" الذي يقف عند حدود المحيط الاطلسي، ويقول داعيا مولاه فيما معناه: "يارب لو علمت لك أرضا وراء هذا البحر لفتحتها".

ولاحظنا على أنه هو الذي مكن تجاوب شهداء بدر يوم الوقيعة مع آية " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين"(1)

وهذا العمل هو الذي مكن عدو الاسلام قديما وحديثا* من أن يشهد له لاعليه، في مجال التحرك السريع الذي أمتاز به عالم الاسلام خاصة أيام بزوغ حضارته الأولى.

ويزيد مالك بن نبي هذه الفكرة وضوحا - أي فكرة عالم الأشخاص حينما يضفي عليها معنى الثقافة في التاريخ اذ يقول: " لايمكن لنا أن نتصور تاريخا بلاثقافة، فالشعب الذي فقد ثقافته، فقد فقد تاريخه (2).

---

1) البقرة آية 247.

*) يشهد على هذا منصفي الحضارة الاسلامية اليوم من الغرب" كغوستاف لوجون الفرنسي" وزيغريد هونكة الألمانية" وويل ديوارنت الألماني." وغيرهم

2) مالك بن نبي شروط النهضة ت عبدالصابور شاهين، دار الفكر، دمشق ط:4(1979 ص129.

وهذا الكلام نجده من الناحية الفلسفية ساريا في مشكلتين عويصتين هما مشكلة الثقافة ومشكلة التاريخ، وبالتالي العلاقة بين الثقافة كمشكلة والتاريخ كمشكلة ، فنجد حدود العلاقة هذه كالتالي:

أولا: من الناحية المنطقية فان الثقافة تصنع التاريخ والعكس صحيح: لكن اذا قلنا " لاثقافة " فهذا يستلزم أيضا " لاتاريخ" ، واذا قلنا أيضا لاتاريخ فهذا يعطي أيضا لاثقافة وهذا معناه منطقيا أن أحد طرفي المعادلة مرهون بالطرف الثاني.

ثانيا : ومن الناحية الواقعية نلاحظ هذا في عدة مجتمعات ،كتلك التي تسمى اليوم بالمجتمعات " البدائية" : فنلاحظ على أنها تعيش " اللاثقافة " ، فكانت أيضا بالتالي على هامش التاريخ فهي أيضا في حالة " اللاتاريخ". وكذلك أمر مجتمع الاسكيمو ذاك المجتمع الذي تحجر نتيجة أنه لم يكن في امكانه أن يرهن شروط ثقافية معينة ، وعليه فانه يمكن القول لاتاريخ لمجتمع الايسكيمو.

وهناك القصة قريبة من في التاريخ الحديث، ان الغزوات التي قام بها الغرب الأوروبي لابادت الملايين من الهنود الحمر، ومن أجل بترها من ثقافتها . نلاحظ على أن سكان القارة الأميريكية والذين أبيدوا بطريقة اصطناعية من طرف الغرب أيضا يمكن القول لاثقافة اليوم لهم أمام ثقافة "الديموقراطية وثقافة " الاشتراكية " ، وثقافة " اللاثقافة الاسلامية "(يرى مالك بن نبي أن المجتمع الاسلامي اليوم يعيش "اللاثقافة ").

اذن من خلال هذا التحليل - الذي أردنا من الناحية المنطقية والناحية الواقعية - فان معنى الثقافة في التاريخ على علاقة متينة بتوفير ما يسميه مالك بن نبي " بعالم الاشخاص". لأن المجتمعات سواء منها تلك المتحجرة كشعوب الايسكيمو أو الشعوب " البدائية " أو تلك المنقرضة كشعب الهنود الحمر

يمكن القول عنها أنها فقدت شروط بقائها ، عندما لم تضمن المؤهلات الثقافية على صعيد الفرد ، حتى يتسنى له أن ينتقل الى شخص صانع للتاريخ ، ونفس الشيء يقال عن المجتمع . وهكذا وجدنا حسب تحليلات علماء الانثروغرافيا أن الشعوب " البدائية " تعيش على شكل قبائل وكأنه مر علينا اليوم منها أكثر من ألف سنة في عاداتها وتقاليدها و... في ثقافتها .

وكذا يلاحظ مالك بن نبي أن المجتمع الاسلامي منذ سقوط غرناطة الى القرن التاسع عشر لم يخط ولا خطوة في تاريخه ، فلم تكن نجد مؤثرين في التاريخ أمثال الفارابي والرازي والخوارزمي و... حتى وكأن تلك الفترة من التاريخ تعتبر فترة " لاوجود " لها في تاريخ المجتمع الاسلامي من الناحية الحضارية . والسبب يعود الى كون الحضارة الاسلامية توقفت عند آخر شمعة وقدت في عصر ما بعد الموحدين والمتمثلة بشخص ابن خلدون، فلم تعد المبررات الثقافية ممكنة لذات المجتمع من أن يكمل مسيرته عبر التاريخ . لأنه فقد أكبر خاصية لافراده والتي هي بناء العلاقات الاجتماعية وبالتالي يمكن القول بأنه بتر عالم أشخاصه .

وحسب ما يلاحظ مالك بن نبي فان الغرب المعبر عنه اليوم " بأفول الغرب" أيضا هو الآخر سائر الى مصير " اللاثقافة". اذ أن الوجودية في فلسفتها رمت الى محاولة ملأ فراغ يعيشه الغرب من الناحية الثقافية وهكذا نجد أن أشخاص حركة " الهيبيجر " [illegible] " أحسن معبرين عن ذاك الفراغ وأشخاص " جون ترافولتا" و...".

لكن يرشدنا مالك بن نبي الى أن الثقافة بما تتضمنه من فكرة دينية .. هذا هو معنى الثقافة في التاريخ.(1).

---

1) المصدر السابق نفسه .ص129.

هذا هو مفهوم " عالم الاشخاص" حسب التعبير الفلسفي والديني. أما من وجهة نظر علم النفس وكما أقررنا سابقا فان" الطبيعة تأتي بالفرد في حالة "بيداغية " ان ثم يتولى المجتمع تشكيله ليكفه لأهدافه الخاصة وهو المعنى الذي يتصد اليه رسول الله (ص) في قوله :" كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أوينصرانه أويمجسانه".[1] وليس هذا وحسب. بل اذا أردنا أكثر من الجانب السيكولوجي الاجتماعي ، نستطيع أن نقول مع مالك بن نبي "أن الفرد والمجتمع - في الطريق العادية يعملان في نفس الاتجاه ، فان هناك تبادلا بين الانعكاس الفردي والعلاقة الاجتماعية .وبفضل هذا التبادل ينبغي أن نتوقع تدخل الواقع الديني في هذا الجانب الجديد من المسألة"[2].

ومن خلال هاتين الفكرتين يتضح لنا :

أولا: أن الانسان مع ولادته (الطبيعية) فانه لايؤهله عامل الولادة الطبيعية، حتى لمجرد أن يسلك أي سلوك اجتماعي ، ولا حتى لأن يسلك سلوكا فرديا ، بل يمكنه أن يبكي عندما يجوع أو يعطش ، كما يمكنه أن يبكي أيضا عندما يصيبه أذى سواء كان هذا الأذى ألم داخلي بيولوجي في ذاته أو كان هذا الأذي من المجتمع المحيط به ، غير أنه هو في كل الظروف خاضع في صيحاته لدفعات بيولوجية بحتة .

ثانيا : والمجتمع الذي يتولى تشكيله يراعي فيه الجانب الذاتي - سواء شعر هذا الفرد بهذه المراعاة أم لم يشعر - بمعنى أنه ليس" القصر الاجتماعي" وحده هو الذي يفعل فعله في حياة الفرد لماذا؟ لأنه كما جاء في الحديث يولد على الفطرة " والفطرة هنا :أي الغرائز الخيرية في الذات الانسانية ، ويبقى الشيء الوحيد الذي يقوم به المجتمع هو أنه يكفل له نمو هذه الغرائز وفق المحيط "الجو" الثقافي الاجتماعي الذي "يتنفس" فيه

---

1) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ص60 ، نقل الحديث من نفس الصفحة .

2) المصدر نفسه ص61.

هذا الفرد. وبتعبير آخر نلاحظ في هذه الحالة فيه نموفي" علم "أشخاص" هذا الفرد.

ويزيدنا مالك بن نبي توضيحا لهذه الفكرة الأولى عندما يتكلم في الفكرة الثانية على أن: الفرد والمجتمع يعملان في نفس الاتجاه: بمعنى أن الفرد يخضع تارة " للآلة " الاجتماعية - مع أننا لا ننسى أن المجتمع يخضع أيضا للفعل الموقر للفرد، وكأنه بالتالي العلاقة بين الفرد والمجتمع علاقة تكاملية ، المجتمع يتولى تشكيل الفرد، والفرد يساهم في خلق هذا التشكيل نفسه ، فكما أنه في عالم البيولوجيا الخلية تساهم في نقل الطاقة المقوية للجسم منها الى خلايا أخرى جديدة تحيا من جديد، فان الجسم هو الذي يراعي هذا العمل التكاملي بين الخلايا ، في حين فيه " المناعيات" التي تدافع عن الجسم وبالتالي عن الخلايا الجسمية من الميكروبات " القتالة".

هذا المثال الذي أتينا به في عالم البيولوجيا يدعم فكرتنا عن عمل الفرد والمجتمع التكاملي ، لكن مع ذلك لاتنسى أنه خلال التبادل بين العلاقة الفردية والاجتماعية فيه تدخل لقوى أخرى تساهم في تمتين العلاقات بين الفرد والمجتمع ، هذه القوى هي تلك القوى الروحية " الدين" الذي يعمل بامداداته الاخلاقية على توثيق تلك الصلات بين الفرد والمجتمع والعكس صحيح: أي أنه في الحالة التي يخرج فيها الفرد عن آلة المجتمع فانه يقابل بالاستهجان من طرف هذا المجتمع. وهاك المثال من الواقع: ان المجرم له الشرف في أن يغوز في اجرامه لكن لايحصل له هذا الشرف عندما يقابل بالعتاب أو العقاب من طرف القوانين التي يسير عليها المجتمع : كأن يكون هذا المثال قصة الطيار الأمريكي الذي قنبل مدينتي هيروشيما ونغازاكي اليابانيتين بعد الحرب العالمية الثانية

لاحظنا من خلال تحليل لتلك القصة من طرف أخصائيين في علم النفس في مجال الصحافة كيف أن ذاك الطيار بعد فعلته الشنيعة لم يكن في امكانه أن يتباهى بفضل البطولة الذي قام به بل ركن الى دير لعله " يسكت عليه " النميري من . الحض النيسه ، ولعله بالتالي تسكت عليه الدنيا لكن هيهات ! ....". (*)

لقد ساقنا تحليلنا لعالم الاشخاص في السابق الى تحليل العملية المتبادلة بين الفرد والمجتمع في اطار العلاقات الاجتماعية ، وتدخل العامل الديني " الاخلاقي " كما دعمنا ذلك بمثال لاحظنا فيه مدى استجابة " الذات " الفردية " للذات " الاجتماعية في عمل كعمل قصة الطيار الأمريكي ، ولكن لكي ندعم فكرتنا بأمثلة من التاريخ الاسلامي يورد مالك بن نبي المثالين التاليين ليرى فيهما التالي: ان قصة تناحر أبو ذر الغفاري مع بلال - رضي الله عنهما - لأعطتنا مثال: على أنه كيف ومتى يكون الفرد والمجتمع يعملان في نفس الاتجاه، مع ذاك التدخل للجانب الديني في نفسية الافراد . اذ أنه لاحظ أن العفو الذي صدر من الجانب الأول على الجانب الثاني ليس سوى اعتراف بالخطأ ، هذا الاعتراف الذي أقرته البذرة الدينية في نفسية رجل كبلال رضي الله عنه دليل على أن العلاقة بين الطرفين هي علاقة : أولا وقبل كل شيء اعتراف بالخطأ هذا الذي لم نر مثله في التاريخ قاطبة .

والمثال الثاني هو ذاك المتمثل في عزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه - خالد بن الوليد - رضي الله عنه - من قيادة الجيش الاسلامي وتعيين مكانه عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - فلم تكن تلك الاشارة من عمر على خالد بن الوليد

(*) مالك بن نبي، أحاديث في البناء الجديد، ت، عمر كامل سقاوي ،ط3 دار مكتبة الحياة صيدا ، لبنان (بدون تاريخ).

الا لتزيده هذا الأخير ايمانا بأنه لم يك بدافع في سبيل عمر، بل هو جندي من جنود الله : الشيء الذي تركه (خالد) ينضم في صفوف الجيش الاسلامي ويزيد فعالية في الدفاع عن الأراضي الاسلامية ويحقق النصر تلو النصر في الفتوحات الاسلامية ، وهذا العمل الذي قام به خالد يلاحظ عليه مالك بن نبي التالي:

- أن خالدا لم يكن يعمل لذلك ، الالانه كان يرى شخصه متحققا في الجنة لأنها من باب الجهاد . فلم تكن هذه الصورة سوى محققة لآية :" "ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص"(1).

ولو تصورنا هاتين الصورتين في التاريخ الحديث ، فلم تكن نعثر على أحدهما في أي كانت من الدول ، حتى تلك العظمى، فكثيرا ما سمعنا عن عزل قائد كبير لدولة من هذه الدول فيلاحظ على أنه يتمرد على وضع البلاد ويصبح لاجئا سياسيا مناهضا لدولته وقوانينها هذا ماحدث أخيرا في ايران "الاسلامية " مع قصة عزل الخميني للرئيس الأول السيد بني صدر، أووزير خارجية ايران آنذاك اذلاحظنا كيف أن كلا السيدين أصبحا من أكبر أعداء الجمهورية الايرانية الاسلامية .

وحسب مالك بن نبي فان التحول الذي يطرأ على مجموع العلاقات الاجتماعية لايتم سوى من طريق التربية ويتم حسب ثقافة مجتمع . تلك الثقافة التي تراعي عناصرها أحسن رعاية في عملية التغيير : أعني حين يكون الامر في صورة تحقق في نفسية الفرد للقانون الاخلاقي وتوجيهه . وحين يكون في صورة تبني للمنطق الجمالي، والمثابرة على المنطق العملي، أو الصناعة" بتعبير ابن خلدون وايجاد " الذوق" الموءلف لكل هذه التوجيهات.

---

1) الصف آية 4.

ان هذا التحليل الذي يورده مالك بن نبي" لعالم الاشخاص" ثم يقرر بأنه، لايمكن تصور عمل تاريخي ، وبالتالي صناعة التاريخ، إلا اذا كان هناك اشتراك " لعالم الأفكار "ولعالم الاشياء" وسنتناول تحليلا ماهية تدرالنظرية لعالم الأفكار بعد أن بينا عمل عالم الاشخاص" والاسس التي يقوم عليها هذا العالم .

الفصل الثاني

عالم الأفكار

عالــــــم الأفكـــــار

يمكن اليـوم للانسـان أن يـؤثـر في المجتمع بثلاثـة أشيـاء: يمكن لـه أن يـؤثـر فيـه بالعمـل الدؤوب الذي يقـوم بـه خلال نشـاطـه الاجتماعي في اليـوم كما يمكـن أن يـؤثـر في هذا المجتمع بمـاله ويحوله من مجـرد " ثـروة " الى مال موظـف " رأس مال " في الواقـع الاقتصادي له وبالتالي للمجتمـع وللدولـة . ثـم انـه يمكـن للانسـان أن يـؤثـر في المجتمـع ... بفكرة يملكهـا عن تصـور للحيـاة وللمجتمـع وللكـون وهي التي تهمنـا في بحثنـا هـذا . والملاحظة العابـرة تريـنـا أن الأبطـال والعلمـاء أثـروا ولازالـوا يؤثـرون في التاريـخ فيحـددون تارة بنـاء مجتمـع وبالتالـي يصوغـون ويبنون تاريخاً يخص وجهتهـم اذ فبفضـل الفكـرة استطـاع الانسـان أن يمـر في طريقـه في التاريخ والفكـرة معبـر عنهـا تصبـح " كلمـة " والكلمـة لمن روح القـدس وكما جاء في الآيـــة " ولقد كرمنـا بني آدم وحملنـاهم في البـر والبحـر ورزقنـاهم من الطيبـات وفضلنـاهـم على كثير ممن خلقنـا تفضيـلا "(1).

بعـد هـذه المقدمـة التي حتمهـا التحليـل " لعالم الأفكار " ودوره في صناعـة التاريـخ نتطـرق الآن الى تحليـل هـذا العالـم كما تصـوره مالـك بن نبـي.

يرى هـذا الأخيـر أن علـم الأجنـة " E MBRIOLOGIE " يحدد المراحـل الشكليـة والتكوينيـة التي يمـر بها الجنيـن بعد الشهـر الرابـع وهـذه التسميـة التي وقـف منها الفكـر القرآنـي موقفـا مجازفـا شأن كـل فكـرة دينيـة ـ ليس هناك أي سبـب يدعوا الى انكارهـا أو تأييدهـا .

وفي هـذه الحـال وعلى " الصعيد التاريخي " فلا مانـع من الاشـارة الـى أوجـه التشـابـه بين بعض خصائص النمـو العقلـي عنـد الفـرد وبيـن النمـو النفسـي الاجتماعـي في المجتمـع والذي يبـدوا أنه يمـر هـو أيضـــا

---

1) الاسـراء آيـة 70.

بثلاث أعمار:

1- عمر الشيء:

2- عمر الشخص.

3- عمر الفكرة.(1)

هذه الخصائص الثلاث لاتتميز بعضها عن بعض بل يمكننا القول أنها تتسايرمعا. ان كلاً من الشيء والشخص والفكرة يتعاونان لصناعة تاريخ، وبالتالي صياغة مجتمع، كان هذا في كل تاريخ. اذ أنه لنشأة مجتمع ملابد وأن نلاحظ مدى تدخل الاشياء والاشخاص والافكار لصناعة هذا المجتمع.

ولايتميز المجتمع النامي بقلة الوسائل المادية "الاشياء" فحسب وانمايتميز بقصور في الافكار يتجلى هذا القصور بصفة خاصة في طريقة استخدامه - بفعالية أوعدم فعالية - للوسائل المادية المتوفرة لديه مع عجزه عن ايجاد غيرها، كمايتميز بصفة خاصة في طريقة طرحه لمشاكله، أوعدم طرحها على الاطلاق عندما يتخلى عن أية رغبة عابرة تدعوه الى دراستها".(2)

نلاحظ الآن أن الوسيلة التي تُنقص من نشاط الافراد في صناعتهم للمجتمع وبالتالي لبنائهم التاريخ ليس بحسب عالم الاشياء لأن هذه ايمكنه بكل سهولة أن يكون. واذا طبقنا هذه المقولة على التاريخ الحديث نجد مدى صحتها. فان اليابان بلد فقير من ناحية الثروات الطبيعية وهو البلد الذي يستورد النفط من الشرق الأوسط ومن بلدان غربية فهو لايملك "الشيء" ولم يكن في امكانه أن يملكه لكن "التطور العقلي" للفرد الياباني

---

(1) مالك بن نبي - مشكلة الافكار في العالم الاسلامي. ت: محمد عبد العظيم علي، القاهرة 1970 ص39.

(2) المصدر نفسه، ص40.

وبالتالي النمو الفكري عنده ، ساعده على أن يكون من أكبر البلدان تقدما اليوم في العالم ، ولنطرح هذه القضية على بلد آخر يملك كل الضرورات المادية كالبلدان العربية خاصة النفطية منها، فاننا نجدها لم تستطع أن تواكب ركب التحضر، لا لشيء سوى لأن الفكرة عندها غير نامية وبالأحرى فان هناك تعطيل فكري أصابها نتيجة لأسباب، لا نأتي الى دراستها الآن. اذاً فأهمية الفكرة ضرورية لبناء أي مجتمع ما . ويأت لنا مالك بن نبي بدليل على أهمية الفكرة في النهوض الحضاري من الواقع الزراعي: فبلد كالعراق وأندونيسيا حباها الله أخصب الأراضي في العالم نجد أنهما في آخر سلم التطور لا لقصورا حقيقيا في الأشياء بل لقصور في الأفكار يظهر أثره في المجال السياسي والاقتصادي على شكل خمول[1].

ويذكر مالك بن نبي أن "كل مجتمع تاريخي - معاصراً أو مندثراً يحتل مركزا محددا على محور يمثل جميع مراحل التطور... ويقسم التاريخ الى ثلاثة مراحل:

1) مرحلة المجتمع قبل التحضر.
2) مرحلة المجتمع المتحضر.
3) مرحلة المجتمع بعد التحضر".[2]

هذه المراحل الثلاث -(التي يختلف عنها بعض المؤرخين حتى يتركوها عمداً مجالا للصراع الفكري-)، الا أنها على محور الزمن يمكننا أن نصنفها في تاريخ الحضارة الاسلامية . اذ يمكننا ملاحظة الأشياء التالية :

---

1) المصدر السابق نفسه ص41.

2) المصدر نفسه ص 41.

أولا: مجتمع ماقبل التحضر وهو الممثل نموذجيا بالمجتمع القبلي الجاهلي كان فيه عالم الأشخاص متفككا . فالعلاقات الاجتماعية في تورّطها بين أفراد المجتمع لاتزيد الا دفاعا عن أفراد القبيلة . كما امتازت في عالم أفكارها بتلك " النرجسية " وذاك التباهي بالأمجاد نلمح هذا في ماتركه العرب من معلقات شعرية . ولم يكن هناك فكرة يملكها الفرد الجاهلي، لأن المجتمع القبلي الذي كان يعايشه هذا الفرد لاتتحكم فيه عقيدة ، وكل مايمكن أن يقال ، أن ذاك المجتمع كان شبيها بذاك الطفل الذي يتغنى مبتهجا بضوء القمر ظانا أنه هو والقمر شيء واحد . أي أنه في مرحلة ماقبل "الاجتماعية" في عالم أفكاره".

ولو عدنا قليلا الى تصور الهيكل التشكيلة الاجتماعية التي تركها المجتمع الجاهلي (والتي كان الفضل لها كل الفضل في أن" أثارتها" الاية القرآنية التي صدرت عن غار حراء لوجدنا أن الدلالة انتقل الى سن الحلم - اذا أصبح المسلمون يبدوا له في هذه المرة أبعد من عينيه - مما كان يتصوره قبل المرحلة الاجتماعية . وبتعبير آخر كان عالم أفكار العالم الاسلامي ، بدأ في التكوين منذ تلك النفحة القرآنية التي مزقت العادات الفكرية للرجل الجاهلي ، كما شكلت ضمير الرجل كعمر - رضي الله عنه - الذي امتنع عن السكر بعد أن كان سكيرا في الجاهلية . مما يعني أيضا أن الفكرة بدأت في ميلادها تحول الأشباح والأوثان لتتركها تتلاشى كي تحل محلها الفكرة : أي الحقيقة .

وهكذا ما أن حل العصر الذهبي للحضارة الاسلامية حتى غدا عالم أشياء العالم الاسلامي ناميا جدا في الوقت الذي كان المناخ الثقافي يتكون من رصيد من الأفكار التي دفعت حضارة أوربا المسيحية الى الظهور (ونذكر أن حضارة أوربا المسيحية مع ذاك العصر كانت تعيش جاهلية مافوقها جاهلية

يشهد على ذلك منكروها أنفسهم).

لكن أن يحل الصنم تختبيء الفكرة ، وهذه المرة غدا الصنم متمثلاً في " الصوفية"" والتدجيل" و" الاعتزاز بالنسب " مايمكننا تسمية " الصنم" الذي أصاب الحضارة الاسلامية في عالم أفكارها هو صنم " النرجسية " (وحتميا طبعا أن تكون هذه الحال تد أنتكس فيها العنصر الاخلاقي المؤلف " للاشخاص" و"الاشياء"و"الافكار" .)

"ان التاريخ لايصنع بالاندفاع في دروب سبق السير فيها ، وانما يفتح دروبا جديدة .ولا يتحقق ذلك الا بأفكار صادقة تتجاوب مع جميع المشاكل ذات الطابع الاخلاقي، وبأفكار فعالة لمواجهة مشكلات البناء في مجتمع يريد اعادة بناء نفسه "(1).

وفعلا كما يرى مالك بن نبي فان الافكار هي التي تساهم الى حد ما في صناعة التاريخ لكن الآن يواجهنا سؤال هو أي الافكار التي تصنع التاريخ ؟أهي كل" أرث فكري" أم هي كل"تقليد"أم هي كل" فكرة حية"؟؟

الحقيقة كما يراها مالك بن نبي نوعان : من حيث القيمة فهي:
1) أفكار ميتة وأفكار قاتلة .
2) أفكار ذات فعالية صادقة .

ولنبدأ بتحليل للاول: لكي يوضح لنا مالك بن نبي الافكار الميتة من الافكار القاتلة وتأثيرها خاصة على العالم الاسلامي - يأتي بذلك الحوار الذي جرى بينه وبين الاستاذ الزيتوني التي تشدق في قضية مدح شوقي

---

1) المصدر السابق نفسه ص220 .

أمير الشعراء لباريس والذي رأى أن شوقي في تحيته التي" تتضمن هذا الأثر المخرب من الثقافة الغربية التي تسخر 90% من الصفوة المسلمة في خدمة الاستعمار وذلك بقليل أو كثير وعي منهم"(1). كان شوقي - في نظر هذا الزيتوني يمثل الصفوة المسلمة التي تخدم الاستعمار. ولهذا فان مالك بن نبي كان يرى في كلام الزيتوني هذا أنه حامل " الأفكار الميتة " التي نشأت عن وراثتنا الاجتماعية ومجاورة " لأفكار قاتلة " أستوردت من الغرب. وكلا من هذين المشهدين (أي رأي الزيتوني الممثل " بالأفكار الميتة " ومدح شوقي الممثل " بالأفكار القاتلة ") كان يرى فيهما صورة حقيقية للمأساة الاستعمارية وهما :" القابلية للاستعمار " والاستعمار مترجمان على شكل ثقافة ، ويوضح مالك بن نبي رأيه في الفكرتين معا ، فيرى أن الأفكار الميتة التي ورثناها من عصر مابعد التحضر هي أكثر قدرة على القتل من الأفكار الأخرى . وللاقتناع بذلك ماعلينا الا أن نلقي نظرة على البيان التاريخي للأفكار التي قتلت مجتمع مابعد التحضر والتي لازالت تمثل ديون عصر نهضة المجتمع الاسلامي ، الذي يبدوا أنه لم يتخلص منها بعد"(2).

ثم يضرب مالك مثالين:

الأول من التاريخ أي تاريخ مابعد التحضر فيلاحظ أن في مابعد التحضر أفكار ولدت تحت جوامع القيروان وبغداد والأزهر و.... لكن مع الأسف فانها هي التي أوصلتنا الى هذا الوضع من التخلف لأنها طبعا حسب رأيه، لم تستعن بمناهج " باستور " " PASTEUR : " الذي طبقها

---

1) المصدر السابق نفسه ص200.

2) المصدر نفسه ص202.

على "الفيروس" فلذلك فان "الفيروس" هذا سينسف العالم الاسلامي*+.

والمثال الثاني هو المتجلي في الفكرة الميتة - المتجسدة في آية الله الكشاني ذاك الذي أطاع بحكومة "مصدق" - التي تمثل "فكرة قاتلة" في التاريخ الحديث. وللمزيد من التوضيح فان مالك يرى في هذه الظاهرة المركبة من الأفكار الميتة والأفكار القاتلة -: "أن الفكرة الميتة التي تنادي وتجذب الفكرة القاتلة الى المجتمع"(1). ثم يطرح الاستفسار التالي: "والواقع أنه لا يجوز أن نتساءل لماذا تنطوي الثقافة الغربية على عناصر قاتلة، وانما يجب أن نسأل لماذا تقصد الصفوة المسلمة هذه العناصر بالذات وتأخذ منها، وعلى هذا النحو تكون المشكلة مطروحة بطريقة سليمة، فليس مضمون الثقافة الغربية هو الذي يحدد طريقة الاختيار" وانما ضمير عصرها بعد التحضر هو الذي يحدد طريقة الصفوة في الاختيار الارادي واللاارادي"(2)

والحقيقة أن رجل ما بعد التحضر هو الذي يعلي ... الاختيار ونتيجة لفساد الذوق الجمالي عنده، ونتيجة "للتعفن" الذي مصلوب به في نفسيته فانه يرى الاشياء والأفكار في الحضارة الغربية: هي تلك الاشياء وتلك الأفكار التي سادتها الحضارة وأصبحت أفكارا ميتة ولذلك فان الرجل من هذه البلاد لاحظنا، أنه كلما خرج الى الحضارة الغربية فانه يعودها أنثى تموت وتتفسخ، وليس العكس طبعا كما قلنا انه "المنظار" الذي يرى منه وجه الحقيقة.

كما أن الذي يرى أن كل شيء مستورد من الحضارة الغربية قاتل كذلك ... هذا لم تقتل الحضارة الغربية نفسها بل لا زالت آلتها تمشي الى أجلها

---

*) آية الله الكشاني، رجل دين ايراني، أطاح بحكومة "مصدق" في الخمسينات.

1) المصدر السابق نفسه ص202.

2) المصدر نفسه، ص 202.

المسيحي. اذا فالحضارة الغربية لها أسس وقواعد متينة غير التي يراها رجل ما بعد التحضر عندنا فيها.

ولنا الأمثلة في أولئك الطلبة الذين يذهبون الى أين تتفسح الحضارة الغربية وتسود كثيرة الآن رجلا " كمحمد اقبال" استطاع ومثالا ويفضل جهده المبذول أن يهضم عناصر الثقافة الغربية ثم يحولها الى عملية بناء جديدة في بيئته ، تجلى ذلك في محاولته " تجديد التفكير الديني في الاسلام" ولتأكيد الفكرة السالفة ، يقوم مالك بن نبي بمقارنة بين العالم الاسلامي في نهضة والنهضة التي أقامها اليابان. ، فيجد أنه بالرغم من أن الانطلاقة كانت تقريبا من نفس النقطة على محور الزمن ، الآن اليابان قد تتلمذ" على الغرب مع أنه احتفظ بروح " الساموائية" التي لازالت باقية في أنفس وأمجد حادثة في تاريخ الحرب العالمية الثانية . أما بالنسبة لعالمنا الاسلامي فانه بالرغم من طول هذه المدة الا أننا لازلنا نرزخ تحت وطأة التخلف لسبب بسيط هو أننا اطلعنا على الثقافة " الحضارة" الغربية في صورتين صورة الرجل " السائح" وصورة" الطالب الجاد" واذا كان الأول يهتم بقمم وأوساخ الحضارة الغربية نتيجة لما لها من اشعاع جذاب فادح على النفس ، فان الثاني راح أيضا يأخذ بما يسمى بالافكار القاتلة .

فالمشكلة اذا ليست في طاحونة الحضارة الغربية مرجعية ، وليست أيضا في ذهنيتنا بقدر ما تتعلق بعلاقاتنا مع هذه الحضارة الغربية : "أن المشكلة التي تثار لا تتعلق بطبيعة الثقافة الغربية ذاتها وانما بالطبيعة الشاذة لعلاقاتنا بها."(1)

---

1) المصدر السابق نفسه ص205.

اذا فنحن لا نعيش " ارهاصات " نهضة وليست نهضة. خاصة في جانب عالم أفكارنا. لأنه وكما هو معروف فان الفرد لا يؤثر في مجتمع لكي يصنع تاريخه الا بما يحوله الى " مال موظف " موض أن كان " ثروة، أو أفكارا ينيريها على المجتمع الذي يعايشه و... ". اذا فان الافكار في نهضتنا كان من الضروري أن تكون بناءة وليست أفكارا هدامة.

ويحدثنا مالك بن نبي قليلا الى الفصل في الفكرة بين من هو صاحب في فكرته أمير الشعراء. أما الأستاذ الزيتوني فيرى فيهما مالك أن الأول (أي شوقي) كان يحمل أفكارا قاتلة أما الثاني فكان يحمل أفكارا ميتة وكلاهما شر، غير أن الفصل القاطع في هذا الشجار الذي دار بين مالك والاستاذ الزيتوني حول قصيدة شوقي فلها عامل جزائري بسيط حين قال بعد استماعه للمناقشة " أعتقد أن هذا الموضوع يشبه عملية التطعيم الزراعي حيث نرى الفرع الذي يضاف الى الشجرة لا يأتي بثمار تشبه الشجرة التي ألحق بها، وانما تأتي ثمار مثل ثمار الشجر الام ".

وضمن هذا السياق يحدثنا مالك بن نبي عن نوعين من الافكار والتي يسميها هنا: " الأفكار المخذولة " (كل من الأفكار الميتة والأفكار القاتلة: " أي الأفكار المخذولة ") يرى مالك بن نبي أنها تنتقم، وحسب رأيه فان الأفكار الميتة تنتقم بتجميد التقدم، وأما الأفكار القاتلة فانها تنتقم بتدمير التقدم.

ولنفصل هاتين النقطتين حتى نوضح أيضا أنها تؤثر في التاريخ لذا فالشعب يكون على هامش هذا التاريخ.

ويعرف مالك بن نبي الفكرة " الميتة " فيقول بأنها " فكرة خذلت أصولها وانحرفت عن نموذجها المثالي ولم يعد لها جذور في محيط ثقافتها الأصلي " (1).

ويعرف الفكرة " القاتلة " بأنها " فكرة فقدت شخصيتها وقيمتها الثقافية بعد أن فقدت جذورها التي ظلت في مكانها في عالمنا الثقافي الأصلي " (2)

وان في كل من الفكرة " الميتة " والفكرة " القاتلة " خيانة مما يجعل لمشكلتها جانبان اما أنها ضارة واما أنها سلبية .

ويستشهد بحكمة سقراط التي انتهت الى هذا النوع من الأفكار حين تكلمت عن فكرة "[illegible]" أي قتلة الأفكار . والملاحظ أيضا أن الأفكار تنتقم بشراسة .

- الأفكار المخذولة طبعا - يؤكد هذا الكلام ما يكشف عنه مالك بن نبي في أن التاريخ الغابر كان هو التاريخ الذي حصل فيه هذا الشكل من الانتقال اذ أن " روما " كانت " شاخت " أي ماتت وهي على قيد الحياة حينما استولى عليها " يوليوس قيصر " اذا فلم يكن هذا الأخير الا نتيجة للضعف الذي أصاب جمهورية روما اذا فان كثيرا من الأنظمة يصيبها الكبر وتموت موتتها الطبيعية ، وحتى نحن كعالم اسلامي أيضا فان الفناء أصابنا من داخلنا وليس من خارجنا ، ونلاحظ أيضا أن نظام الشرق مثلا لم يكن لينتهي بمجرد ذلك العطف الذي أبداه رجال القرن التاسع عشر ، لأنه لو لم ينته لقضت عليه آلات القرن العشرين ، وهناك نظام الزواج لكن هذا النظام هو من النوع الذي لا يذوب

---

1) المصدر السابق نفسه ص209.

2) المصدر نفسه ص209.

ولايغفني بل ممكن جدا أ نمصاب بتحريف وهو نفس التحريف الذي حاولت جماعة "التبييز" ... " أن تقوم به من أجل ردنظام الزواج وتعويضه بالفوضى بنظام الشذوذ الجنسي... ان محاولة كهذه لم تكن في الحقيقة سوى تعبير عن تلك الأزمة الثقافية التي عانتها الحضارة الغربية .

وكما قلنا سالفا فان العالم الاسلامي أيضا اليوم يحمل نتائج أنتقام الأفكار المخذولة والسبب يعود الى تاريخه البعيد الى تلك القصة التي حدثت بين علي رضي الله عنه ومعاوية وعبر عنها رجل مبررا موقفه بحجة غريبة فقال: "ان صلاتي خلف علي أقوم لديني ولكن طعامي عند معاوية أقوم لمعدتي"[1] ففي هذا الكلام يتبين أن أفول روح الديموقراطية التي قدمت نموذجا مثاليا : (مجتمع الانصار والمهاجرين) قد بدأ في هذه القصة غريبا بحيث نلمح أن من يريد أن يكون متدينا فما عليه الا أن يلحق بركب علي ; ولمن يريد أن يكون على مقام كبير من الصحة عليه أن يتبع معاوية في حين أن الآية الكريمة تفصل الفصل القاطع في هذا الانفصال الموجود بين الدين والدنيا حينما تقول: " قل ا ن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لاشريك له ..."[2] اذا فان القضية تهم روح الديموقراطية قد بدأت مع تلك القصة التي ذكرناها آنفا وبعبارة أخرى فان الفكرة " الميتة " التي صدرت آنذاك لم تكن سوى لتتصل الأجيال التالية لها نتائجها . وهكذا أوصلتنا تلك الفكرة - لما أنتقمت - الى عصر ما بعد التحضر هذا نموذج واحد فقط من تاريخنا الاسلامي ، ونفس الفكرة المخذولة وجدناها عند " أبي العباس" حين كان يقول" للحسين بن علي"

---

1) المصدر السابق نفسه ص212.

2) الانعام آية (161-162).

حين كان هذا الأخير ذاهبا الى أهل الكوفة يجزيه عنهم "ان هؤلاء القوم سيخذلوك كما خذلوا أباك من قبل ، لاتصدقهم ، ان قلوبهم معك ، لكن سيوفهم مع يزيد."(1) وهذه القصة الثانية أيضا نراها تضع أمر المسلم بين خيارين لاثالث لهما بين ، أن يكون اما مع قلب "الحسين "وأهل الكوفة موحدا . (وهذا ان اتبع يزيد) . أو بين أن يكونوا شاهرين سيفهم عليه ، وهي في كلتا الحالتين ، نلاحظ أيضا دور الأفكار المخذولة فيها ، فلماذا ؟ اما هذا أو هذا بالرغم من أن القرآن كما مرت معنا الآية لايقول لا بهذا ولابذاك بل شيء آخر ، ان هذا الأمر في الحقيقة له أثره أيضا على الصعيد النفسي اذ يجعل الفرد قليل الفعالية في العمل المشترك من أجل ربح السيرورة التاريخية .أو يجعله عديم الفعالية أي لاينتج شيئا ، كما أن له أثره أخلاقيا ، اذ نجد المسلم خاشعا أمام المحراب ومصاب "بالزيغ" خارج المحراب وكأن ضميره ملطخ . وماديا كذلك فان الثمار المادية التي يقطفها ليست لها قوة عالم اقتصادي خاضع للتخطيط ، أو ان كان خاضعا للتخطيط فهو غير مكمل التخطيط أي أن أي خطة اقتصادية ينصرها لنفسه تكون فاشلة (2) اذا كانت موجودة.

ولايفوتنا أن نشير أن المجتمع الاسلامي وكل مجتمع اذا أصابته عدوى الأفكار المخذولة ـ والتي كما قلنا أنها تنتقل سواء طال الأمر أم قصر ـ فانه يحملها من جيل الى جيل سواء شعر أم لم يشعر ، يحملها كتراث ثقافي" كما حمل الينا نحن رجل مابعد الموحدين أفكاره وصوره والذي لازال يمشي معنا اليوم في شكله ومضمونه . وكأن توريث الأفكار المخذولة

---

1) المصدر السابق نفسه ص 213 . يورد الرواية مالك بن نبي من تعليق للمرحوم محب الدين الخطيب في شرحه لكتاب العواصم من القواصم ، للقاضي ابن العربي .

2) من محاضرة ألقاها الدكتور عبد الله شريط علينا بالجامعة

ســـواء "الميتـــة" منهـا أو القاتلــة" مرهــون عنـدكـل جيــل في "أرشيـف" ذاك الجيل فلذلــك لاحظنــا هــذا المجتمـع الاســلامـي مغلــوبـا علىأمــــره، اذأنـــه امـا أن تنتقم منه الافكـــار" القاتلــة" التي دفنتها الحضــارة الغربيـة في التاريخ فيلجــأ الى تقليـدهــا فتنتقـــم منـــه لانهـــا أصبحـــت "قاتلـــة" . واما أن يلجــأ فـــي أفكـــاره أيضـــا الى تقاليــد العادات الفكريـــة" الميتـة" من أصالتـه، فأيضــــا تجـدهــا تنتقــم منــه . لانّ هـذا الاخـــير تكبلــه في الجمـود لافي التقـدم وأمــا الاولـــى فانهـا تعمـل كما قلنــا على تدميـــر الثقـــدم فيـــه .

اذاً تتبعنـــا تحليـــلا جـــدعميقـــا يورده أستاذنـا مالك بن نبي حول "الافكـــــار المخذولـــة" . وأوردنــهـــا هنـا لانــه أيضـا كمـاقلنـــا لهـاد ور في التاريـــخ، وكمـــا حللنـا تاريخنـا الاســـلامـي وتاريـــخ جمهوريـــة روما أنّ دهمهـا الانحطـــاط ،وكما يقـــول مالـــك بـــن نبـــي :" ان التاريخ لايصنع بالاندفـــاع في دروب سبـــــق السيــــر فيهـــا وانما يفتـــح دروبا جديـــدة ، ولايتحقـق ذلـــك الا بأفكـار صادقـــة تتجاوب مـــع جميــــع المشاكــل ذات الطابـــع الاخــــلاقي، وبأفكـــار فعالـــــة لمواجهـــة مشكلات البنـــاء في مجتمـــع يـــريـــد اعادة بنـــاء نفســـه".(1)

وتتبعنـا أخيـرا قضيـــة الافكـــار المخذولـة ودورهـا الضـار السلبي، ليـــس وحيـــــب فيحاضـــر الشعـــب بل في تاريخـــه، على مـــدى محـــور الزمـــن ، واننـــا هنــــا نحاول أن نتتبــــع هـــذه المـــرة دور" الافكـــار الفعالـــة" والنافعـة فـــــي التاريــــخ . لكــي يتسنـــى لنـــا ذلـــك لابـــد من معرفـــة نمتـــى تكـــون الافكـــار صادقة أوصحيحـــة لانّ كـل من صـــدق الفكـــرة وصحتهـا يوعملانـهـــا فقـط لانّ تلعب دورهــــا تاريخيـــــــا .

1) مالـــك بن نبي، مشكلة الافكـــار في العالـــم الاسلامي ص220.

أولا: ان كل فكرة صحيحة لانوء قر على الثالوث الاجتماعي: الاشخاص والافكار والاشياء فهي فكرة "ميتة". فمثلا ان ابراهام لنكولن" الرئيس الامريكي في فترة من تاريخ أمريكا قال قولا معقولا جدا حول ما اذا حاولت أن تجعل من فكرة " ميتة "ـ أي لا تتجاوب مع الشعب ويتجاوب هو معها ـ جعلتها فكرة حية موءثرة فقال: " انه يمكنك أن تغرر بشعب يوما أو يومين ولكنك لاتستطيع أن تغرر به أبد الدهر" اذا عرفنا وأن الفكرة الحية تكون كذلك متى قوبلت من طرف الضمير الحي أيضا هو الاخر لشعب من الشعوب وفي هذا الكلام نلاحظ كلمتا " ضمير" وكلمة " حياة " وكأن الفكرة تحمل الطابعين طابع القيمة الخلقية وطابع الحياة البيولوجية: وفعلا فان حياة الافكار شبيهة بحياة الجنين في بطن أمه . أي نقصد من حيث الظروف الطبيعية التي تلائم حياة الجنين في بطن أمه، مع تطور مراحله المعروفة لكنهما يختلفان من حيث الغايات : ان الظروف الذي تولد فيه أ الفكرة تمهد، العناية الالهية ، حتى تجعل من تلك الفكرة فعالة في مجتمع ما كأن يكون ذاك الظرف هو نفسه، الذي حدث للفكرة القرآنية في المجتمع الجاهلي ، يقول مالك بن نبي :"ان برغم الحياة لايمثل سوى رمز تضعه العناية الالهية في أرضيته الصالحة "LE GERME DE VIE NIQU'UN SYMBOLE OU MOUVMENT OU LA PROVIDENCE LE DEPOSE OURSEM D'UNE MERE"

اذا ان كل فكرة تولد لابد: من جهة أن تكون هناك مراعات لمولدها سواء شعرنا نحن أم لم نشعر (والامثلة عديدة في هذا المضمار- ان الفكرة الماركسية ماكانت لتنمو مثلا، لولم يأت على أوربا ذاك التطور

---

1) أنظر في هذا: MALEKBEN NABI. les GRAND THEME , COPYRIGHT OMAR BEN AISSA 1976 ALGER P 38.

الثقافي والاقتصادي، اذ أن ظرف انتقال المجتمع الأوروبي من اقطاعي الى مجتمع رأسمالي هو الذي جعل من مفكر" ككارل ماركس" يقول:" ان البرجوازية تحمل بذور فنائها بيدها " هذا على الصعيد الثقافي ، أما أقتصاديا فان ما ترتب من تطور في القرن الثامن عشر في أنجلترا ومن تحولات اجتماعية واخلاقية أيضا هو الآخر كان عاملا مهما في انتقال الفكرة الماركسية الى "لينين" كي يعمل على تطبيقها في روسيا البلشفية سنة 1917. ثم لاننسى أيضا عاملا آخر ألا وهو غياب المبررات الثقافية التي كانت للبرجوازية " العفنة " في أوربا وملأ الفراغ (الذي أوجدته " ثقافيا " الطبقة البرجوازية في أوروبا) باسم الاشتراكية ومبدأ السلام العالمي ! والعدالة الاجتماعية .

اذا هناك أقدار تتحكم في مصير الشعوب دون أن تدري هذه الشعوب وكذلك كان الحال عند ظهور الفكرة القرآنية : اذ أن التغيرات الاجتماعية أصبحت في المجتمع الجاهلي مهيأة الظرف الذي أوجد محمد (ص) بفكرته القرآنية . فمعنى تفاقم الوضع الاجتماعي الجاهلي من حيث تفشي بعض العادات السيئة وهدر الاخلاق والقانون الاجتماعي، وان تهيوء هذا الوضع ليس من أجل أن تثور طبقة العبيد متجلية في شخص بلال رضي الله عنه - على سيده وحسب ، بل هي تتعدى ذلك الى اعلان التحدي السافر لسادة قريش، بقول، أحد، أحد...."

اذن عرفنا منذ البداية أن الفكرة تحيا لما تساعدها ظروف خارجية عن نطاق الانسان عن شعوره .

ثم ان الفكرة اذا ولدت في "جو" تراحم الثقافات وكأنها تكون أيضا مطاردة من أفكار مضادة وهو عين ما حدث للفكرة المسيحية لما نزلت في بيت " لحم" ووجدت تلك الصراعات الثقافية التي دارت رحاها في بلاد الشام

لأن الشام منذ القدم تاريخها حافل بالصراع الحضاري، غير أن عليها (أي الفكرة المسيحية) أن تولد ثانية، وإذا بها تعلن الهجرة من موضع مولدها الى الشعوب الأوربية فحتى الشعوب الجرمانية.

اذا عرفنا مالك بن نبي أن الفكرة يمكنها أن تولد مرتين، المرة الأولى حين تجد ظرفا يساعدها على زرع " بذرتها " والثانية حين تعلن الهجرة من مكان الى مكان، حتى تتم عملية البذر أيضا ولا تهمنا تفاصيل ولادة الفكرة لأننا سنأتي اليها في فصلها الخاص. لكن الذي يهمنا هو أن الفكرة تكون صحيحة بمقياس المنظور " الضميري للمجتمع " أي بمقياس من القيمة الخلقية أيضا، وفي هذا المضمار يصور لنا مالك بن نبي قيمة الأفكار وحياتها الرياضية كالتالي يقول: (1) أنها شبيهة أي الفكرة بما علمنا أياه مشايخ الفقه الاسلامي في باب الماء الطهور وكيف يكون صالحا للوضوء أو فاقدا صلاحيته للوضوء. اذ أن الماء الطهور حسب القاعدة الفقهية يفقد صلاحيته للوضوء في حالة ما اذا أضفنا اليه حدا ايجابيا كعطور أو رائحة زكية أو غيرها، كما يفقد هذه الصلاحية للوضوء أيضا اذا أضفنا اليه طبعا حدا سلبيا كأن يكون نجاسة أو ما شابه ذلك. فان الماء الطهور في كلتا الحالتين يفقد صلاحيته للوضوء. وكذلك حياة الأفكار، ان الفكرة اذا أردناها أن لا تموت نمنا علينا الا أن نتركها تأخذ مجالها، وفقط علينا أن نخصب لها الأرضية، وفي هذه الحال لا نضيف اليها قيمة أخلاقية فوق التي تستحق والا كان عمل باب " الغرور " يقف حاجزا مانعا بينها وبين ملتقيها من الناس، وفي هذه الحال نكون قد أضفنا اليها حدا ايجابيا، ولنا المثال التالي: فاذا أردنا أن نغرس فكرة الديموقراطية في الشعب فلا فائدة من أن نضيف اليها فكرة المسؤولية كأن تصبح

---

1) مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ت: عبد الصابور شاهين، اصدار ندوة مالك بن نبي 1982 ص 121.

الفكـــرة : الديموقراطيـــة المسؤوليـــة ، كذلـــك اذا أردنـــا بـــث فكـــرة الاسلام في الجـزائر فالداعـــي من كثـار المـــدح على التاريـــخ الاســـلامي حتى نتصـــــور وأن الكلمـــة تحولـــت من كلمـــة حاملـــة لفكـــرة فعالـــة الى فكـــرة قصيـــدة رثـــاء للتـــــاريـــــخ ! .

هـذا من جـانـب قيمـة الحـدالايجـابـي المضـاف الى الفكـرة حللنـاهـا وأوردنـالـه مثاليـن،أمامن جـانـب أن الفكـرة في حالـة ما اذاأضيـف اليهـا حـداسلبيـا ستفقـدفاعليتهـا الاجتماعيـة فاليـك التالـي:لنفـرض أننـا أردنـا أن ننشـر فكـرة التعريـف" بالغزالـي" العالم الاسلامـي الكبيـر اليـوم أوغيرمـن العلمـاء ، فانـه يكفـي أن نستدعيـه للشـاشـة حتى يظهـر أمام الملأ يختـار لنـا محـاضـرة كأن تكـون حـول مواضـع الحضـارة الاسلاميـة ويكفـي بصـورة بسيطـة أن نقضـي - في ضمير الشعـب ثقتـه بهـذا الأستـاذ- حينمـا نختـار رقصـه خليعـة لفرقـة من من غـرق الرقـص الغربيـة تحت أنغـام الموسيقـى (كأن تكـون فرقـة جاكسـون مايكـل" J ' maikhhel " تلي المحاضـرة مباشـــــــرة .

اذا عرفنـامن خلال تحليلنـا السـابق لقيمـة الفكرة وحياتهـا الرياضيـة أنـه ونقـط فان الفكـرة تكـون صحيحـة في حالـة ما اذا كانـت صالحـة أيضـة أي أن قيمـة الفكـرة مشـروطـة أيضـا بمـدى صحتهـا الرياضيـة وفي هـذا المعنى يقـول مالـك بـن نبـي " قدتكون فكـرة صحيحـة وليسـت صالحـة كمـا أنه قد تكـون فكرة صحيحـة وتقدمت صلاحيتهـا في الطريق"[1]. فالفكرة الماركسيـة كانـت صحيحـة في مجالهـا الجغرافـي مثـلا، غيرأنهـا لم تكن صالحة في الشعـوب

---

1) مالك بن نبـي ،وجهة العالـم الاسلامي،ت ، عبدالصابـور شاهين اصدارندوة مالك بن نبي دار الفكـر دمشـق(1983) ص73.

المنتمية الى محورنصف الكرة الجنوبي، كما أن الفكرة الاسلامية كانت صحيحة وصالحة غير أنه ولأسباب ما فقدت صلاحيتها في الطريق، أي ابتداء من الطريق الذي رسمته واقعة صفين سنة 37 هو أكثر عمقا ابتداءا من عصر ما بعد الموحدين.

ثم ان الفكرة بما هي فكرة تكون فعالة بمقدار ما تكسب من صحة وقوة في التحدي عبر عن هذا المعنى ابن خلدون حين قال: " الحقيقة قوة لا يقاومها شيء والكذب - أي الكفر - هو أن يتوارى تحت ضغوط الانارة العقلية ".

يبقى علينا بعد هذا أن نبين كيف يمكن لفكرة ما أن تؤدي دورها في التاريخ وفي أي الظروف التاريخية السانحة لذلك:

الحقيقة كما يقول مالك بن نبي فان الفكرة تكون فعالة بمقدار ما تملك من فعالية EFFECACITE صاحبها، بمعنى أن الفكرة يمكنها أن تشق طريقها في التاريخ اذا كانت هذه الفكرة تحمل عوامل القوة الفاعلة، ولتكن مثلا كلمة " اقرأ " في غار حراء، فاننا نجد في هذه الحال كلمة "أقرأ" لم تكن لتعلن القراءة على الناس من أجل اكتساب العلم وحسب، بل من أجل غاية أخرى أهم من العلم ولا تنكر العلم أيضا. هذه الغاية هي أنه أن تقرأ من أجل اليقين بالحقيقة لأن الايمان بما لا يكون عن جهل، ثم أنه لتفعل تحت ظل هذا العامل في تعاملك وفي معاملتك لكل ما خلق الله في هذه الأرض أي أن تكون علاقتك بما يحيطك علاقة أيضا ربانية سواء كان هذا الذي يحيطك من عالم الانسان أو الحيوان أو النبات. اذا حسب تحليلنا

---

1) أخذنا هذه العبارة لابن خلدون من مجلة " ماذا أعرف عن الاسلام " الصادر بالفرنسية عن مسجد طلبة جامعة الجزائر عدد رقم 10 العام 1973 ص50

هذا فإن الفكرة مرهونة بشرطها " الذاتي " من جهة وبشرطها " الموضوعي " من جهة أخرى . وإلا فإن التاريخ حافل بأفكار لكنها وإن كانت قوية فإنها لم تكن لتنتج الحضارة ولا شيء ، ولأنها ولدت أمامي بشكل أفكار " قاتلة " أو " أفكار " ميتة " كما مر معنا سابقا ، والشيء الثاني أننا نعثر في كثير من الأحيان على مقدمة ابن خلدون ونتساءل لماذا بقيت مقدمة ابن خلدون حروفا ميتة بالنسبة لرجل ما بعد . هو أن هذا الأخير يحدثنا التاريخ أنه لم يكن يملك فقط مقدمة ابن خلدون ، بل كان يملك أينما مكتبات القيروان وبغداد وفاس لكنه كان وللأسف الرجل الذي فقد شروط حركته ، أعني أن القيمة التي كان بإمكانها أن تحركه ، باتت ميتة في مجالها الثقافي فلم يتحرك " عقله " ولا بالتالي " يده " وحسب عبارة مالك بن نبي " ....والفاعلية تكون أقوى في الوسط الذي ينتج أقوى الدوافع وأنشط الحركات وأقوم التوجيهات " (1).

وهكذا وجدنا محمد اقبال يتكلم عن ذاك " الجنين " بقوله في كتابه تجديد التفكير الديني في الاسلام : " ان أجدر ظاهرة بالملاحظة في التاريخ الحديث هي ذاك التحول الذي يتحول به الاسلام في جانبه الروحي نحو الغرب " (2) فاقبال كان يقصد " بالجنين " الفكرة الاسلامية - والتي كما يقول مالك بن نبي عليها شيء من الضبابية - أي الفكرة التي لم تلد في عالمنا الحديث أو المعاصر بل لازالت سابتة في نومها وليست قائمة الا بمقدار ما دامت الرقعة الجغرافية التي تدعي أنها مسلمة " (3).

---

1) مالك بن نبي - ميلاد مجتمع ص 30.

2) محمد اقبال ، تجديد التفكير الديني في الاسلام ت ، عباس محمود ط 2 لجنة التأليف والنشر - القاهرة - (1968) ص 7.

3) هذه العبارة لقب يوجهه كانذار المفكر الاسلامي الكبير سيد قطب في كتاب في ظلال القرآن وهو يرددها كثيرا .

والخلاصة ان التاريخ عند مالك بن نبي يبنيه النشاط المشترك لكل من "عالم الأشخاص" "وعالم الأفكار"، "وعالم الأشياء".

فعالم الأفكار هو العالم الذي يعد اللبنة الأساسية في سير الحركة التاريخية لاتحرك بدون فكرة ، وفكرة ميتة.

لأن التاريخ النظري يؤكد لنا أن الأفكار الميتة والقاتلة كلاهما شر، لايبنيان سير مستقبل الحركة التاريخية ، بعامل كامن فيهما هو عامل "الانتقام" أي أنها تنتقم أشد انتقام ، والأمثلة على ذلك كثيرة من التاريخ نفسه ، ثم ان التاريخ يقوم بالفكرة الفعالة والصادقة وكل فكرة لاتبقى كذلك تجر التاريخ نحو الهامشية أو أنها تؤخر مسيرته.

وعليه فكل فكرة تساهم في سير الحركة التاريخية يجب أن تكون صادقة وصالحة في الآن نفسه حتى تصبح فعالة في تاريخ ما.

الفصل الثالث

عالم الأشياء

عالم الأشياء

ان عالم الاشياء لهو - كما جاء في تعريفه من طرف مالك بن نبي - كل مايحيط بالانسان من عوامل مادية وثقافية ، اذ أن الشيء في رأيه هو ذاك الكائن الذي يحتاج الى أستعمالات عدة في جوانب عدة من مجالات حياة الانسان ، واذا قلنا أن الشيء بصفته المادية فنعني به الشيء كما أوجدته سواء الطبيعة ،أو كما أدخلت عليه بعض التعديلات من طرف الانسان ولتكن هذه التعديلات مقامة في الميادين التكنولوجية ، ونعني بالشيء أيضا حسب مالك بن نبي ذاك التراث الثقافي ، ذاك الرصيد من الأفكار المرصوفة بعضها الى بعض ، ممايتنتج عنه حسب مالك بن نبي في كثير من الأحيان الأزمة الثقافية يقول عن عالمنا الذي يعاني من هذه الظاهرة " أي السيئة " في العالم الثقافي:" ان ثقافة نهضتنا لم تنتج لنا سوى حرفيين منبثين في وسط هذا الشعب الأمي ، ونحن مدينون بهذا النقص لرجل القلة الذي بتر فكرة النهضة فلم يرفي مشكلاتها سوى حاجاته ومطامعه دون أن يراعي لما في نفسه من عوامل الانحطاط..."(1).

واذا عرفنا وأن الشيء المكون لعالم "الأ شياء" - الذي هو عنصر ضروري أيضا لأن يقوم الانسان(بلا لاستعانة بعالم "الاشخاص" فيه وعالم " الأفكار" بدوره المنوط به في التاريخ - ينقسم حسب تفسير مالك بن نبي الى قسمين:

عالم الاشياء الثقافي " وهو مايسميه "بالشيئية" ، ونحدده هنا باعتباره له علاقة سلبية بالتاريخ وعالم "الاشياء المادي" وهو مايشكل العالم

---

1) مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة .ص65.

الاقتصادي لحياة الفردوالجماعة . ولنبدأ أولا بتحديد مصطلح" الشيئية"

يعني مفهوم الشيئية حسب مالك بن نبي أي كل منتوج مادي أو ثقافي غيرفي نطاق تكديس المال في البنك أو في غيره . وهو حسب مالك بن نبي لايفيدصاحبه فيشيء ، لأنّ صاحب هذاالشيء أي" الثروة" لايفيد نفسه بهذا المال ولا غيره ، والمفروض أن يوظف هذه الثروة فيمشاريع تهمه، أو تعودعليه بالفائدة وعلى مجتمعه . وسنعودالى تفاصيل هذا المرض الذي يداهم الشعوب فيأفرادها ، فتبقى ثرية دونأن تكون لاهما اقتصاد متطور ، كماهوالشأن بالنسبة لبعض البلدان العربية اليوم .

وأماالشيئية بمعنى الحرفية في الثقافة :أ و هي التي تولدالحرفية في المجال الثقافي فهي ناتجة عن نوعين من التعليم ، فاما أن يكون التعليم موجها لتكوين الخبرات العقلية ورصفها في هذه الحال فوق بعضها البعض اذأن الانسان المتعلم في هذه المرة يكون مكتبه متنقلة لكن مكتبة : بما خزن من معلومات وأفكار في جلته العصبية فقطباعتبارها وعاء لملأ الخبرات لاأكثر ولاأقل ، وهو شبيه أيضابذلك الشريط المسجل على " كاسيت" ، مما يعني أيضاأن هذا الانسان يصبح لايعمل شيئا سوىأنه يعيد ما امتلأ به من أفكارلتفريغها تفريغا آليا ، وليكن هذاالعامل استاذابالجامعة ، أومهندسا أوطبيبا أوغيره، فان العامل المشترك بين هؤلاءالذين داهمتهم الشيئية فيأفكارهم هوأن يصبحوا نواقيس ترن متى أردنا أن نسمع رنينها ، ويعلق مالك بن نبي على هذاالنوع من "المثقفين" بأنهم أصحاب التعالم".

كمايرى مالك بن نبي أن الحرفية فيالثقافة تنجم عنها أمراض خطيرة نفسيا واجتماعيا يصعب معالجتها ، وهذه الامراض هي:

فنفسيا نجد الانسان الحرفي في ثقافته مصاب أو متأصل فيه داء نفسي يسمى ذهان السهولة " PSYCOS D'EFACILITE " ، اذ يصبح صاحب " التعالم " هذا لا يستطيع أن يعمل شيئا ، وتراه طول اليوم يفتش عن " الشيء " السهل الذي يكتسب به قوته اليومي ، وليكن أستاذا جامعيا مثلا فانه يلجأ الى عمليات سطو على مواضيع ليست له في وضح النهار ينشرها بالجرائد لعله يأخذ مقابل عليها ، لكن هذا الداء الذي أستفحل خاصة عالمنا الاسلامي من مشرقه الى مغربه - كما قلنا - يصعب علينا محاربة هذا النوع من الثقافة الشيئية لا يعمل الا في الظلام أي أنه منبت في وسط شعبي أمي . وان مرض السهولة هذا المتفشي في صاحبه يلقي به أيضا الى أمتهان حرفة رجل " البوليتيكا " هذا اذا تمكنت أجهزة الرصد الشعبية من كشفه بدافع من أحد ضمائرها . وفي هذه الحال يكون قد فوت الفرصة أمام ضمير الشعب لأن يلقي القبض عليه من جهة ، ومن جهة ، أخرى فانه عندما يتسلل الى " كريسي " السياسة يصبح أكثر عالة على شعبه وأهم علة يحللها مالك بن نبي فيه . كأن يصبح المترادفات السياسية موتا بطيئا في " الكلمة " التي يلقيها على مسامع الشعب ، فمثلا : " ألتقينا بفخامة المجاهد الأكبر الرئيس... " و " ... كما عملنا على جلب بعض العروض الثقافية والاجنبية .. مع تشجيعنا للانتاج الثقافي الوطني .. لمواجهة الغزوي الفكري والثقافي !!".

اذا عرفنا مدى خطورة الحرفية في الثقافة من جانب ذاك " المتعالم الذي يشغل كرسيا ما كاطار سام أو كذا أو كذا ... ، بعبارة أخرى ذاك المتحصل على ديبلوم الشيئية ! . ونأتي الآن الى تحليل " المتعالم " الذي لا يملك ديبلوم وشهادة توءهله لأن يقوم بعمل ما ، أنك تجد هذه الظاهرة متفشية بصورة أو بأخرى في رجل ما بعد الموحدين ، اذ أنه في هذه المرة يلجأ الى أن يستورد حتى

عالم أشياء ، . طبعا وليس عيبنا في ذلك كما يقول مالك بن نبي"......ولكن هناك جانبا آخر يتعلق بسلوك المجتمع نفسه، وموقفه أمام الشيء المستورد باعتباره منتوجا حضاريا بصفة مطلقة فلا بأس أن نستورد الطب والطبيب والمطبعة والأستاذ ومعلوماته والصيدلي وأدواته والمهندس وآلاته، مادمنا نحن لا ننتج هذا كله ، وانما على شرط ألا تكون عندنا بعض العادات الفكرية فتطلب ضمنا ودون أن نشعر منطق الاجتماع أن تكون عندنا بعض العقد النفسية فتربط اتجاهاتنا وواقعنا بالشيء والشيئية .

اننا اذا ضمنا جملة مثل هذه :" المنتوج لا يكون المنمتج بل المتنج هو الذي يكون المنتوج". فسوف لا نختلف في مضمونها لأنها صياغة عامة واضحة لا يختلف فيها اثنان وسوف نتفق لا شك على أن هذه القاعدة المنطقية صحيحة دوما . وعلينا فلنتخذها كمقياس عام في الموضوع.

اننا حين حللنا الصورة الشخصية التي أستخدمناها خلال حديثنا وجدنا في النهضة العربية بين السنوات(1868-1905)" عالم أشياء" جديدة لم يعرفه أباؤنا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر مثلا ووجدنا الاشياء نفسها في اليابان أستوردها كما أستوردناها نحن من الحضارة الغربية . ولكن كشف لنا التاريخ أن تلك الاشياء لم تؤد في نهضتنا الدور الذي أدته في نهضة اليابان ، فنستنتج من هذا أن الاشياء لا تؤدي مفعولها الاجتماعي تلقائيا ولا تؤثر وحدها في صياغة العملية الاجتماعية وانما تؤثر بقدر ما يضاف الى مفعولها من دوافع نفسية وتوجيهات فكرية معينة ، فالشعب الياباني كان يريد بالاشياء التي أستوردها خلال العهد الميجي وسائل يواجه بها بناء حضارة : والبناء لا يتم بالاشياء مهما كانت صلاحيتها وثمنها وانما يتم بالدوافع التي تحرك الاشياء : الفكرة التي تربطها في العملية الاجتماعية

وعندما لايكون في هذه العملية سواء الاشياء وحدها ، فالنتيجة تصبح في حكم الصدف لا في حكم التقدير ... وكأننا كنا نحاول بناء حضارة بمنتوجاتها[1]"

اذا عرفنا من خلال هذا التحليل العميق من طرف مالك بن نبي والذي يقارن فيه بين نهضتنا والنهضة اليابانية في جانب " الاشياء " التي توفرت لنا ولليابانيين غير أن الاشياء لم تؤت بمفعولها عندنا كما أتت به في النهضة اليابانية ، مما يعني أيضا ان عملية استراد الاشياء عملية وان كانت مثقلة لاكن لابد أيضا من حسن استعمال استراد الشيء . وعرفنا أن استراد الفرد أو الدولة للاشياء لا يضر الفرد أو الدولة من خلال تجميع بضاعة ما . بل ان عملية الاستراد تضر في حالة ما ان أسأنا علاقتنا الاسترادية بالشيء . وهناك الأمثلة التي يوردها مالك عن استيراد الشيء المضر اذ أن السيدة التي تقطن الصحاري الحارة في بلادنا وتستورد لباس " الفرو " من أوربا لان لباس الفرو هو لباس البلاد الباردة ، لا يؤهلها هذا النوع من الأستراد الا الى أن تسقط في أحضان الشيئية ، كما أن استراد سيارة " الكادلاك " هي الأخرى لا تؤهل الفرد في مجتمعنا هو الآخر الا أن يتنعم بنعيم لبيس هو مسؤول لما يترتب عنه من مشاكل .

كنا قد عرفنا حسب تحليل مالك بن نبي أن الشيئية مرض عضال اذا تأصل في نفسية الفرد يجعله مصابا " ذهان السهولة " ـ ان ماينجم عن هذا أيضا اجتماعيا هو أن يصبح الفرد باعتباره العضو المشارك في بناء المجتمع وبالتالي في صنع التاريخ مصابا بمرض آخر اجتماعيا ، اذ يصبح يقدم حقوقه على واجباته ، مما يعني أيضا أنه يكون فردا ماديا مناديا بالحقوق

---

1) مالك بن نبي ، أحاديث في البناء الجديد ، ص 193 .

دون أن يقوم بأدنى الواجبات هذا ولقد علمتنا الحكمة المشهورة :"أن المحراث لا يوضع أمام الثيران" اذ أنه في هذه الحالة بينما تنعكس هذه الظاهرة المرضية ليس وحسب على الفرد بل على المجتمع ككل ، كأن يصبح هذا المجتمع يعيش على المعادلة المشهورة حق ـ واجب استهلاك مما يجعل اقتصاد الوطن ككل ينهار تحت ضيحات الاستهلاك دون انتاج ، وهكذا لاحظنا كل المجتمعات التي مرت عبر التاريخ عندما تفقد انتاجها (سواء الثقافي منه أو المادي) فانها تنهار تحت عصا دولة أخرى ، وهناك الأمثلة من التاريخ الحديث ، ان قيمة انتاج مكنسة ذات عصا لدى شعوبنا ظلت الى حد ما في التاريخ غير واردة البتة :فلم تكن الفكرة أي فكرة هذا النوع من الانتاج بالشيء الصعب اذ كان بامكان جداتنا أن تقوم بهذا النوع من الانتاج حتى تتخلص من آلام المكنسة القصيرة ، وهذا ان عزيناه الى شيء فانما نعزوه الى المصيبة التي تحل حين يطبق الانسان في حياته حكمة "تأكل القوت وننتظر الموت" وما أشبهنا من حكمة ، فهي تدل على عدم القيام بأي واجب مع استهلاك يومي :مما لا تستطيع أن توفر لكل فم لقمة عيش مقابل أن لا تقوم كل يد بالتحصيل على هذه اللقمة .

اذا الأمراض التي نجدها كثيرة ويصعب التغلب عليها حين نسقط في الشيئية ، أما انه يمكن لعالم الأشياء أن يلعب دوره اذا ما حقق ذاك التنافس مع عالم "الأفكار" "والأشخاص" في "حالة" ما اذا ربط هذا الكل قيمة خلقية يؤمن بها مجتمع ما .

ان "عالم الأشياء" كما قلنا لا يقوم وحده بل يقوم على على العوالم الأخرى والتي تتحكم فيهم جميعا القوة الروحية أو ما يمكننا أن نسميه بالقيمة الخلقية .. .. فيمكننا أن نضمن شروط الديناميكا الاقتصادية اذ ما بطل أحدهما . وأضمن أنه حسب مالك بن نبي فان شروط هذه الديناميكا

الاقتصادية تتحدد كالتالي:

1- لقمة العيش حق لكل فم .

2- العمل واجب على كل ساعد [1]

حيث أن هاتين المسلمتين تكونان صورتهما منطقية ، اذ قلنا ان لا انتاج من دون استهلاك ولا استهلاك من دون انتاج، والمسلمتين غير ممكنتي التحقيق اذا ما تصورناهما بعيدتين عن ذاك الكساد للطاقات الاجتماعية الذي يطلق عليه اليوم اسم "التخلف" [2] وارتضاء ان لقمة العيش لكل فم مرهون بالواقع السياسي في البلاد، ولقد واجه مالك بن نبي في نظرته هذه اعتراضات حين كان يقيم بمصر 1957 اذ أنه وحسب رأي الاعتراض: فان البلاد فقيرة ! ولن تستطيع أن تتكفل بلقمة العيش لكل فم . وكما يقول ردا على هذه الاعتراضات:" فالقضية ليست قضية قصور في الامكان بل قصور في التصرف والسياسة والتخطيط" [3] ويركز مالك بن نبي على أنه لابد كي نخرج الى اقتصاد مخطط أن نقوم "بالوثبة الى الامام" [4].

ان الارادة تكشف " الامكان" بمعنى أن الارادة الحضارية تصنع الامكان الحضاري اجتماعيا ، وفقسيا فانه محدد بالآية القرآنية :" ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " [5].

اذا فعالم أشيائنا يمكنه أن يستقيم اذا ما تتبعنا خطوات حتمية من أجل الوصول الى مرحلة الاقتصاد المخطط تلك الخطوة هي التي يعبر عنها القرآن في قضية المسغبة حين يقول:"فلا أقتحم العقبة ، ولما أدراك ما العقبة فك رقبة أو اطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ..." [6] أي أن مرحلة اقتحام العقبة ضروري بل واجب من أجل التخلص

---

1) مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ت عبد الصابور شاهين، اصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر بيروت ، دمشق (1981) ص82.
2) المصدر السابق نفسه ص82.
3) المصدر السابق نفسه ص82.
4) المصدر نفسه ص84. - (5) الرعد آية 12. - (6) البلد آية (11،12،13،14،15،16).

من مشاكل الفوضى الاجتماعية وبالتالي الاقتصادية .

ويلخص لنا مالك بن نبي ضرورة الوصول الى اقتصاد لا بالاقتصاد الرأسمالي وبالاقتصاد الاشتراكي ، اذا تمكنا من شروط الانطلاق والمتمثلة في

1- أن نجعل للمال دورا في اختزان العمل وأن نعمل استثمارا ماليا واستثمارا اجتماعيا .

2- لابد من تحقيق الديناميكا الاقتصادية على أساس مبدئي ، ولابد من وضع أساس اخلاقي لعمليتي الانتاج والتوزيع ، مع مراعاة المعادلة البيولجية والمعادلة الاجتماعية للفرد في التجارب الحديثة .

3- ضرورة الاكتفاء الذاتي والتطور من الاقتصاد الوطني الى اقتصاد جهوي لتحقيق الاكتفاء[1] بعد هذا التبيان لما يمكنه أن يخلصنا من الشيئية" وأن يجعل لنا" عالم أشياء متطور" لنعمل نظرة خاطفة على مثل هذه الخطوات التي حققت خاصة في التاريخ الحديث.

يضرب لنا مالك بن نبي مثال: ألمانيا وكيف تمكنت من بناء نفسها في فترة وجيزة بعد الحرب الكونية الثانية ، وبعد كما هو معلوم- أن دمرتها الحرب، وخاصة في جانب اقتصادياتها :

فلاحظنا كيف أنها اعادت ما خسرته في الحرب والذي قدره الاقتصاديون أنذاك بحوالي 80% من اقتصاديات البلاد، والسبب في هذا التطور واضح ان ألمانيا تخلصت من الشيئية بفضل ما كانت تملك من عالم أفكار .وكذلك الشأن بالنسبة لليابان معجزة القرن العشرين بعد أن كانت تعيش في العصر الميجي في تخلف كبير تمكنت بفضل :

أولا : أنها بنت عالم أفكارها على أساس واضح في علاقتها مع الغرب والحضارة الغربية .

وثانيا : تمكنت من ارساء قواعد اقتصادها ، حتى غدت اليوم تحتل.

الرتبة الأولى في الاقتصاد العالمي ، تتنافسه أمريكا وروسيا ودول أوربا الغربية على المرتبة الأولى .

نلاحظ أن هذا العالم أي "عالم الأشياء" ضروري مع العوامل السالفة الذكر لسير الحركة التاريخية وهو ذاك المجال الحيوي الذي يتم بواسطة التعامل مع الطبيعة أي هذاك استخدام وسائل بدائية أو والمهم في هذا هو توظيف قدرات الانسان للوسط الخارجي لأغراض لها علاقة بالمجتمع وبالتالي فان لها علاقة بالتاريخ أي تاريخ شعب ما وأعني تسخير المحيط من طرف الانسان من أجل تشييد حضارة ما والتي هي غاية التاريخ الذي يقيمه الانسان في هذه الأرض.

ويضرب لنا مالك بن نبي أمثلة عديدة عن "عالم الأشياء" الذي أصابه التكديس في الغرب . ذاك هو ما يتكلم عنه المفكر الفرنسي "رجاء غارودي" في كتابه "كلام رجل" Parole d'homme اذ يرى أن "التضخم الذي أصاب الحضارة الغربية في عالم "أشيائها" لهو المهد الكبير لزوال هذه الحضارة ونوجز كلامه في عبارة قصيرة يورد هاني هذا المقام حين يقول : "ان الغرب هو الصدمة ..." L'Occident est un accident .

وللانصاف فاننا نقول ان العالم اليوم يعاني في محور واشنطن موسكو من عذاب التضخم "l'accroissement" وفي محور طانجة جاكرتا فانه يعاني من آلام التكديس طبعا في عالم الأشياء : ان العالم الأول عذاب التضخم أدى به الى أن يفقد مبرراته الثقافية مما لاحظناه وأنه في السويد مثلا أكبر دولة أوربية حققت ليس وحسب الضروريات بل الكماليات بمعنى أن الفرد فيها يسبح في بحبوحة النعيم نجدها تتصدر طليعة الدول في أهوال الانتحارات والادمان على المخدرات(1)

---

1) مالك بن نبي دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين ط صدار ندوة مالك بن نبي دار الفكر بيروت دمشق (1982) ص25 .

ومن جهة أخرى فان آلام التكديس الذي أصاب محور دول الجنوب أدى بها هو الآخر الى شكل آخر من الانحسارات هو مايمكننا تسميته " بالانتحار الطبيعي " اذ أنه وفي الوقت الذي نجد فيه القصور الفخمة وجنات الحدائق و . . . " مفتوحة في الغرب من طرف الملوك والرؤساء العرب ، فاننا نجد الشعوب تموت من آلام الجفاف هناك في جنوب السودان وفي أثيوبيا و . . . " ان دل هذا على شيء ، فانما يدل على أن التكديس سواء في المال والذي يسميه مالك بن نبي " الثروة " أو في الأشياء الأخرى أدى الى هلاك شعوب تدعي أنها تعيش تحت " راية الاسلام " كما يقول سيد قطب .

اذا أن الغرب وان عانى من مشكلة التضخم في الانتاج فان الجنوب يعاني من نقص كبير في التغذية - أبسط حق طبيعي - والسبب يعود الى تكتل ، لتكديس في " عالم الأشياء " لدى بعض مجانين الدولار العربي !! ان مايصيب القارة الافريقية اليوم من مجاعة وتقرود يون و . . . " انما آثمة فيه الأمة العربية ، هذه الأمة التي حباها الله بالمال في أحلك أيام تاريخها ، لكنها تصرفه كذلك الطفل الصغير الذي تعجبه حبيبات الذهب فيلهو بها ، وقد نسمع كثيرا أن مايصيب القارة الافريقية ناتج عن ذاك الشكل من الاستعمار الذي أمده الغرب بعد الخمسينات في هذه القارة لكن كلا ان الدليل واضح والبينة على ماأدعي أو لم يقل الله " واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا " (1) ، والقرية - حسب تفسير سيد قطب - مقصود بها الدولة ، ودولة الاسلام هي كل أرض وصلتها نفخة من نفخات الاسلام والقارة كلها من جنوبها الى شمالها ، فتحها الاسلام يوما ما في التاريخ .

---

1) سورة الاسراء آية 16 .

ولقد قال في المعنى هذا كله مالك بن نبي : " اننا حين نلعن الاستعمار فاننا نلعنه بدافع من شقيقته الشمطاء المتفشية فينا ألا وهي القابلية للاستعمار هذا الذي نراه شرحا وتفسيرا لآية " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم [1]

ان عالم الاشياء ضروري لكل بناء تاريخي ، ولكن لا يقوم وحده ، وضرورته تفيد فهمه أولا والتعامل به ثانيا .

ـ لمعالجة الامر يجب التحلي بحكمة الخطة الاقتصادية المنتظمة ولا طائل من اضاعة الوقت أمام " التوقيع " الاقتصادية كل خطة اقتصادية هي أولا وقبل كل شيء عليها أن تراعي المعادلة التالية .

1 ـ حق .. واجب = استهلاك

2 حق + واجب = انتاج

3 حق ≠ واجب

وعلى كل خطة اقتصادية عليها أن تراعي أن المنتوج لا ينتج المنتج بل المنتج هو الذي ينتج المنتوج .

وعليه فانه بهذه الحقيقة وحدها يمكن لعالم الاشياء أن ينير سير الحركة التاريخية .

---

1) الرعد آية 12 .

لاحظنا وأن التاريخ حسب مالك بن نبي لا يقوم ليشكل حضارة الا في شكل عوامل ثلاث " لكن هذه العوالم الثلاث لاتعمل متفرقة ،بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج ايديولوجية من " عالم الافكار " يتم تنفيذها بوسائل من عالم الاشياء " من أجل غاية يحددها " عالم الاشخاص " (1)

من هذا النص نفهم وأن العوالم الثلاث تربطها ببعضها البعض مجموع علاقات تلك التي نسميها بالعلاقات الاجتماعية ،والا فماذا يعني العمل المشترك للأفكار " والاشياء " " والاشخاص " ،اذا فالعلاقات الاجتماعية هي المنسق وهي المنشط وهي المسطر للعمل المشترك ،نحن قلنا العلاقات الاجتماعية هي المنسق بمعنى أنها تقوم بدور التآلف بين هذه العوالم الثلاثة فهي اذا التي تربط بين هذه العوالم من جهة ،ومن جهة أخرى فهي أيضا تحفزها لأن تقوم بالدور المنوط بها ،ولا يكون ذلك الا وفق ماترسمه من قيمة أخلاقية يؤمن بها أفراد المجتمع ،هذه القيمة الاخلاقية تسنها بالدرجة الأولى " الايديولوجيا " (والتي سنتكلم عنها في باب خاص) .

وعند ماقلنا أن العلاقات الاجتماعية تقوم بدور التآلف فانها والحقيقة تقوم بهذا الدور بما تملكه من قيمة ،سواء كانت هذه القيمة خلقية أو مادية أو جمالية وهذا يقتضي منا أن نحلل طبيعة العلاقات الاجتماعية حتى يتسنى لنا معرفة أي من القيم يمكنها أن تتحكم في العلاقات الاجتماعية أشد تحكم .

فاذا قلنا أن القيمة المادية " الجمالية " هي التي تتحكم في العلاقات الاجتماعية فاننا والحقيقة نحصل على عمل مادي مشترك بين العوالم الثلاثة ،لكن التاريخ يؤكد

---

1) مالك بن نبي ،ميلاد مجتمع ص 23 .

يؤكد لنا أن العلاقات الاجتماعية التي تتحكم في الاتحاد السوفياتي أو الصين هي علاقات مادية ، ولماذا لم تكن كتلك العلاقات التي تتحكم في قطيع السباع أو النمور الغابية . ان المجتمع هو مجتمع بما يملك في الحقيقة في علاقاته الاجتماعية من قيمة خلقية والا لاحظنا أن المجتمع الغربي يكون قد تهاوى منذ زمان طبعا لولا القيمة الخلقية التي حافظ عليها طوال تاريخه (1) ولكان أجدر لنا أن نطلق عليه اسم " جمع " وليس مجتمع كما يقول القرآن في شأن التجمع الذي يكون بدون روابط : " سيهزم الجمع ويولون الدبر " القمر (2) .

اذا عرفنا وأن العلاقات الاجتماعية هي علاقات بما تحمل من قيمة سواء كانت هذه القيمة معنوية أو مادية ولاحظنا أن العلاقات الاجتماعية قد تعمل تحت وطأة " المادة " أقتصاديا . فماذا ترى نقول عن العلاقات الاجتماعية حين تعمل بدافع معنوى أو من قيمة خلقية . الحقيقة أن التاريخ يحدثنا عن ذلك ، وسنورد أمثلة عديدة حتى نستنتج فيما بعد نتائج هذه الناحية .

الحقيقة ان كتب السيرة تحدثنا عن ذلك العمل الذي قام به الرسول (ص) والصحابة رضوان الله عليهم حين قاموا ببناء المسجد ، فلاحظنا أن النبي (ص) لم يكن يعنيه أن يجلس الى مكانه ويترك الصحابة يعملون بل كان يشاطرهم العمل ، في حين لاحظنا أن الصحابة أيضا كانوا يقومون بجهد بين حتى يقوموا ببناء المسجد ، ولم يكن ذلك الامر بدافع " الحاجة " ولا حتى بدافع " منفعة " بل ملماني الامر حتى تتم الصلاة في المسجد والذي هو مسجد رسول الله آنذاك . ان عملا كهذا والذي هو عمل مشترك " للأفكار " والاشخاص " والاشياء " كانت تتحكم فيه مجموع العلاقات بين

---

1) يرى مالك بن نبي في أن محوروا شنطن موسكو أساس علاقاته الاجتماعية المذ ميرة المسيحية وحتى الكتلة الاشتراكية منه فانها لم تخرج عن هذا حتى أنه لم تكن الماركسية سوى ترجمة غير وافية للانجيل.
2) الجمع هو تجمع لأفراد دون روابط والمجتمع مجموع أفراد ترابطهم صلات اجتماعية والكلمة المأخوذة عن آية سيهزم الجمع ويولون الدبر " القمر

ذاك الجيل الذي قام ببناء المسجد حتى كنا نلاحظ أن بلالا كان يحمل عوض لبنة واحدة في البناء فانه كان يحمل لبينتين ، وهذا العمل ما كان ليكون لولا أنه كان استجابـــة حية لقول الرسول (ص) : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" (1) ولقولـــه تعالى : " . . . يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص" (2) وفعلا تم بناء المسجد في ذاك التعاون بين الصحابة والرسول صلى الله عليه وسلم .

وهناك مثال آخر من التاريخ أيضا ان العمل الأول الذي قام به الرسول (ص) في المدينة المتمثـل في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وكان الرسول في عمله ذاك يعلن للبشرية أن أساس كل حضارة انما هو التأليف بين القلوب : ما يمكننـا تسميته بتوثيق شبكة العلاقات الاجتماعيـة ، حتى لاحظنـا أن ذاك الشكل من أشكال المؤاخاة لم يحدث في التاريـخ لا الحديث ولا القديم . وتكررت صورة من صور هذه المؤاخاة ابان الثورة التحريريـــة الجزائرية ، اذ أننا كنا نلاحظ مشاركة الشعب وتآلفه لرد عدوان الاستعمار ، نابع فـــي كل بيت وفي كل دار جزائري بكل ما يملك الجزائري من " قوة مادية" وللأسف فان هذ التآلف ولي الأدبـــار منذ أن تحررت البلاد والحقيقة كما يقول مالك بن نبي منذ ذاك المؤتمر لسنـــة 1964 الذي رفعت فيــه " الكراسي " وأقيمت فيه " الزردات السياسية" .

واليك أمثلة أخرى يوردها مالك بن نبي في البلاد الحديثة " الثورة " كالاتحـــاد السوفياتي أو الصين الشعبية ، أن يلاحظ وأنه ابان الستاخنوفيه رفع الانتاج الى الضعفين في الاتحاد السوفياتي في فترة وجيزة من الزمن . وكذلك في الصين الشعبية وألمانيـــا ولكن كان ذلك العمل في حدود " سياسة الحديد و النار" التي قدمها نموذجـــا للسياســة الروسية للعملاق ستالين :

---

1) حديث شريـــف رواه البخاري

2) الصـــف آيـــة 4 .

أما بخصوص الجانب الذي خص التاريخ الاسلامي فاننا لم نكن نلمح ولم تحدثنا كتب السيرة عند سياسة الحديد والنار لهذا يمكننا تسجيل الملاحظات التالية :

1) ان شبكة العلاقات الاجتماعية لا تعمل بشكل منظم في التاريخ المؤدي الى الانفجار .

2) ان شبكة العلاقات الاجتماعية تعمل بتوتر في التاريخ الفعال .

3) ان شبكة العلاقات الاجتماعية عند ما تكون حاوية " لبذرة " خلقية دينية فانها تتسم بالفعالية .

4) الفعالية في العلاقات الاجتماعية ينجم عنها العمل المضاعف .

الفصل الرابع

الايديولوجية : "المفهومية"

الايد يولوجية المفهومية (1)

يمكننا تحديد المصطلح حسب مايدل عليه في كتابات مالك بن نبي : غير أنه لابد من الرجوع قليلا الى أصل الكلمة ، حتى لا يختلط علينا الحابل بالنابل في تحديد المصطلحات .

ان كلمة ايد يولوجية (Idéologie) (2) في اللغة اللاتينية وحسب اشتقاقاتها الفرنسية تعني : نسق من الافكار يكون مذهب ، وتعني أيضا مجموعة أفكار لمذاهب خقيقية في عصرها ، لمجتمع أو لطبقة اجتماعية ، كأن تكون الايد يولوجية البورجوازية أو الايد يولوجية ، وهي مذهب معروف للمثالية الواقعية .

وان ظهور الكلمة أتى على يد " كارل ماركس" واتباع المادية التاريخية أي ظهرت الكلمة فقط في القرن التاسع عشر الميلادي ولقد كان مايقابل كلمة ايد يولوجيا هي كلمة عقيدة ، والفرق شائع بين الكلمات : اذ أن كلمة عقيدة تعني : مجموع الصلات أو الروابط التي تربط فرد أو أمة بديانة سماوية ما أو مايشابهها . اذا العقيدة اصطلاحا هي ارتباط بوجهة كأن تكون العقيدة الاسلامية أو العقيدة المسيحية أو البوذية أو غيرها في حين أن الايد يولوجية هي نسق من اللبنات الفكرية القائمة عند الانسان يهدف الى رسم خطة أو وجهة فكرة غائية .

يحلل مالك بن نبي التكتلات الموجودة في العالم فيرى أن العالم اليوم تسيطر عليه ايد يولوجيتين لا ثالثة لهما ، هاتان الايد يولوجيتان هما : تلك الرقعة الجغرافية الملونة باللون الأحمر والتي يرمز اليها بالايد يولوجية الشيوعية وتلك الرقعة الجغرافية الملونة باللون الازرق على الخريطة والتي ترمز الى الايد يولوجية الديموقراطية التي تشمل العالم الرأسمالي ، ان العالم واقع بين فكي

1) حدد مصطلح الايد يولوجيا " بالمفهومية " في الترجمات الخاصة لمالك بن نبي
2) أنظر معجم : Le Robert

هذين الايديولوجيتين فاذا قلبنا الأمورعلى وجهها الصحيح نرى أن العالم ذا اللون الازرق هو الممثل بالديموقراطية وهو اللون الذي كان الى حد ما في التاريخ يرمز الى خريطة أوروبا والبلدان المستعمرة من طرف " الرجل الابيض " : وكأن هذا الرجل أتى مكث أعطى لونا في نطاق الجغرافية لنفسه ،حتى أننا لاحظنا مع مالك بن نبي كيف أن المستشرق المسيو " منوني " (1) يجعل للشعوب المستعمرة تقبل الراية الزرقاء ،راية الديموقراطية ! . حيث يصورلنا أن أبناء المستعمرات ذات سيكولوجية تتسم بالموقف الاستعماني (2)

وبالجملة وحسب مالك بن نبي فان محور واشنطن موسكو يحمل ايديولوجية واحدة تارة مختفية تحت اقتصاد " المنفعة " الذي أرساه آدم سميث وتارة أخرى تحت راية " الحاجة " التي أرساها كارل ماركس ولا فرق بين الشيوعي والرأسمالي أذ أن الاول كان يحمل من وراء فكرته ملأ بطنه لحما ،والثاني كان ينوي من وراء فكرته ملأ أكياسه ذهبا أما محور طانجة جاكرتا فانه المحور الذي يبدو فكرته " ضبابية " أي عليها الضباب فهو لا يمثل ايديولوجية قائمة بذاتها أمام التكتلات العالمية . لذا ولهذه الاسباب يحاول مالك بن نبي أن ينزع على رجل ما بعد الموحدين هذه " الضبابية " هذا الهذي لازال بيننا بتلك الضبابية ،ويرتق به الى أن يواجه تلك التكتلات العالمية فيجعل ويحاول أن يرسم له مفهومية حتى يتسنى له أن يقاوم الايديولوجيات الاخرى . هذه المفهومية التي يعرفها مالك بن نبي كالتالي يقول : " فالمفهومية أو الايديولوجية هي النشيد الذي يقود عمل الشعب بأسره فهي الصوت الحيادي الذي يضبط

---

1) المسيو منوني مهتم بعلم النفس كان يدرسه مع الاستاذ شارل بلوندال عند ما شغل بعد غشقر كرسي الدراسات الفلسفية الذي استمر في تكوينه أنظر في مهب المعركة ص17 .

2) مالك بن نبي : في مهب المعركة ص19 .

ايقاع مجهود الأمة . . . كي تتظافر على انهاض مصيرها . . . فهذا النشيد لا يمكن أن ينبعث الا من روح الشعب *، انها من تقاليده ، من تاريخه وعن ما يجعل عمله أو نضاله مقدسا في ناظريه" (1)

وهو يعني بذلك أن المفهومية هي ذلك النسق من الأفكار الوظيفية من أجل القيام الجماعي للعمل المشترك في التاريخ وهو ما رمز اليه بكلمة النشيد ونلاحظ في كتابه شروط النهضة أنه يشيد بالامام العلامة ابن باديس رائد الاصلاح في الجزائر لما يصور عمل هذا الانسان في شكل رمزي فيجعله تحت عنوان " أنشودة ، مزية" وبهذه الأنشودة فانه يبارك العمل الذي قامت به تحت عنوان " أنشودة رمزية " وبهذه الأنشودة فانه يبارك العمل الذي قامت به الجمعية * على الصعيد الايديولوجي ، ويبارك على أنه " بدأ شعاع الفجر يناسب بين طلوع الشمس . . . فدبت في الأرض هيمنة وحركة " (2)
ونلاحظ حسب تعريفه هذا للمفهومية فانه يحددها على أنها هيّ "الكلمة" التي توحد صفوف الشعب وتجعله يقوم بالعمل الجماعي من أجل النهوض بالأمة ، وهي لا توحد فقط صفوف الشعب ، بل أنها تؤلف ما بين القلوب حتى يتم ذلك التناغم بين " الأفكار " " والأشخاص " " والأشياء " .

واضافة الى هذا كله فان الايديولوجية تجعل من القيمة الخلقية كعنصر تآلفي في هذه العوالم عاملا محفزا للعلاقات الاجتماعية ، مما يظن الظان أن العلاقات الاجتماعية تحمل بتوتر في التاريخ ، ويزيد قصة الايديولوجية أكثر وضوحا حين يؤكد على أن أي معتقد لا يمكنه أن يتكلم عن تاريخ شعب ما ، لم يكن نابعا هو الآخر من تاريخ

---

1) مالك بن نبي ، آفاق جزائرية ، مكتبة النهضة الجزائرية (1964) ص 178_181 .
*) أي مغطاة بجهالة من الضباب
*) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تأسست من طرف عبد الحميد بن باديس (1931)
2) مالك بن نبي شروط النهضة دار الفكر دمشق (1979) ص 4 ، 5 .

هذا الشعب ، وهنا يورد مالك بن نبي قصة ذلك الثوري " فرانس فانون" الذي خدع به البعض لحين كان يلوح للثورة الجزائرية) ظانين أنه يمثل الشعب الجزائري فيقول فيه : " لكي تتكلم لغة شعب لابد أن تقاسمه معتقده" .

« Pour parler le langage d'un peuple, il faut lui parler en ses convictions »

ويقول فيه أيضا : ان " فانون" لايمكنه أن يمثل الشعب الجزائري لانه لم يكن يشاطره الرأي وحسب ولم يكن يقاسمه تاريخه" (1)

اذا فلنه حسب مالك بن نبي فان " فانون" غير جدير بأن يقود أو يمثل ايديولوجية الشعب الجزائري لأن عقيدة " فانون" والشعب الجزائري تختلف ، بحيث أن هذا الأخير يدين بعقيدة الاسلام بينما الآخر فانه يدين بغير الاسلام ، وهذا بالرغم من أن " فانون" كان يبدي تعاطفا مع القضية الجزائرية باعتبارها قضية انسانية . . "

وفي هذا المجال يمكننا استنتاج : أن الفصل في شخصية شخص ما فانه فصل بالدرجة الأولى في المعتقد الذي يؤمن به ، وليس في مايبديه لنا هذا الشخص من حماس سياسي فياض .

اذا فالنشيد ـ أي نشيد ايديولوجية شعب ينطلق من روح الشعب ، ثم ان القضية الايديولوجية تهم تاريخ شعب ما ، لأن التاريخ هو الشاهد الوحيد على مصير الايديولوجيات ، وهاك المثال من التاريخ الاسلامي : ان ايديولوجية الشعب الجزائري لايمكن أن تمثلها بطولات يوغورطة و ماسينيسا . لأن هؤلاء كانوا على عقيدة تعدد الآلهة ، وبالأحرى على عقيدة وثنية ، أما روح هذا الشعب

---

1) المصدر السابق نفسه ص78 .

الجزائري النابعة من عقيدته فانهـا تمكنت ولأول مرة في التاريخ أن تتوحد وأن تعلن أمام الملأ أنا لشعب شعب مسلم واحد في هذا القطر ،وماكان من هؤلاء الأبطال الأمازيـغ سوى أن يحل فيهم شخص طارق بن زياد وهو من جدلتهم ،اذا فـان " الجلدة " لاتوحد بل من الممكن أن تنفـر ،وأن التوحد على أساسها غيروارد البتة لافي التاريخ الحديث ولا في التاريخ القديم ،وان " الغرب " قديما وحديثا ملـة واحدة ،وان الشرق ملةأخرى فلايختلفـون هن الجرمان ولاالجرمان يختلفون عن البروس ولا . . . كماأنه لاالهنود الباكستانيين يختلفون عن العرب ولا العرب يختلفون عن البربر ولا . . . " .

اذا فان " العامل " الوحيد هواما : " . . .ان أكرمكم عند اللهأتقاكم . . " (1) أو اما : " ولاتعجبك أموالهـم ولاأولادهـم انما يريد الله ليعذبهم بهافي الحيـاة الدنيـا . . . " (2) ومن هذا المنطلـق فان الشيء الذي يجعل الايديولوجية لشعـب مامقدسـة ،هو مايمكـن أن تتقدمه كنموذج يشهدعليـه التاريـخ بأنـه الاقدر ، وهكذ الاحظنـا الى حد مافي التاريـخ عدة شهـادات ،فمـاهوالشخص عقبة بن نافع يأتي من جزيرة العرب فاتحا الشمـال الافريقي ليقف عند حدود الأطلسي قائلا : " والله يارب لوعلمـت لك أرضا وراء هذا البحر لفتحتهـا " .ان هذا العمل لهذا الرجل في التاريخ لم يكـن سـوى من فعاليـة عقيديـة . هذا ان دل على شيء فانما يدل على أن التاريـخ شهـد لهذا الانسـان بهذا العمل في حياتـه وهو عمل يجنده من حذا حذو عقبـة بن نافع ،حتى لاحظنـا الى أي مدى كرم الشعب الجزائري مثلا في قرامهذا الرجـل

---

1) الحجرات آيـة 13 .

2) التـوبـة آيـة 59 .

فحسب تصرافاتي على الشعب الجزائري وجدت وأن فيه كثيرا من المداشر والقرى عند ما تتكلم اليها فانها تقول لك هذا الشيء أوذاك" كان منذ سيدنا عقبة" ،هذا في التاريخ المعاصر لكتابة هذه السطور ،وكأن ذاكرة هذا الشعب لم يخنها عصر الظلم الاستعماري في تذكر صلاتها التاريخية .

بعد هذا التعريف من "رف مالك والذي أطلعنا على بعض تحاليله ودعمناها بأمثلة فان مالك يجمل للايديولوجية شروطا : وهي شروط لازمة لتجانس عمل الفرد وعمل الدولة في وحدة عضوية لاتنفصم أمام أهوال التاريخ ،ولأنه لا يكفي أن تكون شروطا كأن يكون لدولة ميثاق وطني ثم تحديد قانون يقيها من" الانحراف المذهبي " وهذه الشروط التي يقدمها مالك تتجلى في التالي :

أولا : " الاجماع " : لأن الاجماع هو بالتالي المقياس الجوهري الذي يميز سياسة ناجحة" (1) غير أن هذا الاجماع لا يكون مجديا هو الآخر الا اذا تجانس عمل الفرد مع الدولة والا فان العكس – أي التضارب الذي يقع بين الأفراد والدولة – يؤدي حتما الى أن تكون السياسة ديكتاتورية وهو مايحصل حاليا في بلدان العالم الثالث.

ثانيا : التعاون بين الدولة والفرد على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والثقافي أن التعاون هذا في جميع هذه المجالات ،هو المحفز للسياسة المؤثرة في واقع الوطن واذا ماتصورنا أنه حدث العكس ،فان التشتت والتمزق هو الذي يأكل مصير الأمة وهذا مايحدث في بعض البلدان العربية بكل أسف " لبنان" : ممايعني معه أنه لاعمل سوى "عدم الانسجام وعدم التناغم ومعارضات طاعنة في فوضى شاملة

---

1) مالك بن نبي ،بين الرشاد والتيه ،ت: أعمر كامل مسقاوي ،دار الفكر (1976) ص71 .

يســـود هـا شعـار " عليك بخاصة نفسـك " ويضيف مالك بن نبي أن التجانس بيــن الفرد والدولة في نطاق التعاون له شــرط آخــر هو أن هذا الاخير " يتحقق فــي ضميـــر الفرد ويجعـــل هــذا الضميــر موضوعـا من ناحيــة ، وحكما من ناحية أخرى

ان وجود هذا المحكمة " الضمير" "كشاهد " " وممثل" هو الذي يقــول قلته في نظـام الحكـم حيـــن يكون من قبيـل ما يعبر عنه " ابراهام لنكولن" رئيس الولايات المتحدة – ان التغرير بفرد ممكــن دائمـا ، والتغرير بشعب ممكن بضعة أيــــــام الا أنــه غير ممكــن كل يــــوم " (1) .

هذه الواقعيــة هي التي أملت على واحد كلينين في روسيـا أن يوقعن شعارته " السلـم للجندي ، والخبز للعامل ، والارض للفـلاح " ولم يكن لقدم للشعب الروسي " رأس المال " كنظـريــة ، ولكنه ترجـم فحواهــا ، على صـورة هي في متناول الادراك الشعبــــي .

ولكن هيهــات لتلك الشعارات أن تبقـى حين دقت ساعة الكلخوز ؟!

يقول مالك بن نبي في هذا المعنى " ان الإديولوجيــة التي لاتتضمن كأفكـــار موجهـــة – الا مصالــح عاجلــة ، فانهـــا وان كانــت محترمــة ، سوف لا تفتـح الطريق لغيـــر سيا ســة قصيـــر محدودة المدى على قدر الشعارات التي دفعتها " (2) .

ولهذا فاننا نفهـم أن التي قال عنهـــا أنها تكون قصيرة المدى ، فانهـــــــا سياســة فاشلــة للسبب التالي : " فالاديولوجيــة تتطلــب اذا خمائر أخرى ، تضمن الوحدة الضروريــة بين عمــل الدولة وعمل الفرد لانجاز مهمات بعيدة ترتكز على الثقة والبطولـــة .

---

1) المصدر السابق نفســه ص 72 .

2) المصدر السابق نفســه ص 73 .

والبطولة .

والخمائر هذه هي للتي تفضي حسب جوهرها القيمة ـ الجلية أوالحقيرة ـ للسياسة

أمام التاريخ .

واذا ماتفحصنا هذا الجوهر وجدناه من عنصر اخلاقي وهومتصل بماوراء الطبيعة أي من العنصر النفسي " (1) .

ويقصد بن نبي من وراء الخمائر" أي ذاك " الملاط " الذي يجعل عمل الدولة منسجما مع عمل الفرد ، وبتعبير آخر فانه العنصر الاخلاقي الذي يجعل الشقاق بين عمل الدولة وعمل الفرد مستحيلا ، ونجد بن نبي يبحث عن هذا العنصر الاخلاقي فيجده في الدين ، باعتبار أن الدين من أصل " الغيب" وهذا الذي كثيرا مابين لنا التاريخ أنه " أي الدين" هو الذي يبدي تجاوبا مع النفس الانسانية ، مما ينفي كل فكرة وكل محاولة تجعل من هذا المبدأ عاجزا عن الخروج بالانسان الى البناء التاريخي ، وكما يقول مالك بن نبي " والتاريخ منذ عهد الفيران في روما ، الى شهداء بدر ، الى أبطال ستالين غراد ليس الا شرحا لهذه الحقيقة " (2) .

اذا فالايديولوجية هي الأخرى ، يتحكم فيها " المعامل" أي معامل فعالية هذا النسق من الأفكار هذا " المعامل" هو الذي نسميه الدين وبعد تحليل وافي للمسيرة الايديولوجية التي اتسم بها عالم الغرب ضد ماسمي بعالم المستعمرات يستنتج مالك بن نبي أن الفضل ـ في أن الاستعمار ولي عن هذه الأخيرة الأدبار ـ يعود الى الاسلام فيقول : " لقد كان الاسلام الحصن الذي فشلت تحت أسواره جميع المحاولات التي أستهدفت سلب الشعب الجزائري شخصيته على مدى قرن من الزمان كما كان الحافز الايديولوجي

1) المصدر السابق نفسه ص73 .
2) المصدر نفسه ص83 .

الرئيسي الذي دعم جهده البحاولي خلال الثورة ،لكي نلخص هذه الكلمات لابد أن نقول ان علينا العودة الى الأصول والمنابع التي منها نبع تاريخنا"(1)

اذا يدعونا مالك بن نبي الى أن نشرب من منابع تاريخنا ،وكأنه يقول في أسلوب آخر" في التاريخ فكرة ومناهج " وبالتالي هناك تصور عندنا ويسمح لي القارئ أن أعقب على مفهوم التصور هذا اذ وجدنا مفكرا اسلاميا كبيرا يضع من " خصائص التصور الاسلامي ومقوماته" الربانية ،الثبات ،الشمول ،التوازن ،الايجابية الواقعية ،التوحيد . . ." ولاحظنا على أن المفكر (2) بالرغم من أنه تمكن من حصر خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ،فانه لم يبين البناء المنطقي بصورة تصورية عقلية لهذه الخصائص بل صاغه بصورة عاطفية شعرية ،ولاعيب في المفكر لأن اختصاصه الأدب وعالم الخيال ،وودت الاشارة الى هذا الأكد أن ماينقصنا هو الفكرة وليس الفعالية" فنجد في مرحلة ماقبل الاجتماعية التي يتكلم عليها علم النفس الطفل ،كما لاحظنا أيضا ماجرى من نقاش مثلا حول كتاب " نحو مجتمع اسلامي متحضر" الذي عدل عنه ب" نحو مجتمع اسلامي " لا لشيء سوى لأنه وكما قال مالك بن نبي " فلقد استبعد المفكر المحترم اذا مشكلة العالم الاسلامي من بحثه حين أعتقد وحملنا على الاعتقاد بأن المجتمع الاسلامي هو على وجه التحديد " متمدن" وهكذا نراه وقد أنجز مرغما تحت تأثير " حالة الخلاص" الى موقف من المدح العقيم . . . ولو أنه وقف موقفا موضوعيا الى النهاية معتبرا أنه يوجد فعلا" مجتمع اسلامي " ولكنه موجود في حالة " بادرة حضارة" وان من الأوفق أن نواجه مشكلة حضارته" (3) .

---

1) المصدر السابق نفسه ص84

2) المفكر هو المرحوم الشهيد سيد قطب

3) مالك بن نبي فكرة الافريقية الاسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ ،ت عمر كامل مسقاوي اصدار ندوة مالك بن نبي ،دار الفكر دمشق (1981) ص246 .

ثم ان نفس المركب هذا الذي وجد في نفسية هذا المفكر والذي أنطبع على عنوان كتابه هذا لاحظنا أيضا مدى مايمليه مركب " التعلق بالألفاظ " دون القيام بالفحص عن الحقيقة في عنوان كتاب آخر هو "تقويم الفكر الاسلامي " للكاتب غاني التوبة " (1) اذ تجد أن المؤلف ونتيجة لما ذكرنا فهو يقوم تقويما مبنيا على " التساوي اللفظي " اذ أن الفكر الاسلامي في نظر الكاتب يمثله واحد كطه حسين والعقاد الى جانب الافغاني ومالك بن نبي وحسن البنا وأن ألفاظ الاعلام هذه تتعاقب على لسان الكاتب دون محص لهما وتدقيق فهل يمكن أن يكون طه حسين ممثلا للفكر الاسلامي !؟ أم حسن البنا أم مالك بن نبي أم ...؟ رواه الفكر الاسلامي المعاصر بأصحاب " الاسلاميات " هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، كم نكون نفتقر الى التقويم ونحن نقوم بهذا التقويم لا لشيء سوى لكي يقال لنا أننا ملكنا زمام قضاة الفكر الاسلامي المعاصر . وأخيرا يسمح لنا القارئ الكريم عن هذا " الخروج " عن المقصود من الايديولوجية الى تفهم الواقع الايديولوجي الذي نعيشه وبواقع يبرهن على تطبي في الكتب .. "

اذا أن مشكلة الايديولوجية هي واقع مثلا سياسيا متجاوب اجتماعي في نطاق جوثقافي ولذلك فاننا نرى مالك بن نبي يخص عناوين كالتالي السياسة والايديولوجية الثقافة والايديولوجيا في كتابه بين الرشاد والتيه .

---

1) غاني التوبة " تقويم الفكر الاسلامي المعاصر " ط1 دار القلم بيروت (1976)

ويعبرمالك بن نبي بدقة أكثر عن المفهومية ،فيلاحظ أنها النشيد الذي يحشد طاقة الشعب ـ كما يحشد المكثف الشحنة الكهربائية ـ لا يمكنه أن يتشكل على سجل أجنبي حتى في مجرد التعبير الفني أو الموسيقي أو الادبي لأن العملية تركيبية تتم داخل روح الشعب لكي يترجم فيما بعد ضمن فكر أنساني يكون جزءا من تلك الروح الجماعية[1]،نفهم من هذا أن :

ـ ان الايد يولوجيا هي التي تترجم نفسية مجتمع ما .

ـ الان الايد يولوجيا هي المعدن الوحيد عن ظاهر وباطن مجتمع ما .

ـ ان الايد يولوجيا هي عملية " شد " للأفكار والأشخاص والأشياء "

وطبعا فان مفهومية المجتمع الغربي المعاصر نجدها في وجه كوجه تشرشل (الذي لقب بالثعلب الماكر ابان الحرب العالمية الثانية) . ونجدها في مجتمع المجتمع الاسلامي في فجره الاسلامي متجلية في آية : " سيماهم في وجوههم من أثر السجود . . .[2]

وهناك الآن نماذج من الصور الأدبية والفنية لايد يولوجية ما ،من التاريخ القديم والحديث خذ للمثلا شعر تلك المرأة التي وهبت وجهها لله ألا وهي رابعة العدوية ،اذ نراها حتى في أحلك خياراتها فانها تختار جمال الله الذي لا ينقص حينما قالت له : " رب ان كنت أعبدك طمعا في جنتك فأحرمني منها وان كنت أعبدك خوفا من نارك فأحرقني لها وان كنت أعبدك من أجل جمالك الفياض فلا تحرمني منه يارب " هذا المشهد نتصور منه أن رابعة تجلت فيها أحسن الصور في " الصفاء النفسي " والا فما لغير " الصفاء " أن يحب الجمال وهي صورة أدبية تجلت على الصعيد

1) مالك بن نبي ،آفاق جزائرية ص182

2) سورة الفتح آية 29 .

الفردي ماكان له أثر طبعا الاجتماعي في بغداد إبان العصر الذهبي للحضارة الاسلامية وخذ لك نموذج آخر يمثل هذه المرة صورة عن الايديولوجية في مطلع أيامها في الحضارة الغربية لربما ألتقطنا هذه الصورة عن جان بول سارتر" حين ينظر الى " الأيادي " القذرة" وهي الصورة الأدبية التي توهمنا على أن الجمال والقذارة لا يتلاقيان في هذه الحياة من حيث القيمة

ويتساءل مالك بن نبي عن وظيفة الايديولوجيا على الصعيد النفسي والاجتماعي والسياسي فيلاحظ أنها ليست مجموعة أفكار شقيقة انما هي المسيّرة للطاعات والسهم الذي يعين للجماعة طريقها في التاريخ " (1).

وهكذا اذا يعمل مالك بن نبي عملية تقنية للأفكار الشتيتة باعتبارها نشيد " يرتفع في أعماق روح الشعب ـ وكما يقول بأنه ـ هو الذي سيزن وقع خطواتها على دروب التاريخ " (2).

---

(1) المصدر السابق نفسه ص225 .
(2) المصدر السابق نفسه ص 226 .

الباب الرابع

التاريخ والحضارة

الفصل الأول : مفهوم الحضارة

الفصل الثاني : عناصر الحضارة

الفصل الثالث : مراحل الحضارة

الفصل الرابع : مقارنة بين الحضارة الاسلامية والحضارة الغربية .

التاريخ والحضارة

الفصل الأول

مفهوم الحضارة

مفهـــــوم الحضـــــــارة :

ان الوجه الصحيح للتاريخ هو أنه تاريخ حضـــاري (1).
فما هي الحضارة عند مالك بن نبـي ، وماهي مقوماتها ؟ أو عناصرها ، والى أيمدى وفق مالك بن نبـي في تلك المفاهيم وتلك الأسس التي وضعها من أجل أن تقوم الحضـــارة ؟

قبل التطرق الى تعريف مالك ، بودنا أن ننظر في ماوضعته المعاجم لهذه اللفظة :" حضارة " اننا عندما ننظرفي معجم لاروس نجده يعرف كلمة حضارة من فعلها " [illegible] " : بمعنى أخذ باليد الى تحقيق أكبر تنمية اقتصادية وثقافية (2) . ولقد وضع لها معجم العلوم الاجتماعية التعريف التالي : هي مجموع القواعد والقوانين المادية منها والمعنوية (الروحية) التي تقودعمل الانسان الى شكل أكثر تطورا عن حياته منذ فجر الانسان :(أي عن حياته البدائية)وهو تعريف كما نلاحظ بين كلمة حضارة وكلمة ثقافة .

و لاتهمنا هذه التعاريف بقدر ما أتينا بها شاهدة على ما ألحق بهذه اللفظة من تحريف سواء في أوربا اليوم - وانعكس طبعا هذا التحريف على عالمنا الاسلامي اليوم أيضا، حتى تجلت أكبر صورة معبرة عن أن اللفظة لحقها التحريف في ذلك الجدل الذي قام بين المفكرين لضبط مفهوم الحضارة والمدنية حتى لمسنا أن مفكرا اسلاميا كبيرا كأبي الأعلى المودودي يخصص للفظتين جزءا كبيرا من وقته ،

---

(1) - وليس هو تاريخ الدولة كما جاء ذلك عند ابن خلدون ، وهيجل ، أوهو التاريخ الاقليمي الامني كما جاء في البيان الشيوعي ، لكارل ماركس .

(2) - انظرمعجم (([illegible])).

ليدحض الخلاف الناجم في ذهنية الفكر الاسلامـــــي (1)

ولوتفحصنا اللفظـــة في القرآن الكريم لما وجدناها ،ولربما وردت في حديث يقال أنه مروي عن الرسول (ص) في قوله " اخشو شنوا فان الحضارات لا تدوم (2).

ولو انتقلنا الى الفكر الاسلامي وعقلانية ابن خلدون لوجدناه يستخدم لفظة " حضر" و" حضارة " مقابل بدو وبداوة وهي لاتعني حسب رأيه سوى " دورية تاريخية " يمـــر بها مجتمع ما فـي التاريخ .

و لاننسى الخلاف الذي برز بين سيد قطب ومالك بن نبي حين وضع الاول كتابه تحت عنوان " نحو مجتمع اسلامي متحضر" ، ثم عدله بأن نزع كلمة متحضـــر ولاحظنا ذلك الرد من سيد قطب في كتابه " معالم في الطريق " وتلك الملاحظـــة التي أوردها مالك بن نبي حول الكتاب المعنى في كتابه " فكرة الافريقيـة الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونـغ " .

وانه لم يكـن يكفي ذلك الخلاف الذي جد في العصر الحديث بين فطاحلـــة الفكر الاسلامي لتذليل صعوبات هذه اللفظة . . . مالك بن نبي جعل جميـــــع كتبـه تحت عنـوان . . . " سلسلة مشكلات الحضارة"

(وهو بالتالي أول انسان يتفطن الى ان مشكلة العالم الاسلامي هـــي مشكلـــة حضارة أولا وقبل كل شيء) و لهذا السبب يقدم لنا الحضارة من خلال التعريفيـــن التالييـــن :

* أولا : تعريف يتبع فيه منهج التحليل والتركيب .
* ثانيا : تعريف يتبع فيه الناحية الوظيفيـة للحضارة .

(1) أولا : التعريف التحليلي والتركيبي للحضارة : يضرب مثال المصباح الذي نستنيربه ان مالك بن نبي يتساءل متى يصح لنا أن نسمي المصباح انتاجا حضاريا ؟ ، وفي ا... الحقيقـة حسب رأيــه لا نقول عنه ذلك الااذا كان " المصباح الذي نستنيربه والافكار التي وجهت امر تجهيزه والآدميون الذين قاموا بعملية انجازه يمثلون جميعا منتجات اجتماعية لحضارة معينـــــة . (3)

---

(1) ـ ابو الاعلى المودودي نحن والحضارة الغربية ط1 دارالفكر بيروت 1979ص32

(2) ـ رواه الترميذي وقال انه حديث ضعيف .

(3) ـ عمار الطالبي مجلة الثقافة عدد18 ـ 1973.

وكمايقول مالك بن نبي ، وحتى نوضح هذا الشكل " مشكل الحضارة " بهذا الشكل علينا أن نعود الى طريقة المخبر التحليلية " (1) :: ان المصباح " كشيء لم يكن ليقام لو لا العمل الدؤوب ، أولا من تلك الافكار التي قام بها من أجل اكتشاف الترانزستور " [illegible] " أولئك العلماء ابتداءا من كالفاني حتى ايدسون " [illegible] " (1931) بمعنى أن الفكرة (فكرة الترانزستور) لم تولد لأول مرة مع عالم ك " كلفاني " ، وان لم نكن ننكر مدى أهمية اكتشافاته في عالم الترانزستور ، لكن الفكرة اكتملت على يد " ايدسون " وكأن هناك نوعا من النشاط المشترك بين افكار هؤلاء .. بمعنى أنهم اشتركوا في انتاج الفكرة ككل هذا من جهة ومن جهة ثانية فان هؤلاء كانت ايديهم هي التي قامت بهذا العمل بمعنى أن هناك أيضا عالم أشخاص شارك في انجاز الفكرة ..

ثم ان المنتوج استغرق زمنا ما ابتداء من " كالفاني " حتى " ايدسون" بمعنى أيضا ان هذا المنتوج الحضاري قام على أساس اشتراك مجموعة أفكار استمرت زمنا ما بسواعدعلماء معينين ، ويمكننا ان نصوغ هذه العبارة في ترجمة أخرى فنقول أن مجموع الأفكار + مجموع زمن + مجموع أشياء = مجموع منتجات حضارية و باختصار فانه يمكن القول : مجموع ادسيون + مجموع زمن + مجموعاشياء = منتجات حضارية و بعبارة و جيزة فان المنتوج الحضاري = انسان + زمن + تراب ."

و لاحظنا أن الذي سقناه لتعريف المنتوج الحضاري أدى بنا في الاخير الى تركيب المعادلة التي اصبحت كالتالي ان كل حضارة ، ماهي سوى نتيجة = انسان + زمن + تراب وهذه هي المعادلة الشهيرة التي أبدعها مالك بن نبي ، وفي هذا المعنى يقول بن نبي .

---

(1) ـ [illegible]

* ايدسون [illegible] عالم فيزيائي امريكي (1847 ـ ـ 1931 ـ مكتشف المصباح الكهربائي .

«يلخص - أي النموذج المدروس - المدير " الشاهد" لكل الوقائع الاجتماعية والحقيقة ، " الشاهد" على نفسه باعتباره كائنا اجتماعيا ، " للتراب " الذي يشخص كل الوقائع معطيا لها أسسها الطبيعية والاقتصادية ، وللزمن الواهب اجتماعيا لامتدادها الضروري في تطوره»

غيران العناصر الثلاثة للحضارة - في مفهوم مالك بن نبي - لا تمارس مفعولها الحضاري في حال شتاتها و انفصالها ، و انما تدخل في سياق حضاري اذا ما أصبحت في صورة مركب تآلف، و الذي يشكل هذا التركيب الفعال ، انما هو " البذرة" الدينية اما بطريقة مباشرة و اما بواسطة بديلاتها اللادينية منها (1) .
و أيد نظريته بضروب من الامثلة في التاريخ القديم والحديث والمعاصر .

لم يأخذ بفكرة " تو ينبي A.J. Toynbee " الذي يرجع الحركة الحضارية الى التحدي الطبيعي أو البشري ، فكل عملية اجتماعية تفسرها هذه العناصر مجتمعة. والانسان هو الذي يحدد في النهاية القيمة الاجتماعية لهذه المعادلة لأن التراب و الوقت لايقومان - اذا اقتصر عليهما و حسب - بأي تحويل اجتماعي و يضرب لذلك مثالا بتاريخ الأمة الألمانية (1939 - 1945) اذلم يبق لألمانيا من عالم الاشياء شيء،وابتداء من الرسمال المفاعيمي،أو من عالم الافكار بنت كل حياتها الاجتماعية و احتلت من جديد مكانتها السياسية في العالم " .(2) .

و يثبت مالك بن نبي فكرته عن المعادلة الحضارية - انسان + تراب + زمن.و كما قلنا + عنصر التأليف بين العناصر الثلاث أي الدين - بأن هذه المعادلة وحدها تأخذ صحتها العلمية فتكون مثال الحقيقة و ان كان يقال عن هذه الاخيرة احيانا أنها نسبية ، بحيث لو أضفنا كلمة مثلا " علم " الى المعادلة السابقة لوجدنا نفسها - و ان كانت الكلمة أي " علم " كلمة عظيمة - نحصل على المعادلة التالية انسان + تراب + زمن + علم ، لكن هذا غير صحيح لماذا لأن كلمة

---

(1) - عمار الطالبي مجلة الثقافة عدد18 - 1973 ص 15 ، 16 .

(2) - انظر المرجع السابق [illegible]

" علـم " هي نفسها منتوج حضاري.أي أنه منتوج حاصل تركيب الانسان و التراب والزمن أما ان " الانسا ن " فهو غير مركب لأنه فان.ثم أن الزمن ايضا عنصر حيادي غيــــر مركب وكذلك عنصرالتراب فانه أيضا غير مركب هذا الدليل الذي يسيقــه مالك بن نبي على مدى صحــة المعادلة الحضارية بطريقة اضافة اعظم كلمــة والتي هي " علم " ـــ و كما لا حظنا معا أنه حتى هذه الكلمة وجدناها في نهاية المطاف أنها كلمـــــة مركبة وهي بالتالي مفتوح حضاري .

و يستخدم أيضا العكس أي في حالة ما اذا طرحنا احدى اطراف المعادلـــة فمثلا اذا طرحنا الانسان فان المعادلة تذوب ولايبقى لها أي مدلول كذلك فان طرحنا . عنصـــر الزمن لأنه مثلا ـ ماركوني " (1) " تفضل على الانسانية في سنـة 1912 أوفي سنة 1911 بجهاز الراديو وهل كان يمكنه ان يتقدم بهذا الاختراع المهم لولاأن سبقــه بنصف قرن تقريبا الالماني هرتـز " Hertz (2) " الذي اكتشف الموجـه الكهربائية ، بمعنى أنه لولم تكن هذه المـدة الزمنية الفاصلة بينهما لماحصل عــــذا الاختراع وكأن الزمــن هنا شيء داخل في المعادلة ، اذ بالاضافة لاحظنا أن المعادلة تسقط ،وبالطرح لاحظنا أيضا أنها تنهار ويصبح لا مدلول لها .

اذاً في حالة ما إذا صحت المعادلة فانها تسمح بعناصرها الحيادية انســــــان + تراب + زمن = منتوج حضاري .

وفي ضوء هذه المعادلة يفسر مالك بن نبي ظاهرتي التكديس ،والشيئية فـــي الحضارة بحيث يلا حظ أنه با مكان أمريكا أن تضحي بأكـــبر مدفها نيويورك بمعنى المدينــة التي فيها أكبر كمية من الذهب أي مايعادل الضعفين ، ولكن هل نقول أن أمريكا و الشعب الامريكي متخلفا من الناحية الاجتماعية والسياسية والعسكرية والاقتصادية . طبعا كلا لأن نيويورك كمنتوج حضاري صنعــه الشعب الامريكي ولم تصنعه الشياطين ولا الملا ئكـة ، اذا فالشعب الامريكي هو صانع حضارة ابتداء من الابرة حتـــى " أبولو" أو حتى " ديسكو فيري" و لهذا يفرق مالك بن نبي بين شـــــــيء

---

(1) ـ ماركوني Marconi فيزيائي ايطالي 1874 . 1987 محقق الرابطة الزمنية الراديو

(2) ـ هارتز فيزيائي الماني (1857 ـ1894. مكشف موجات الراديو الكهربائية .

يسميـــه " الامكان المالي " و " الامكان الاجتماعي ".

"LE POURVOIRE FINANCIER ET LE POU VOIRE SOCIALE"

اذا انه من الغير الممكن أن نتصور أن الامكان المالي يقوم وحده ، و مادمنا على ذلك من الشاهدين فان الامكان المالي أيضا لا يمكننا أن نتصور أنه هو الذي يبني الامكان الاجتماعي ، و الاننظرقليلا الى تاريخ المانيا ذاك البلد الذي وقع يوما (1939 ـ 1945) . قاعا صفصفا تحت ويلا ت حرب الحلف الأطلسي ،اذكنا نشاهد معـــــا أن الالمان فقدوا وخاصة في برلين أكثرمن 80 % من اقتصاديات البلاد أي أنه تحطمت فيها جميع المصانع وجميع الهياكل البنائية و ..." غير أن هذا " كامكان مالــــي" لم يكن ليعجزء امكان اجتماعي الشعب الالماني ، فلم نكد نستعيد النظر أي بعد حوالي عشـــــرسنوات حتى وجدنا أن برلين أعيدبناؤها من طرف الامكان الاجتماعـــي للقوة الالمانية هذا ان دل على شيء فانما يدل على أنه اقتصاديا ثبت وان الامكان الاجتماعي هو الذي يكمل الامكان المالي ، وان كانت ضرورة هذا الاخير أكيدة و هـــو مثال شاهد على مقولة مالك بن نبي السابقـــة .

و يستعيد أيضا مالك بن نبي دليلا آخر و هو الدليل الذي يهم جانب الاستجابة المنطقية للمعادلة مانه اذ لوقلنا أنه " ماذا يعني لما نستورد الاشياء لتكون علـــى أساسها الذي يسمى حضارة ، كي نخرج بها من أزمة حضارية معينة ، أي لنعود بهذا المجتمع او ندخل بهذا الطرف الى الدورة الحضارية ، اذا اردنا على هذا الاسا س أن نسير على قاعدة من يريد انتاج السبب او تسبيب السبب عـــن نتائجــــــه

---

(1) ـ مالك بن نبي منشورات وزارة التعليم الاعلي والشؤون الدينية ، الملتقى الثامن للفكر الاسلامي 1973 ـ ص 157 .

و هذا ضرب من المستحيل ، وهذا خطأ فضيع من الناحية المنطقية ، ان الحضارة لا تكونها منتوجاتها بل الحضارة هي التي تكون منتوجاتها كلها (1) .

و ليست الحضارة عندمالك بن نبي كما يتصورها الانتروبولوجيون

أي شكل من الاشكال التنظيم للحياة البشرية " سواء كانت على مستوى المجتمع النامي أو المتخلف أو البدائي .

بمعنى أن الانتروبولوجيين أعطو ا هذا التعريف للحضارة من حيث" واقعية" الشعوب سواء كانت هذه الشعوب متحضرة أو البدائية (Primitif) من جهة و من جهة اخرى فان هذا التعريف للحضارة يترك الظن في ان تلك الشعوب التي خرجت من الحضارة لن تستعيد حضارتها ، كما ان هذا التعريف هو تعريف (لشيء) متخلف عن الحضارة الغربية بمئات السنين غيرانهم يجعلون من تراجع للثقافة الغربية المعاصرة و هذا مايثبت عنصرية (2) هذا التعريف من طرف الانتروبولوجيين .

و عرف مالك بن نبي الحضارة بتعريف آخر وهو الذي يهم مفهوم الحضارة من الوجهة الوظيفية أي من حيث الوظيفة التي تقوم بها الحضارة في المجتمع فالمعنى الوظيفي للحضارة عنده هو " مجموع الشروط الاخلا قية و المادية التي تتيح لمجتمع معين ان يقدم لكل فرد من افراده في كل طور من أطواره و جوده منذ الطفولة الى الشيخوخة ، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أوذاك من أطوار نموه فالمدرسة والمعمل والمستشفى ونظام شبكة المواصلا ت و الامن في جميع صوره عبر سائر تراب القطر واحترام شخصية الفرد تمثل جميعها اشكالا مختلفة للمساعدة التي يريد و يقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي اليه .(3) .

---

(1) ـ المرجع السابق ص 158.

(2) ـ أخذنا هذا البحث للتعريف الحضارة من طرف الانتروبولوجيين من حضارة القيت علينا كنا في طورالليسانس و حدة علم الاجتماع من طرف د/ عبدالمجيد مزيان

(3) ـ مالك بن نبي افاق جزائرية ، ص 46 ـ 47.

في هذا التعريف قال " أن الحضارة يجب أن تحدد من وجهة نظـر و ظيفيـة " (1)

من خلا ل هذا التعريف الوظيفي للحضارة يبرز مالك بن نبي ما أغفل عنـه الانتروبولوجيو ن في تعريفهم السابق للحضارة " فاذا كان كل شكل من اشكال التنظيم في الحياة الاجتماعيـة يعتبر لونا من ألوان الحضارة فأي فارق يفصل المجتمـع البدائي عن المجتمع المتحضـر . (2) .

و يفرق مالك بن نبي بين مجتمع ماقبل الحضارة ومجتمع الحضارة و مجتمـع ما بعدالحضارة ، و هي المقولا ت الثلا ثة الاساسية التي وضعها وجعلها مفاتيح في تفسيره لاطوار التاريخ الحضاري للمجتمع البشري،و يراعي مالك بن نبي في تعريفاتـه للحضارة سواء كان منها التعريف التحليلي ـ التركيبي أو التعريف الوظيفي شعوب العالم الثالث فيصرح لنا بأن مشكلة الحضارة عند رجل العالم الثالث تقوم على حل مشكلتيـن .

1 ـ المشكلة العضوية الخاصة بتشييد بناء قائم على الحقائق النفسية الاجتماعيـة في هذه البلاد .

2 ـ مشكلة التوجيه القائم على حقائق الوضع الحالي . (3) .

ويقصد من المقولة الاولى أنه للنظر في مشكلة الرجل الذي ينتمي الى العالم الثالث علينا ان لا نغفل المشكلة الجوهرية و المتمثلة في اخراجه من التخلـف و الحاقه بركب التحضر . و على هذا يتعين علينا أيضا أن ننظر بعين الطبيـب الفاحص للرمد من حيث هو مجموع "مكروبا ت " بكتيريـة تكتلت في حدقة العيـن (العالم الثالث) أعني أن نجسد الداء قبل اعطاء الدواء . و مشكلة الداء هنا هـي النظر بصفة دقيقة الى العناصر النفسية التي تكون عضوية هذا الفرد في هذا العالم . و يقصد من المقولة الثانية علينا ان نوجه الانسان بفكره وووضعه النفسي لكي يساهم في بناء الوجهة الحضارية التي يحددها .

أخيرا وكخلا صة لهذا الفصل فان مالك بن نبي يختلف عن غيره من المفكرين اليوم في عالمنا المعاصر في تحديده لمشكلة الحضارة و اعطائها المفاهيم التي سبق ذكرها مع تحديده للأسس التي تقوم عليها هذه الحضارة في تاريخنا .

---

(1) ـ المصدر السابق ص 46.

(2) ـ عمار طالبي مجلة الثقافة عدد17 ـ 1973 ص 17.

(3) ـ مالك بن نبي فكرة الافريقية الاسيوية ترجمة عبدالصبور شهيـن دار الفكر دمشق 1981 ـ ص 123 .

الفصل الثاني

عناصر الحضارة

عناصـــــــر الحضـــــارة

بعدما تعرفنا على تعـريف مالك بن نبي للحضارة وراعينا وأنه أيضا يوليها معادلة سنهتم الآن بتحليل عناصر هذه المعادلة انسان + تراب + زمن = منتوج حضاري

1 ـ عنصـــر الانسان :

ان الانسان في رأي مالك بن نبي هو العنصر الأساسي في تشيـــــد أو قيام أي حضارة غيــــر أن هذا الانسان هو ذاك الذي يؤثر في سير التاريخ وهو يؤثر فيــــــه حسب ملا حظـــة مالك بثلا ث أشياء أولا بفكره وثانيا بعملـه وثالثا بمالـه وهو بذلك يجب أن نصنـــع رجالا يمشون في التاريخ مستخدميـن التراب والوقت في بناء اهدافهم الكبرى " (1) . و على غرار ذلك راح مالك بن نبي يضع التوجيـــهات ، فهو لابـــــد أولا أن يكون الانسان المثقف يحمل بالدرجـة الأولى مفهوميـة من أجل شقه للتاريـــخ فالمفهوميـة هي سهم الثقافـــة .

ان الانسان في نظر مالك بن نبي (يتفاعل والبناء الحضاري) ليس هو ذاك الذي انحدر من عالم مابعد الموحدين حاملا بما يملك من صوره وافكاره ، وليس الانسان هـذا المنحـدر أيضا من ذاك العالم ، أي الانسان صاحب الارجل الفخارية ذاك الذي رأسه في السماء و رجلا ه في الار ض ، و انه ليس أيضا ذاك الانســـان ((الأميـــبـــي)): و هو يعني من كل هذه التشبيهات مايلي : ان الانسان المنحدر من عالم مابعـــــد الموحدين أي هو الذي مازال بيننا يحمل أفكارا وصورا تعود الى ذاك الزمن والزهـــد عهد الانحطاط ، بمعنى أنه يحمل من الأفكار تلك التي صنعها مالك بالافكار الميتـــة ، و يقصـــــد بالانسان صاحب الارجل الفخارية : أي هذا العملاق الذي يقدر على أن يؤثـــر في أي شيء مما كانت ضخامـة بنيتـه الجسمية وكأن شأنـه شأن تلك السيارة التي فقدت آخر قطرة من البنزيـن في محركها ، وهو يقصـد بالانسان "الأميبـــا" لأن هذا الحيوان اما أنه متطفل على غيره ، لأنه قاصـــر على مديده الى العمل و الى البناء فهو ينتقـد كل هذه الأصناف من النوع الانساني الذي مازالت تمشي معنا كا خطبوط تاريخــــــي ؟ .

---

(1) ـ مالك بن نبـــي شروط النهضـــة ص 104.

ان الانسان المثال عند مالك بن نبي هو مايسميه بالانسان الجديد و لكن يا ترى هل يعرف جديدا ، أنه من غير الممكن أنه كان جديدا لو لم نحدث على " جوه" النفسي والاجتماعي تغيرات وهذه التغيرات هي المتعلقة بمشكل التوجيه الثقافي.

ان التوجيه الثقافي يتطلب منا مجهودا كبيرا اذ " انه يجب علينا بادء الأمر تصفية عاداتنا و تقاليدنا ، و اطارنا الخلقي والصناعي مما فيه من عوامل قتالة لا فائدة منها حتى الجو للعوامل الحية و الداعية الى الحياة و أن هذه التصفية لا تأتي الا بفكر جديد ، يحطم ذاك الوضع الموروث عن فترة تدهور أصبح يبحث عن وضع جديد هو وضع النهضة " . (1) .

اذا ان وضع النهضة يقتضي منا اجراء عملية لافكارنافي الآن نفسه ، و بعبارة أوضح يمكننا النهوض فانه لابد من عملية لافكارنا : كأن نقوم أولا بتنقية أفكارنا مما يشوبها من عوامل الانحطاط ، وثانيا كان نقوم بتنجية لافكار أصبحت عادات بالية تمشي معنا : و هذه العملية لن نقدرعليها الا اذا أدخلنا مدرسة التربية الاجتماعية .

و حسب رأي مالك بن نبي في فكرة التوجيه فان " فكرة التوجيه : الثقافي قوة قوة في الأساس و توافق في السير ووحدة في الهدف " : بمعنى أنه لا بد و أن نراعي مدى قوة أساس هذا التوجيه و نفتح قوسين عنا للنظر في قضية التوجيه (في الوطن العربي المخذول من أفكاره) اذ كم لاحظنا بلدانا عربية تنتهج النهج الملكي الرأسمالي ، ثم تعوضه بالاشتراكي ثم تستعيضه بالاسلام الاشتراكي العربي ...." طبعا تبعا للسياسات القائدة لهذه البلدان ، ولقد كان أحسن كلام قيل هنا عن هذا الوضع الخاص بمشكل التوجيه هو ماقاله الرئيس الامريكي " ابرهام لنكولن يوما : يمكنك أن تعز ر بشعب يوم أو يومين غيرأنك لن تستطيع ان تغرر به أبد الدهر " .

و ان مشكل التوجيه حسب رأي مالك بن نبي هو أولا و قبل كل شيء توجيه في عناصر الثقافة .

---

(1) ـ مالك بن نبي شروط النهضة ، ص 109.

فلا بـد أولا من توجيه للمبدأ الاخلا ق و من توجيه للذوق الجمالي لأنـــــــه " ... كذلك شأن الحضارة تتغيـر مميزاتها و تتجه بوجـه خاص طبقا لعلا قـــــة المبدأ الاخلا قي والذوق الجمالي في المعادلـة الحضارية : أي طبقا لترتيب هذيـــن العنصريـــــن في تلك المعادلـــــة " . (1) .

و ان المبدأ الاخلا قي في رأي مالك بن نبي لايمكن أن يكون سوى" منحـــــــة من السماء الى الارض تأتيها الحضارة مع نزول الأديان ، عندما تولد الحضارات و مهمتهـــا في المجـــتمع ربط الافراد بعضهم ببعض كما يشيـــر الى ذلك القرآن الكريم : " لو انفقت مافي الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم ، انه عزيز حكيـــــم " .

ان مالك بن نبي حينما يبني التاريخ الحضارى و الحضارة بصفـة عامة علـــــى أساس ديني اخلا قي فانما يعـــود الى التاريخ فهو صاحب نظـرة " انه كلمــــا أوغـل المرء في الماضي التاريخي للانسان في الاحضان الزاهـــرة لحضارته أوفـــــي المراحل البدائيـة لتطوره الاجتماعي فانه يجد سطورا من الفكـرة الدينيـة " (2) .

و الحقيقـة ان المجال الاخلا قي أصله دينـــي بدليل الشاهد القرآنـــــي أيضا لأنه من غير الممكـن تصور نظام حياة كامل بدون اخلا قياته والقرآن كذلـــك من جهـة ، و من جهـة أخرى فان المجال الخلقي خاض فيه الكثير من الفلاسفـــــة غير أنـه كما يقول سيد قطـــب " انهم يحاولون حصر الحقيقة في نطاق العبارة " بمعنى أنه وحتى أعم فيلسوف كرس حياته " لأسس ميتا فيزقينا الاخلا ق" خرج أخيــــرا بفلسفـة الواجب الاخلا قية لا غير و قس على ذلك ماشئت .

و في هذه النقطة لا حظنا مع صاحب " تقويم الفكر الاسلامي" أن مالك بن نبي في كتابـه فكرة الافريقيـة الأسيوية تجعل المجال الخلقي يرضع من ذاك التزاوج الذي يحصل بين سياسة " اللا عنف" التي أتـى بها غاندي و مفاهيم الاســـــــلام

---

(1) المرجع السابق ص 17.

(2) - كل حضارة أساسها اخلا قي أي روابط روحية دينيـة حسـب مالك بن نبي.

و مفاهيم سياسة عدم الانحياز ، وللأسف فان هذا الكتاب وحسب ماعلن على مقدمتـــه المؤلف نفسه في الطبعة الثالثـة :" ... خاصة وأنـه صدر من عربي " أرد ت أن أقول با ن الذين يرجون لتحطيم أفكار شخصيات اسلامية من خلا ل اغتنام فـــرص الاقتناص ـ التي ضاعت من مفكر كمالك بن نبي انما الحقيقة تقال تدلعبوا دورا كبيرا في محاولة خلق " الصراع الفكري في البلاد المستعمرة " بمعنى أنهم كانوا بمحاولاتهم تلك المس ليس بعصا مالك بن نبي السحرية و انما بعصا الاستعمار السحرية ، ولا عيب في ذلك فانهم يعانون نقصا وفراغا في تكونهم الايديولوجي .
والحقيقة تقال ان أصل أفكار مالك بن نبي هـو " شروط النهضة " وهو أيضا " الظاهرة القرآنيـة " أما بقيـة التأليف فانما تكملة لمفاهيم واردة في هذين الكتابيـــن" وإلا عليك وان كان صاحب كتاب " تقويم الفكر الاسلامي" يجعل من " حسن البنـــا" يجلس في صالونات " الاسلاميات " والمهم هو أن مالك بن نبي يجعل من الأخلاق كمنصـــر يدخل في التكوين الثقافي أهم عنصـــر حتى أنه يحلل ما ذا جاء من معنـى كلمة دين في اللغات اللا تينيـة في الفرنسية " Religion " و في الانجليزيـــة " Religion " وهي تعني ربط " Relier " الافراد بعضهم الى بعـــض فكذلك فان العنصر الاخلاقي في أساس فكـرة دينيـة كما قلنا ، ويعقب مالك بن نبـــي على أهميـة هذا العنصـــر بكلامه " ليس الهدف أن نعلم الناس أن يقولـــــوا أو يكتبوا أشيـاء جميلة ، وانما الهدف أن نعلمهم فن الحياة مع زملائهم أعنــــي أن نعلم كيف يتحضروا " . (1) .

اذا اتضح وأن تعليم الناس التخلف و العيش مع زملائهم " فن الحيـــاة" هو أول خطوة في طريقـــه التاريخي للحضارة .

وهنا ك عنصرا آخر من عناصر الحضارة وهوالذوق الجمالي : يقول مالك بن نبـي " و الاطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمالي ، بل ان الجمال هو الاطار الذي تتكون فيه أي حضارة فينبغي أن نلا حظه في نفوسنا و ان تتمثل في شوارعنـا و بيوتنا ، ومقاهينا ، مسحة الجمال نفسها ، الذييرسمهامخرج رواية في منظـــر سينمائـــي أو مسرحـــي .

---

(1) ـ مالك بن نبي ميلاد مجتمـــع ص 93.

ان الجمال هو وجه الوطن في العالم ، فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا و نفرض احترامنا على جيراننا " ..(1) و على هذا الاساس تحذر مالك بن نبي أيضا من السقوط في جعل مقود حضارتنا هو الجمال : لأنه كما قلنا كان المبدأ الاخلاقي هو العنصر الرابط لعناصر الثقافة ككل و ليس هنا أي عنصر اخر مهما كان ثم ان تاريخ الحضارة الغربية شاهد اليوم على تلك النزعة الجمالية التي تغلبت على المبدأ الاخلاقي فيها ذاك المبدأ الذي وضعت أسسه الحضارة المسيحية ، هذه النزعة الجمالية التي ابتدأت مع النهضة الايطالية لتصل الى الشعوب الجرمانية فالى شعوب أوربا الغربية كلها وامريكا اذ من تحليل مالك بن نبي لتغلب النزعة الجمالية التي طبعت الحضارة الغربية يلاحظ وأنها أصبحت تنظر الى كل شيء سواء أتت به الحياة الصناعية أو الحياة الطبيعية من منظور جمالي غاية هذا الوجود ولو كان على حساب الضمير الخلقي لأوربا كلها .

و يضرب أمثلة من التاريخ الاسلامي اذكنا نلمح وجه الجمال في الشاعرية الفياضة لابن الرومي او لربيعة العدوية تعبيرا فعليا عن صفاء في النفس ، صفاء في الضمير صفاء في الحياة ككل .

ان عنصر الجمال كما مر معنا كان ضروريا في كل حضارة ، لكن يبقى المشكل في توجيه هذا العنصر : و ان توجيهه لايمكن أن يعبر عن معنى غيرما تحدده ايديولوجية شعب سبق وأن رسمنا عرضياتها ، اذا فلا يمكن أن نخضع الاخلاق العنصر الجمالي بل علينا أن نخضع العنصر الجمالي الاخلاق ، ثم ان عملية الاخضاع هذه نفسها ليست من باب الهروب الى اعلان " الاشراف الروحي" أعني أن نجعل الاخلاق و الجمال عنصران متسايران معا غير أن أولوية الاخير على الثاني ضرورية و الا ، فان أي افراط أو تفريط في العنصران مخل بكل أساس حضاري ، و بالتالي فانه منسف للتاريخ الحضاري . كما علينا - أن نقوم بالتوجيه الاخلاقي والجمالي ، أيضا ان نوجه الانسان " الجديد" صاحب المنطق العملي ، و يقصد مالك بن نبي بالمنطق " أي استخراج أقصى مايمكن من الفائدة من وسائل معينة " . (2) .

---

(1) - مالك بن نبي شروط النهضة ص 130.

(2) - مالك بن نبي شروط النهضة ص 121.

ان المنطق العملي ، حسب ماعرفه هنا مالك بن نبي أي تلك البادرة الواجب أن تتوفر فينا من اجل القيام بالعمل المستمر ، ليس من أجل الحصول على لقمة العيش وحسب بل من اجل استخراج أقصى مايمكن من الفائدة ، ولكن كيف؟ هل معنى هذا أن ندعي أن امكانيا تنا محدودة و من غير الممكن أن ننتج أكثر مما نتصور ، و الحقيقة ... اننا ما يمكن تصوره مرهون لما نجعل من خواتم أعمالنا غايات دائما ، وكأ ننا في هذه الحالة النفسية - بالرغم من امكانتنا المحدودة - فاننا ننتج أكثر مما يريد ، و فعلا فعلت الشعوب ، وهكذا بني كل التاريخ الحضاري بسواعد العبيد ، فالرقين ، فالانبياء ، والقديس ، فالعلماء و المفكريس ، فالبرجوازييين فحتى البروليتاريا ، و كأن سلسلة التاريخ الحضاري هذه كلها تضافرت في ايصال روافد التاريخ الى مصب النهر الأعظم في القرن العشرين و اننا احوج ماتكون الى هذا المنطق " العملي" لأن العقل المجرد متوفر في بلا دنا غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الارادة والانتباه فهو شيء يكاد يكون معدوما " (1)

اننا حينما قلنا أن " العقل المجرد" متوفرفي بلادنا و لاينقصنا سوى " العقل التطبيقي " المنطق العملي و كأننا كشفنا عن مرض نفسي عضال يعانيه مجتمعنا نفهمه من العبارة التالية " اننا نعاني انفصاما شخصيا بين عمرنا النفسي وواقعنا الاجتماعي " اذا لهذا السبب وهذا وحده كنا مقصرين في مجال المنطق العملي ، لانه كما مر معنا في " الفاعلية " تعمل بتوتر حماس قلبي فياض ، و بتقويم عقلي سديد فحركة يدوية فعالة ، وكأ ن الذي تكلمنا عليه والخاص بذاك" الانفصام " أردنا أن نقول انه بأن مرض مصابون به نحن في قلوبنا ليس الا وهذا ماكان يشير اليه الرسول صلى الله عليه وسلم حين سأله الصحابة مستفسرين عن مستقبل الأمة "يوشك أن تتداعى عليكم الأمم ، كما تتداعى الاكلة الى قصعتها : قالو ا او من قلة نحن يو مئذ يارسول الله قال كلا و لكنكم غثاء كغثاء السيل ، و ليبعثن الله في قلوبكم الوهن قالوا وما الوهن يارسول الله قال حب الدنيا وكراهية الموت(2).

---

(1) مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ص 72.

(2) - حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه .

وحسب رأي مالك بن نبي في هذا الحديث فان المقصود به ليس فقط الاخبار بمستقبل الأمة الاسلامية و انما هو التربية ، لأن الرسول كان يعلم أن أخطر مرض يصيب الامة فتقعد الى الاكلة هو " الوهن " وهومرض نفسي خطير يصيب الامة فتبقى لا هي بالميتة ولاهي بالحية ، و انما تبقى شأنها شأن تلك الحيوانات التي تحيا حياة بطيئة ([illegible]) " لما يأتيها فصل الشتاء ولهذا السبب و هذه الاسباب كلها التي ذكرناها لا بدمن المنطق العملي ذاك الذي يتكون في جو عمرة من الارادة والانتباه .

ان كل هذه العمليات التوجيه الاخلاقي ، وخلق الذوق الجمالي من توجيهه مع ايجادالمنطق العملي - كلها لا يمكنها ان تتم سوى تربويا لأن الثقافة عليها أن تراعي برنامجها التربوي الذي يتلخص في التالي :

1 - دستور الاخلاق لتكوين الصلاة الاجتماعية .

2 - دستور الجمال لتكوين الذوق الجمالي.

3 - المنطق العملي لتحديد اشكال النشاط العام .

4 - الفن التطبيقي لكل نوع من أنواع المجتمع أو الصناعة بتعبير ابن خلدون .

اذا فرسم هذا البرنامج التربوي بغاياته كما نلاحظ ، فالاخلاق من أجل تمتين عرى الصلات الاجتماعية ، و من أجل ايجادالذوق الجمالي لابدمن دستور الجمال و لتحديد أشكال النشاط العام للمنطق العملي وهذه كلها تقوم بها " الصناعة" أو الفن التطبيقي ، اذا نلاحظ ان كل هذا الفهرس التربوي يتحقق في حالة ما اذا أكدنا أهميته من جهة ، ومن جهة أخرى عندما نؤكد أن لنا ارادة قادرة على انجاز هذا الشكل .

عنصر الزمن :

أعطى مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة تعريفاللزمن (1) من حيث اهميته في تكوين الحضارة فعرفه بأنه نهر ينساب ويجري في التاريخ وهوكل لا يتجزء الى روافد حتى ان بعض الحضارات ستغل هذه الروافد ، وغير ما لاستعمالها

---

(1) - مالك بن نبي شروط النهضة ص53 منه " اني اعرف الزمان اذالم يسألني عنه احد ، اما ان حاولت تفسيرة للسائل فان اجمله)

هكذا مثلا كان شأن الحضارة الغربية اليوم و هكذا كان مسير شعوب العالم الثالث

و الزمان لا يمكننا تحديده، لأنه في سيلان مستمر حتى أن " سان اغسطين " (St Augustin) (م 430 م) يقول " ان"الزمن" بالنسبة للحضارة الغربية ذا أهمية كبرى كست هذه الأهمية في ضمير الفرد ، خاصة بداية مع واضع الزمن الصناعي في أروبا والذي هو " Taylor " مكتشف طريقه" 1918 م " Rendout " و غرسه في الحياة الصناعية الغربية منها وغير الصناعية أعني حسن الحياة الاجتماعية ، و هي فكرة اختصرت المسافات وقضت على كل محاولة لقتل الوقت ومن هنا كان أي ازداد اهتمام الفرد الاوربي بالوقت ، فهو في المعامل على الثامنة صباحا ليس أكثر أو أقل وهو على الساعة 12 مسافر في القطار السريع ، الغير المتأخر ، وهو على الساعة ... اذا أن نظام أو تنظيم الوقت الوقت خاضع للتوزيع " الحاجي" اليومي للفرد الاوربي ، ومراعيا أيضا حتى التوزيع الكمالي للوقت .

غير انه نحن كشعوب تنتمي الى حو رطانجة جاكرتا فانه حسب نظرة مالك بن نبي المرأة مثلا عندنا شبيهة في مشيتها بقاضي من قضاة قرطبة أو أشبيلية أو غيرها فهي للأسف - باعتبارها شقيقة الرجل ضربت أحسن مثال في هدرها للوقت ، واليك أصناف أخرى من الرجال ، فانها أيضا تهدر الوقت هدرا أن الحكومة الجزائرية مثلا في الأونة الاخيرة كلفت الشرطة بالبحث عن المتغيبين عن العمل في المقاهي

و يتنبه مالك بن نبي الى ظاهرة قتل الوقت في العالم الاسلامي اذ يقول " فنحن في العالم الاسلامي نعرف شيئا يسمى " المدة " ... لكنها التي تنتهي الى عدم " (1) . و يحذر مالك بن نبي أيضا من مضيعة الوقت نظرا لما له من أهمية في اسهامه " استغلا ل " في انشاء الحضارة : " ان وقتنا الزاحف صوب التاريخ لا يجب أن يضيع هباء " (2) .

---

(1) - تايلور Taylor مهندس امريكي (1856 - 1915) مخترع نسق تنظيم العمل .

(2) - مالك بن نبي ، شروط النهضة ص190 .

خاصة طبعا وأن الانجليز متخذين الحكمة المشهورة في عالم منفعتهم الاقتصادية " الوقت دراهم " Time is money " اذ مشكلة الزمن لا زالت هي الوصمة التي توصم بها شعوب متخلفة عن شعوب متقدمة و كيف لا وان " التاريخ ليس ماتصنعه والصدف و مكائدالاستعمار ، ولكنه ماتصنعه الشعوب ذاتها في أو طانها " (1) .

اذا فالقضية قضيتنا نحن دون لعن الاستعمار ، علينا أن نصفي فكرتنا عن الوقت لما مزجت من عادات بالية أبان عصور الانحطاط " مابعدالموحدين " و مشكلة الوقت هي التي أهلت ظاهرة كاليابان الى أن تستولي على الاقتصاد العالمي في القرن العشرين رغم عصر الميجي التي برهنت على تخلفها انذاك .

عنصر التراب :

يقصدمالك بن نبي هذا العنصر الأساسي في تكوين التاريخ الحضاري، أي هو تلك الناحية المادية والحيوية المحيطة بالانسان والذي ماعليه الأنيستعملها استغلالاكاملا " فالتراب في أرض الاسلا م عموما هو على شيء من الانحطاط بسبب تأخر القوم الذين يعيشون عليه ..." (2) . ان المقصود من التراب " " ليس هو مايخص حياة الفلحوالز ر ع و حسب بل ان كل مجال يسبح فيه الانسان في حياته اليومية فهو سواء في المجال الصناعي أو الزراعي أو التجاري أو العلمي أو الاخلا قي الديني أو غيره ، فهو دائما هذه المجا لا ت تشكل عنصر التراب: و اذا حللنا العبارة السابقة و طبقناها على المجال الصناعي فاننا نجد وللاسف أن هذا المجال لم يتكون بعدفي عالمنا الاسلامي حتى أن اكبر المصانع في العالم الاسلامي فهي اما خاضعة لمسيرين غربيين انما بحاجة الى استثمار مالي فهي تعاني عجزا ، في المجال الزراعي ، و ما أخصبها سهول العراق و أندو نيسيا لكن المشكل فيها هو " تحضرالانسا ن " و في الزراعة دائما كان الى يوم ما في التاريخ المعاصر السودان اكبرمنتجي روؤس الماشية لكن للأسف أيضا فهي

(1) ـ نفس المرجع نفسه ص 190.

(2) ـ مالك بن نبي ، شروط النهضة ص 179.

تعاني اهمال كبير ، في المجال التجاري و جدنا أخيرا بدأالتفكيــــر فقط في الطريـق و المواصلا ت في الجزا ئــــر مثلا و في الموانـي و المطارات ، و علما ماذا يعانـــي العالم الاسلامي انه يعاني اما هجرة الادمغة الى الدول الغربية ، و اما انـه يعاني من تعريضهم لأمـور تتعلق بالصراع الفكري في البلاد المتخلفة هذه وأخلا قيا و دينيـا فان هذا المجال اما انه ارتفع الى مستوى السياسة فعبرت عنـه اغتيالات الامـــــام الشهـــيد حسن البنا و اتباعـه ، أو لم يصل نتيجـة أيضا لأمور تتعلق بالصـــــراع الفكري في هذه البلدان .

اذا هذه مشكلة تعانيها شعوبنا لكن الحـــل الذي يقترحه مالك بن نبي لهاانما هو ايجاد تكامل بين الشعوب العربية والاسلاميـة في اطار كومنو يلث اسلامي و نشيــر هنا الى أنه اقترح حلولا لمشكلة " التـراب " ، فهو صاحب فكـرة انشاء السدالاخضـر في الصحراء الجزائرية في المجال الفلا حي وهو صاحب ملتقى الفكر الاسلامي فــــي المجال العلمي ، وهو صاحب فكـرة التوجيه الجماعي " لم ينفذ حتى الآن" ثــــــم أنـــــه بعد ذاك كله صاحب " فكـرة الافريقية الاسيويه " (1) . (ولهذه الفكرة شيء من تداخل معاملي : الاستعمار والقابليـة : للاستعمار : الاستعمار وماكـــــان يهمـه في مجال الصراع الفكرى والقابليـة للاستعمار و ماذا كانت تتغنى بالافكـــار المضادة لفكرة لفكـرة الافريقيـة الاسيويـة كايجاد منطقة الوحدة الافريقية 1958.

---

(1) ـ نشير هنا الى الفكرة بعيدا عن الاشخاص الذين نفذوها سواء بدفنها او بتفخيمها حسب ماعلمنا مالك بن نبي في مقدمة طبعة 1983.

الفصل الثالث

مراحل الحضارة

مـــراحل الحضــــارة

بعد دراستـــه للتاريخ الحضاري الاسلامي منه والغربي ، يلخص مالك الـــى قانو ن يعرف بقانون أو بنظرية المراحل الحضارية ، وهي شبيهة بالمراحل الثلاث للتطور الخلدون في الحضارة - مع ما لا حظناه عن هذا التطور من أنه تفسيــــــر بيولوجي ، عند ابن خلدون و تفسير وظيفي عندمالك بن نبي .

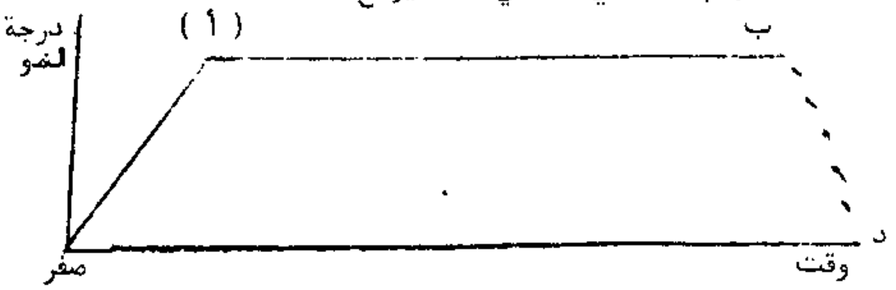
و يقسم مالك بن نبي هذه المراحل الى :

1 - مرحلة الروح : و هي تمثيلا أوليا " لاشعاع الفكرة الدينية تلك التي تتمكـــن من النفوس فتبنيها بناء " مرصوصا " كما كان ذلك في عهد الرسول (ص) و جماعتـــه من الصحابة والخلفاء الراشدين ، اذأنه في ذلك العهدكانت الروح غارحــــــراء هي التي فعلت فعلتها في النفوس فكنا نلا حظ أنه بمجرد ماتنزل ايّات الخمـــــر مثلا فان الصحابة ينتهون عن شربها حتى أن واحد كعمرابن الخطاب - رضي الله عنه كان يأتيها في الجاهلية وتخلى عنها بتلك السهولة بمجرد أن أعلن اسلامــــــه (نذكرعنا أن كلا من الولايات المتحدة الامريكية و الاتحاد السوفيا تي اصــــدارا مرسميين يقضيان بمنع " الخمر " حتى أن الرئيس الامريكي في 1963 تراجع - بعد شهــــر من اصداره للمرسوم - عن قانون يمنع الخمر لأن المجتمع الامريكــــــي لم يكن ليجد الروح المربيـــة للنفس كما أقامها القرآن الكريم ، في قبائل قريشية

و مرحلة الروح هي تلك الفترة التاريخية من الحضارة الاسلامية التي بدأت مع نزول أول آية من القرآن الكريم و تراجعت القهقري مع معركة " صفين" 37هـ ، أي انها المرحلة التي مارس فيها القرآن نشاطه في النفوس فجعلها تلبي النداء كل لحظة ، فهي التي امتدت مابين نزول القرآن المكي ونزول القرآن المدني الى أن يأتي رابع خليفة للمسلميــن - ولايمكن تحديد الفترة الزمنية التي استغرقتهــا بالضبط ، حتى أن فترة بداية الملك والفوز به كانت هي الاخرى تعود الى تـــلك الروح التي صنعت نفوسا من امثال علي كرم الله وجهه في علـــوه وشهامتــــه و قـــوة ايمانـــــه .

.../...

2 ـ مرحلة العقل : و هذه المرحلة لا تمثل في رأي مالك بن نبي سوى تنازلا " لعالم الروح " الى " عالم العقل " وهي التي انت بعد مرحلة الروح ، لأنه حسب مالك بن نبي فان " قوة الايمان " هي التي تمكن العقل من الفهم وهي لا تمكنه من ذلك وحسب بل تحفزه على الأخذ بالعلم ، يمثل هذا تاريخيا بالعصر الذهبي العباسي حيث جمع لنا هذا العصر قائمة باسم علماء و مفكرين شهد لهم التاريخ بذلك كأمثال الكندي والفارابي و ابن سينا والغزالي في الفكر وابن حفصين وابن النفيس والرازي وجابر والخوارجي في العلوم ، بمعنى أن المجتمع التاريخي هذا انما وصل الى تكملة بنائه الاجتماعي ، هذا البناء الذي تترجمه في صورة نظرية " ان العلاقات الاجتماعية تمكنت بما يملك من قيمة خلقية ـ استطاعت أن تنميها ـ أن توجد " عالم أفكار " و " عالم انشاء " الحضارة ، حتى أن هذا الاخير ممثلا في العهد العباسي الاول و الثاني وما تلاه ـ انما عبرت عنه كبريات الجوامع و المنارات والقصور و غيرها التي انشئت هنا وهناك في كل من بغداد والقاهرة ودمشق و غيرهم ، و لو تتبعنا الرسم البياني التالي فانه يوضح لنا :



أن الحضارة ممثلة في نقطة " 0 " الى " أ " وهي ماكانت ترمز اليه أول نزول لآيات القرآن الكريم ، ولقد كنا سمينا هذه البداية حسب التقسيم الذي وضعه مالك بن نبي للحضارة بمرحلة الروح وهي ايضا تلك البداية التي عبرت عن رحلة تطبع الانسان بعد انتمائه للمجتمع الذي ساد حياته حينما كان في ماقبل الحضارة اما و بمجرد حدوث ذاك العارض "أو الضرف الاستثنائي الذي غير مجرى حياته فانما كان بمثابة عالم النطفة في علم البيولوجيا فهي الخلية التي تحمل بين طياتها ما سينجم عنه ضيف ومولود جديد للحياة مع انها تتلقح البيضة ، وهي على محور

.../...

الزمن ممثلة ايضا في تلك الصفا ة التي كانت تحملها معنى أمة في آية " ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا " (1) .

فا براهيم لم يكن أمة الا بما تجسدت فيه صفاة الامة أي انه كان يحمل الخصائص المورثة للقيمة الاجتماعية للجمتمع الذي يوجد مكونا للأمة الابراهيمية وهي بصريح الاية الامة الاسلامية : " ماكان ابراهيم يهوديا ولا نسرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين " (2).

وهكذا شهد المجتمع الاسلامي الاول الرسول (ص) والصحابة رضوان الله عليهم بداية تكون (الضميرالحضاري) ، ولقد كان انذاك كله محتملا في ضمير الغيب، حتى تكون على الافكار هذه الامة وعالم اشيائها في الذي مر معنا من اعلا م ومعالم حضارية .

ثم ان العقل كماقلنا يعمل بقوة الايمان (حتى اذا أوهنت الدفعة القرآنية ضوءل اشعاع العقل و انحطت الحضارة) وهو ايضا حيث ما فقدت الروح سقطت الحضارة وانحطت ، لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يلبث أن يسقط بتأثير من جاذبية الأرض (3) .

و بناء على كل هذا تأتي المرحلة التي تعقب مرحلة العقل بعد ان يخمد اشعاعه - و هي مرحلة الغريزة التى يتحلل المجتمع .

أولا : من علاقاته الاجتماعية ، كأن تصبح لا تحمل العنصرالمؤلف لها والذي هو القيمة الخلقية و نجد هذا ممثلا في الحضارة الاسلامية في هذه المرحلة بماظهر." تختان الحضارة اذا ما فارق دعاتها سبيلهم الذي يسلكونه من أجل نشاطهم المشترك و اتخذوا سبلا وطرائق متخالفة تجعل النشاط مستحيلا فسبل تنسل الى حضيرة التصوف وأخرى تنحدر الى عالم العجائب الذي هبت منه روح الف ليلة وليلة وثالثة تدعي الرقص والغناء بدعوى انها تحضرت".(4)

(1) - سورة النحل اية 120.
(2) - سورة آل عمران اية 66.
(3) - مالك بن نبي ميلا د مجتمع ص 78.
(4) . نفس المصدرالسابق ص 78.

اذا علمنا و أن المجتمع في مرحلة الغريزة من الدورة الحضارية يفقد كل مايربط اواصره كأن تصبح بتعبيـــر آخر طرق موضة محببـــة للقلوب التي تستمتـــع" بالاشراق النورانـي " أو تصبح صالونات الآداب بالاندلس مراقص و ملا هـي بدعوى التجديــد في التطور آو ـ التقدم الحضاري ، و تصبح الزخارف والعناية بالمنظر على حســـاب المخبر غايـة هذا المجتمع أيضا كأن يحدث في يحدث من عجائب الف ليلة وليلة .

هذا على صعيـد العلاقات الاجتماعية ، أوعلى ما اصطلحنا عليه " بعالـــم الأشخاص " أما فيما يخص عالم افكار هذه الحضارة في مرحلـة الغريزة ، فانها أيضا تصاب بالشلل " فقد تكفي لذعـة ابرة ليحل الشلل بالعلاقات الاجتماعية كما يكفـــي لاشيء (في مكان مـا) ليحل الشلل بالجهاز العصبي " (2) . وهذا ممثـــلا فـــي عصرالانحطاط من الحضارة الاسلاميـة أي أيام ابن خلدون حيث بقيت " المقدمـــة" حروفا ميتـه و حين كانت مكتبات القيروا ن و فاس وغيرها تزخـر بالكتب دون أ ن تجـد بشأن عنها او حتى متصفحـا لها .

ان مرحلة الغريزة في الحضارة هي الطور الحضاري الذي ينبيء عن مجتمـــع سمـاه مالك بن نبي بمجتمع مابعدالحضارة ، وهو ممثلا أيضا على محور الزمـن من وقـت سقوط دولة الموحديـــن بالمغرب العربي حتى عام 1868 حين بدأت ملا مح حضاريـــة تمهد للشيء في طريق النهضـة ، لكن وكما مـر معنا سارت على نصف الطريق فتوقفـت وللأسف على مايشبـــه " الارهاص" الحضاري.

الانسان المسلم ودوره التاريخـــــــي:

لا يقصـــد مالك بن نبي بقوله علينا أن نهيء " الانسان الجديد" لكـــي يقوم بدوره الحضاري نفس ماكان يقصـده الفيلسوف الألماني نيتشـه (1905...). حينما كان يدعو الى خلق " الانسان الأعلى " ([illegible]) لأن هذا الاخيـــر كان يريد منـه أن يكـون انسانا " ارادة" القوة " دائمـا وأبدا وكان يريدمنه " ان يكـم على التاريخ جماليا لا أخلا قيا " لأنه التاريخ في رأي نيتشـــه ماهو الأسمـــم نارية علينا ان نحكم جماليا لا أخلا قيا .

(1) ـ نفس المرجع السابق

المرجع السا بق نفســـه ص78.

أما مالك بن نبي فانه يريد منه أن يكون صاحب " ارادة " الامكان الحضاري أ ي الانسان الحضاري الذي " يكدح " ابدا لكي تسعد ويسعد البشرية معه .

ولو تأملنا تفسير الفيلسوف الاسلامي محمد اقبال لمشكلة الانسان الذي لعبت به أيام التاريخ للاحظنا أنه وضعنا آمام " براهين " عوض أن يأتي لها بالحلو ل، كانت تلك البراهين . (حين انجر الفيلسوف الكبير سواء شعر او لم يشعر في طريق " القومية " الضيقة " صورة من ضباب شاخصة في كلا مه " ان الرياضة الدينية هي في جوهرها حالة من حالا ت الشعور بها ناحية فكرية لا يمكن كشف محتوياتها للغير الا في صورة حكم ، و عندما يعرض علينا حكم للتسليم به (وهو يزعم) ... فمن حقي أن أطالب بضمان لصدقة " (1) . فهو في هذه الحالة عوض أن يأتي لنا بالدواء للداء الذي يعانيه رجل مابعد الاستعمار راح بكل جهده يحاول ان يحكم حكما مسبقا على امكانية تبني آوتفهم أوعدم تفهم الرياضة الدينية وعكذا فلا حرج على المفكر الكبير اذا كان قدقال " انني اعرف الزمان اذا لم يسألني عنه أحد ا ماإذا حاولت تفسيره للسائل فانني أجهله (2) . ثم ان الفيلسوف الاسلامي محمد اقبال لم يكن ليرى أن " معامل القابلية للاستعمار " هو الداء العضال لمشكلة الانسان و انما كان يرى آن المشكلة مطروحة فقط على صعيد ما يسميه بالغزو الفكري أي أنه كان يرى أن مشكلة الانسان تأتي بالدرجة الأولى في تحرير الانسان من " أفكار الاستعمار " و كأنه بهذا يعطي حلولا أخرى ملا ئمة لهذه المشكلة فهو يرى أن مشكلة " الاجتهاد" الذي غلقت أبوابه أمام رجل اليوم وعلى هذا الأساس حاول أن يرجع بنا الى أصل الاجتهاد هو القرآن والسنة يقول في هذا المضمار أ فلو أننا درسنا شريعتنابالنسبة للانقلا ب المنتظر في الحياة الاقتصادية فانه من المرجع ان تكشف في أصول التشريع عن أنواع جديدة لم تكشف لنا بعدمما يمكننا ان نطبقه بايمان متجدد بحكمة هذه المباديء. (3) .

---

(1) ـ محمد اقبال تحديد الفكر الديني في الاسلام ترجمة محمود عباس ص13.

(2) ـ نفس المرجع السابق ص 68.

(*) ـ يقول في هذا المعنى " ... و صدقوني أن أوربا اليوم هي اكبر عائق في سبيل الرقي الاخلاقي للانسان .

و أما عن الدولة فهو يقول " انها في نظر الا سلام ليست الا محاولة لتحقيق الرومانية في بناء المجتمع الانساني ، ، و بهذا المعنى تكون كل دولة ليستمؤسسة على مجرد السيادة والسلطان بل تهدف الى تحقيق المبادىء المثالية ، دولة ثيوقراطية " (1) . و هي نظرة ظيقة يؤيدها بقوله"... وعلى هذا فالنظرية التي تقوم بقومية الدولةتجرنا الى الخطأمن حيث أنها تفترض ثنائية لا وجود لها في الاسلام " (2) .

و من هنا فلو تأملنا صاحب كتاب أقول الغرب ترجم تحت عنوان " تدهور " الحضارة الغربية "لشبنجلر" فاننا نلا حظ أنه حاول أن يصوب من جديد " مشكلة الانسان " على أنه مشكل حضاري لكنه " المدرك للسلبيات التي تجاوزها الزمن و التي بقيت مجر عشرة امام تقدم الشعوب نحو" المجال الحيوي الحضاري " (3) . و هي أيضا نظرة ضيقة حاولت تغطية الافكار الهدامة " بالا فكار الهدامة اذا سمح لنا التعبير و ما هو فيلسوف غربي آخر ينظر الى مشكلة الحضارة على أ نها نتيجة تصدع في المجال الاخلا قي اذا نظرنا كما يقول تنظرالى الأمور لا بالعقل بل بالغريزة يقول في هذا المعنى البرت شفيتزر " لقد فقدنا كل نظرة في الكونولهذا فاننا بدالا من أن تشيع فينا روح قوية عميقة لتوكيد الحياة والعالم - نقول فاننا نسمح لانفسنا سواء بوصفها افرادا و امدا ان تساق ها هنا هناك بنوع من التوكيد مختلط سطحي معا ، و بدلا من أن نتخذ موقفا اخلا قيا محددا نعيش في جو مسحونبالجمل الاخلا قية ان نعد أنفسنا شكاكا اخلا قيين . (4).

ثم لا يلبث أن يلاحظ هذا الخطر الذي داهم الحضارة الغربية فيقول :

" انما نمخر بالسفينة في تيار مليء بالامواج العاتية تحت شلال هائل ولا بدمهن مجهودات جبارة لا نقاذ السفينة سفينة مصيرنا و من اعادتها الى المجرى الرئيسي ان كان ثمة أمل في ذلك ابدا .(5) .

---

(1) - المرجع السابق نفسه ص 194

(2) - المرجع السابق نفسه ص 179 .

(3) - شبنغلر تدهور الحضارة الغربية د/ الشيباني دارالكتاب اللبنانيبيروت سنة 1983 ص 1042.

(4) - البرت شفيتز ر ، فلسفة الحضارة ، د/ عبدالرحمان بدوي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ص6.

(5) - المرجع السابق نفسه ص11 - * مأخوذة من الاية ... لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا .

كانت هذه مجرد ملا حظات عابرة أتينا بها شاهدين لأنه في الحقيقة اذ كان مالك بن نبي قد شخص " مشكلة الانسان "وقدم " شروط النهضة وهي شروط في رأينا كافية للخروج من التخلف بمعناه العام فانه أيضا قد أعطى الدور التاريخي الذي يجب أن يلعبه الانسان و هو دور تاريخي أعطي في نظرة من الآية :" هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .." اذ في نظر مالك بن نبي فان الدور الحضاري للانسان يقتضي منه أن يكون أولا وقبل كل شيء " شاهد" على الناس وحاكم على افعاله وحتى يمثل هذا الدور الذي تنتظره البشرية منه عليه ان يقدم دائما الواجبات على الحقوق من جهة و من جهة أخرى عليه أن تتحقق فيه شرطان (1) ، والاقتناع فالاول يعني به أن يقتنع بالفكرة القرآنية أشد اقتناع و الثانية ان يقتنع الآخرين بما يملكه من اقتناعه للفكرة القرآنية و بذلك يمكن له أن يؤدي دوره الحضاري لأنه كما يقول مالك ... فيجب أولا أن يرفع مستواه الى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك الى قداسة الوجود (2)

اذا حسب رأيه لا بدمن ارادة حضارية تلك التي تتجاوب و فاعلية " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأ نفسهم " و بذلك تصبح الحضارة هي " هذه الارادة - ارادة تحرك المجتمع .

و لقد كان من مشاريع الانسان " الجديد" المسلم حسب تصور مالك بن نبي حتى يتسنى له أن يكون في مستوى الامكان الحضاري اقامة مشروع " الكو منويلث الاسلامي" ان فكرة الكومنويلث الاسلامي هي التي و جدها تمكن الفرد المسلم من اقامة علاقاته الاجتماعية حاملة لقيمة خلقية ، وذلك بما تتضمنه من الفكرة من تقريب الشعوب الاسلامية الى غايتها المنشودة والتي هي التوجه نحو القبلة التي ترضي الله سبحانه و تعالى و هذا الحشد للطاقات بهذه الصورة وحده يقضي على افتعال بعد المسافات الجغرافية من طرف البعض ، كما تمكن أيضا هذه الفكرة من اقامة تكامل اقتصادي بين شعوب العالم الاسلامي و لاتقف عند هذا الحد بل هي التي تمد ايضا التعاون الثقافي بين اعضاء الكو منويلث الاسلامي.

---

(1) - مأخوذة من الاية " ... لتكو نوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا .

(2) - مالك بن نبي دور المسلم و رسالته في الثلث الاخير من القرن العشرين مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة 1977 ص 35.

يحددلنا مالك بن نبي فكرة الكو منويلث الإسلامي هذه فيقول :
أن الكو منويلث البريطاني في حقيقته تجمع دول ، ... بينما الكومنويلث الاسلامي يمكنه أن يكون تجمع شعوب " و يضيف " فاذا كان نموذج الكومنويلث البريطاني وضع لكي يجاوب عن الوصايا السياسية ، فان النموذج الاسلامي يمكنه أن يوجد ليضعنا وجها لوجه أما م المشاكل المحددة نفسيا و اجتماعيا ..."

le COMMONWEALTH ,BRITANIQUE EST ESCENCIELLEMENT UNE ASSOCIATIOON D'ETAT ... TANDISQUE LE COMMONWEALTH ISLAMIQUE DOIT ETRE SURTOUT UNE ASSOCIATION DE PEUPLE" (1°)

"SI LE MODELE BRITANIQUE EST CONCU POUR REPONDER A DES PREOCUPATIONS POLITIQUE , MODELE MUSULMAN DOIT ETRE CONCU POUR FAIRE FACE A FACE AU PROBLEME D'ORDRE PSYCOLOGIQUE EST SOCIALE" (2)

ان الكو منويلث الاسلامي في نظرمالك بن نبي ليس موجها فقط نحو العالم الاسلامي و انما فكرته قابلة لأن يدخل فيه أي شيء ، لأنه كما يقول : " فهو الحاوي على عناصر عضوية محايدة " للعالم " المستملك ، العناصر المكونة لهويته و اصالته الظاهرة و لرابطته ، وهو الضام أيضا العناصر النفسية و للغايات التي يمكنها أن تربط العالم الحائربالعالم الاسلامي بنفس المبدأ المشترك " (1) .

و المقصود بالمبدأ المشترك هنا هو أن نكون مالكين لضمير أخلا قي ، هذا الضمير الاخلا قي هو الذي علينا وفقط أن نملكه و لأنه أصبح المعامل الوحيد الذي يستطيع ان يكسر شوكة أصحاب " ارادة القوة " و تعني بهم الدول التي كانت الى يوم ما ومازالت تستعمر الشعوب .

انظر : 1) MALE K BEN NEBI: L'IDEE D'UN COMMONWEALTH ISLAMIQUE MOSQUE DES ETIDIANT ALGER p47.

2) IBID P47

3)IBID P22.

و يحذرنا مالك بن نبي من أنه علينا ان لا نغتر و لانترك الغرور يتسرب الى أنفسنا لتحقيق عمل شاهد كهذا والمتمثل في ايصال هذه الروح التي مازالت معنا الى "الرجل الابيض " مستعبدالشعوب ، و عمل كهذا وان كان شاقا جدا الأنه يسير " تاريخيا" حسب ما أسفرت عليه كل من عصبة الأمم أو هيئة الامم المتحدة أو مؤتمرات جنيف أو با ندونغ أو حتى اخيرا لقاء " قورباتشيف " و " ريغن " حول تحقيق السلم والسلام العالمي وحده، وان هذا العمل الذي قلنا عنه أنه شاق في الحقيقة شأنه شأن أي فكرة ، اذا ما حولنا غرسها فان العناية الالهية هي التي تتولى أمرها بعدذلك و في هذا المعنى يقول مالك بن نبي :

"LE GERME DE VIE N'EST QU 'UN SYMBOLE AU MOMENT OU LA PROVIDENCE LE DEPOSE AU SEIN D'UNE MERE" (1)

خاصة و أنه فيه البعض الكثير من عالمنا الاسلامي بلغ بهم التشاؤم حده ، فتتبعناهم معا سالكين تارة " الواقعية" وتارة أخرى فخورين بجلدتهم والحقيقة ان السالكين تحت درب " الواقعية " يعوزهم جذور هذه " الواقعية " في تاريخهم ، و لاننتظر منهم - بعدأن يصبح لهم تاريخ - أن يكونوا قدوة للانسانية لانهم بهذا فان تاريخهم غيرتاريخ الرقعة الجغرافية التي امتد فيها النفوذ الماركسي باعتبار أن تاريخ هذه الاخيرة مر بأحقاب تاريخية مميزة حتى وصل اخيرا الى فترة تقسيم العمل هذا مالم تمرعليه " الواقعية " في عالمنا الاسلامي .

و ان الظرف جد ملائم لايصال فكرتنا الى الغرب و بالخصوص فاننا في العالم الاسلامي وجدنا أنه فيه أشياء كثيرة تعفنت و ماتت فيه أشياء آخرى أكثر ، ضرورية لم تولد بعد ، اذا فالعمل عمل جماعي بالدرجة الاولى يقتضي فقط تحقيقا لـ :

أ - على الصعيد الفردي أن يحقق الفرد فكرته في نفسه و فكرته هي تلك التي تبعث من أصوله التاريخية أعني بها الفكرة القرآنية . و تحقيقه لهذه الفكرة في نفسه يعني أيضا اقتناعه بها أشد اقتناع " الايمان هو ماوقر في القلب وصدقه العمل"(1)

---

(1) - حديث شريف رواه مسلم في صحيحه .

1) MALEK BEN NEBI : L'IDEE D'UN COMMONWEALTH ISLAMIQUE P24.

و لايكتفـي بالاقتناع بها بل يقنع بها غيـره (وهو العمل المزدوج و المتكامل لتحقيق هدف الانسان الجديد عندنا في العالم الاسلامي و ان الظرف كما قلنا مواتي جــدا اذ أنـه حسب مالك بن نبي دائما فانه بقـي فقط أن تنظـر بعين خانه الى الاســلام كفكرة استطاعـت أن تنهض و تقود البشريـة يوما ما في التاريخ و نتيجة لظروف تعلقـت بالانسان الذي حملنــها فقد أخرجها بعدالحروب الصليبيـة في زي الفكـرة المتعفنـة وهـو ماأكـده عصر مابعد الموحدين أي حينما اختينت الحضارة الاسلاميــة و يتساءل مالك بن نبي في كتابه " دورالمسلم ورسالته في الثلث الاخيـر من القـرن العشريــن " حول مستقبل الانسانيــة فراغ عالم منشود في الغايـة الاخيرة للبشريــة وهي الفكـرة الاسلاميـة كما قلنا و يصل الى تأكيند هذه الحقيقـة من تحليل عميق جدا فرأى أنـه لا يمكن للبوذيـة أن تحمل الرسالة العالميـة لأنها تقوقعت منذ زمــن بعيــد في العالم الهندي كما أنه شطب عليها أيضا اخيرا السيد " ماو تســي تونـغ " تحت شعار الثورة الثقافيـة ، كما أن الفكرة المسيحية قد انتهى بها التاريخ الى عصــر سمـي بعصـر الاستعمار و تلته مباشرة فكـرة التعا يش السلمي لكــن لا يمكن لفضائح الفاتيكان أن تكمل المسيرة من جهـة و من جهة أخرى فانه لا يمكــن لحضارة فقدت مبرراتها الثقافية ـ و هي الحضارة الغربية ـ في عصر " الوجوديــة " التي تمثلها صاحب " الامنتمـــي " ذاك الذي راح يبحث عن معناه في هذا الوجود " و في الحقيقـة راح يبحث عن مبررات ثقافته هذا من الناحية الفكريـة أما من الناحية الاجتماعيـة فان ظهور حركات "الهيبيز" و " جون ترافولتا" و غيرهم سول لضميــر الحضارة الغربيـة أنها تبقـى تسبح بجناح واحد في هذا الهواء الطلق كما قــال الدكتور " محمد البهي " ، و ينبهنا مالك بن نبي الى أن الطاحونة و ان كانــت لا زالت تدور فانها لا زالت تدور بفضل " خميرة " العصورالوسطى و بفضـل عقول القرن السادس والسابع عشر و بفضل بعض الأيادي التي لا زالت متبعيـة السلم والسلام العالمي كالمنظمات و الهيئات العالميـة الخاصة بهذا الميدان اذن فان المصيــر كما سبق هو أن الموت يقتل صاحبه بحسب ذنبـه ، ولقد صدق من قال "...ليعذبنهم بذنوبكــم ..." .

.../...

و أخيرا لا حرج أن نؤكد أنه " من الملاحظات الاجتماعية أن للتاريخ دورة وتسلسلا ، فهو تارة يسجل للأمة مآثر عظيمة و مفاخر كريمة ، وهوتارة آخرى يلقي عليها دثارها ليسلمها الى نومها العميق " و فعلا ليسلمها الى نومها العميق حسب تقريرات أيضا " أفول الغرب " . انها صيحة المفكرين ، انها أيضا نذير الازمة الاقتصادية في عالم " تضخم الانتاج " انها أيضا عالة " فضائح " الفاتيكان " و هي اخيرا " يجب أن ينتهي التاريخ في نقطة ماكي يتجدد التاريخ من نقطة جديدة ... يجب أن يفشل التاريخ ، يجب أن يفلس التاريخ ، و احيانا يجب أن نعلق الافلاس كي نشعر الناس و خصوصا الشباب بان هذا الافلاس هو طريق البداية ..."

اذا مع كل هذا فان " فلسفة الانسان لا زالت في الغرب رهينة تعابيـــــر و مصطلحا ت لا تسمح بالذهن الغربي أن يتصو ر وحدة الانسان و تضامن ملا حمتـــــه على وجه الأرض ... فهناك كلمات مثل " الأهالي " و " المولود" و " الاسود" والجلد الاحمر" تعبيـــرفي الغرب عن عينات انسانية سفلى وهناك عبارات تضفي علـــى بعض الاجناس صفات أو القاب معينة الى الابد مثل " الهندي الخفي " و " الغربـي غير المكترث " و " و الصيني الغامض " ..الخ(1) .

هكذا اذا ينظرالغرب الى الانسان للاسف ليس في عالمـــه المقدس ولكـــن ينظـــر اليـه في ادنى درجاتـه الحيوانيـــة .

ان الغرب يتكلم عن الانسان من منظار هذه الشحنة العنصرية المشبعة عـــن " معامل الكبرياء " الذي استولى ولطخ ضميـــر الرجل الغربي ، و هو الذي يعاني من عقدة يسميها علم النفس " بعقدة التفوق "Complex de supériorité" " هذه العقدة يعاني منها تجاه - طبعا - اخيه الانسان .

و الانسان من وجهة نظر الغرب هذا لا يمثل سوى كائنا من كائنات الطبيعة يتميز بخاصية من خصائصها وهي " الصراع من أجل البقاء " ومن هذا فان الغرب أكد حيوانية هذا الانسان ولم يرفعه الى القداسة ، قداسة الوجود كله ، فهـو اذا ينظـــر اليه على أنه " الكم " الذي يجرب عليه ويسخرلكل الميادين التي يستولى عليها " العلم " يقول مالك بن نبي في هذا المعنى "الانسان ليس " الكم " بل " الصفـة" التي قرنها الله بالتكريم في سلالة ادم بكرم هذه الصفة بصورة مطلقة ..." فشرف الانسان محرم في الاسلام حتى في الصورة التي عليها ملا محه في قطعـــــــة من الورق (و ليس كما هو في"الثقافة " الغربية) : " انه نقطة حقيـرة على وجـــه الارض (1) .

أما الاسلام فقد أعطى الانسان كل حجمه في ضمير المسلم لأنه قيمته في هذا الضميـــر لا على تقدير الكم ولكن على أساس غيبي يجعله قيمـــة لا متناهية " (2).

---

(1) - مالك بن نبي في مهب المعركة ص 164 - 165.

(2) - المرجع نفســـه ص 165.

مع الاشارة أن مالك بن نبي يقول في شأن القرن العشرين هذا " انه بمثابة ذاك النهر العظيم الذي تجمعت فيه جميع روافد التاريخ " .

اذا " فاليفلس التاريخ و ليفلس التاريخ وعليه أن يعلن الافلاس" والا غماذ ا يقول هذا التاريخ أي تاريخ القرن العشرين أمام الترتيبات التالية في ظرف أقل من ربع قرن حربين عالميتين لم يشهد هما التاريخ قط ، عمليات التسلح التي تمت ابان الحرب الباردة والتي لا زالت الى أيامنا هذه من القنبلة الذرية الى النيترونية الى الهيدروجينية الى غزو الفضاء غزوا عجيبا الى زرع البرشينغ الى الى...

اذا مع كل هذا فان " فلسفة الانسان لا زالت في الغرب رهينة تعا بير و مصطلحا ت لا تسمح بالذهن الغربي أن يتصو ر و حدة الانسان و تضامن ملحمته على وجه الارض ... فهناك كلمات مثل " الأهلي " و " الولد" و " المولود" و الأسود " و " الجلد الأحمر " تعبير في الغرب عن عينات انسانية سفلى وهناك عبارات تضفي على بعض الأجناس صفات أو ألقا ب معينة الى الأبد مثل " الهندي الخفي " و " الغربي غير المكترث " و " الصيني الغامض" ...الخ (1) .

هكذا اذا ينظر الغرب الى الانسان للأسف ليس في عالمه المقدس ولكن ينظر اليه في ادنى درجاته الحيوانية..

ان الغرب يتكلم عن الانسان من منظار هذه الشحنة العنصرية المشبعة و " معامل الكبرياء " الذي استولى و لطخ ضمير الرجل الغربي ، وهوالذي يعاني من عقدة يسميها علم النفس " بعقدة التفوق " Complexe de supériorité " هذه العقدة يعاني منها تجاه - طبعا - أخيه الانسا ن .

و الانسان من وجهة نظر الغرب هذا لا يمثل تمت ابان الحرب الباردة والتي لا زالت الى أيامنا هذه من القنبلة الذرية الى النيترونية الى الهيدروجينية الى غز و الفضاء غزوا عجيبا الى زر ع البر شينغ الى الى....

---

(1) - مالك بن نبي ، في مهب المعركة ص 162.

الفصل الرابع

مقارنة بين الحضارة الاسلامية والحضارة الغربية

بعد تحليلنا لعناصر الحضارة ، و شروطها ، وحتى نتعرف على مبررا ت بقـاء حضارة قائمـة ، و اختفاء حضارة لا بد من أن تقلب صفحة نحاول فيها أن نجـري مقارنة بين الحضارة الاسلامية و الحضارة الغربية ، ذلك مايلخصه لنامالك بن نبـي عندما يجري هذه المقارنـة ـ طبعا لا لشيء سوى لاستخلا ص النتيجـة و " الأيام " * التي تضمن شروط بقاء حضارة في استمراريتها .

يقوم مالك بن نبي بالمقارنـة بين الحضارتين انطلا قا من بدأ هاتين الحضارتين* فيري ان الحضارة و كل حضارة تمثل في الواقع من انطلاقها شرارة الفكرة الدينيـة فـي المجتمـع الذي يكـون " خام " حتى تبعث فيـه الروح التي تنشطـه .

فالحضارة الغربية (وهي الحضارة المسيحية) بنيت على أساس ماقام به يسوع عليه السلام في بيت لحم في فلسطين ، إلا أن المسيح لما نزل في بيت لحم هناك بالبلاد التي عرفت بعدذلك ببلاد الشام كان مجيئه في الحقيقـة لا سباب واقعية و نموذجيـة بمعنى آن نزول الدين المسيحي هناك جاء بعد أن ساد الجهل و الوثنية في تلك المنطقة التي كانت مجال الصراع الامبراطو ريتيـن الرومانية و البز نطية خاصة منذ فجر التاريخ اذ فان المنطقـة كانت منطقـة مجال تصارع الأفكـار بالدرجة الاولى " والحقيقة نقـول اذ منطقة مايعرف اليوم ببلاد فلسطيـن و سوريا و لبنان " كانت منذ فجر التاريخ عمر ، اقل شيء ـ لا كثـر من حضارة " (1) . ولهذا السبب وحده نعرف و أن هاته البـلاد لما نزل فيها الدين المسيحي و جد انذاك بنـو اسرائيل ، وكما هو معلوم من القرآن الكريـم افتراء ا ت بنو اسرائيل على عيسى و الانجيل المسيحي ، " اذا فان مهبـه الوحي المسيحي حسب نظرة مالك بن نبي كان يعاني تزاحم أفكـار ـ كما أسلفناهـا و هذا السبب كان كافيا لتبرز مدى تأخر المسيحيـة في الانتشار في العالم ـ بالرغـم من أنها أتت قبل الفكـرة الا سلاميـة بحوالي 7 قرون ، هذا من جهة ومن جهة آخرى ان تأخر المسيحيـة في الانتشار عاد بالتالي الى تلك التحريفات التي منيت بهـا ،

* نقصد "بالايام " ماجاء في التعبير القرآني " و تلك الايام نداولها بين الناس "
* و ليس من واقع هاتين الحضارتين ـ الحضارة الاسلامية والحضارة الغربية بأخلاق ما تقوم بـه الدراسات الانتروبولوجية ، لكي تولدفقط فكـرة العنصرية بين الشعوب " البدائية " و الشعوب المتحضرة .

(1) ـ ويل ديورا نت ، قصة الحضارة الجزء الخامس دارالكتاب اللبناني منح خوري 70ـص ٢٠٣

خاصة بعدوفاة المسيح (تعددالاناجيل الى أكثر من واحد خير شاهد على ذلك).

و للانصاف نقول أن المسيحية لم تنتشر نتيجة لما كانت المنطقة التي ولدت فيها في تزاحم فكري هائل وعظيم .

أما الاسلام فلما كان حسب مالك بن نبي مهبط الوحي فيه هو غار حراء الذي عرف كنقطة في مكة أو اشعاع روحي و بالتالي أول دفعة للفكرة الاسلامية ، حتى أن مكة بالرغم من أنها كانت أول بيت وضع للناس - لم تعرف تلك الزحمات الحضارية التي عانتها بلاد مهبط الوحي المسيحي بل بالعكس فان مكة كانت أرضا عذراء خصبة لهذا السبب وحده تمكن محمد(ص) أن ينشر الرسالة وأن يبلغها الى المعاصرين له ممن كان على قيدالحياة ، ثم ان تبليغ الرسالة ، لم يكن ليحصل لولا أن القرآن كتاب الاسلام كان قد شد النفوس اليه فتمكنت منه و حفظته رأسا على عقب " انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون " (1) .

و من هنا أخذت الفكرة القرآنية فاعليتها - اذلم يلحق بها أي تحريف - حتى رأينا أنه خاصة على أيام صحابة رسول الله وبعدهم مباشرة فتحت البلاد الاسلامية - انطلاقا دائما من مكة والمدينة - كل من بلاد الشام و مصر والشمال الافريقي والعراق وايران حتى الهند والصين ، و توغل الاسلام بعدذلك في جنوب أوربا و أواسط افريقيا ، انها القفزةالكبيرة على مجال التاريخ - ضرف لا يتجاوز خمسين سنة .

و بخلاف هذا وجدنا الفكرة المسيحية بالرغم من انها كماقلنا انطلقت من بيت لحم الا أنها بعد وفاة المسيح تقوقعت هناك فقط نتيجة لما ذكرناه من اسباب حتى أن الفكرة الاسلامية تمر بمشكلة ما سمي بفترة الحكم الاموي وعصر الحضارة الذهبي ، و تنتهي الى عصر الانحطاط وهوما يرمز له سياسيا و عسكريا أيام سقوط غرناطة سنة 1492 .

---

(1) - سورة يونس اية 10.

خلا ل هـذه الجولا ت الحضارية التي قضاها الاسلام في هذا الرقي الحضـاري و هذه المكانة ظلـت آوربا تنتظـــر بفارغ الصبـــر ما تجلبـه لها الحروبالصليبية من عالم البلاد الاسلاميـة ، وهكذا رآينا بعدتلك المعارك كانت بدايات النهضـــة في ايطاليـا معقل " الفاتيكان " و حكمـة الله في خلقـــه : " أو لم يروا أنا نأتـي الارض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهوسريع الحســـــاب"(1)

اذن فالحضارة الغربية في نظـر مالك بن نبي هي نتيجة لـ " تخمـــر" الفكـرة المسيحيـة خاصـة لما وصلت الى نفسية الرجل الجرماني ، اذ انها بعـــد أن طاب بها المقام كما ذكرنا لم تكن لتجد سوى أن تعلن الهجرة حتى و صلت الـى الشعوب الجرمانيـة هاته ، وذلك لا سباب معقولة هي أية اذا كان مجال ظهـــو ر الديانة المسيحيـة في فلسطين و الشرق الأوسـط بصفـة عامـة فانها وجدت نفسيـة الشرقـــي مفعمـــة با فكـار صارعت الفكـرة المسيحيـة و بالتالي حملتها على الهجرة الى خارج بيت لحـم اني وجدت " الأرض العذراء " هناك في الشعوب الجرمانيـة " الشروط المتاحـــة " الملا ئمـة لأن تلك الشعوب لم تكن تعرف صراعا فكريـــا و في هذا المعنى يقول مالك بن نبي " فمن هنا نرى أن الموجة التي اغرقتالامبراطورية لم تتولد في النطاق الامبراطوري او في النطاق الجرماني بل هناك بعيدا في شمـــال آسيا " (2) .

اذا هذا خلا فا لظهور الاسلام الذي بنى حضارة اسلاميـة بالرغم من التفاو ت الزمني بيـــن الديا نتيـن لأن الاسلام نشآ هناك في مكـة الا رض العذراء وهكـذ ا و جدت الفرصـة لظهور الحضارة الاسلاميـة قبل المسيحيـة " و هكـذا تتجلى لأذهاننا حقيقـة جوهريـة في التاريخ هي دورة الحضارة وكل دورة محدودة بشروط نفسية زمنيـة خاصة بمجتمع معيـن فهي حضارة بهـذه الشروط . (3) .

---

(1) - سورة الرعـد آية 42.

(2) - ما لك بن نبي ، وجهة العالم الاسلامي عبدالصبور شهيـن ، دار الفكر دمشـق 1982 ـ ص 22.

(3) - المرجع السابق نفســـه ص 23.

اذا فبعد تلك الهجرة التي استطاعت بها المسيحية أن تولد مرتين نلاحظ عامل مهم هو ظهور القديسين في أوربا (في ايطاليا خاصة) الذين عملوا على ترسيخها في المجتمع الغربي و من جملتهم ظهور التدريس توما الاكويني * " Thomas d'Aquin " (1274م) خاصة عندما كان يهتف " انني مسافر في هذا العالم و محبط ترحالي في العالم الآخر" و ازدادت المسيحية تثبيتا عندمابدأ عالم أفكار أوربا في الظهور بداية من عصر النهضة الاوربي بتلك العقول سيرتها كالعقل الديكارتي * أو عقل الثورة الكوبرنيكية * أو غيرهم من العلماء الفلاسفة و المفكرين الذين ظهروا ابتداء من القرن الرابع عشر فالخامس وما تلتهم من قرون اضافة الى تو ترا ت الاصلاح - ثورة لوثر - التي قامت في اوربا قبل هؤلاء .

يزيدنا مالك بن نبي تحليلا عن توسع الحضارة الغربية عن ازدهارها ، فلقد استطاعت بتلك الأفكار أن تبقى عالم أشياء أوربا و تشحذ سلوك بتأثير - سواء عن وعي أو عن غير وعي - من تخمر الفكرة .

و هكذا تمكنت الحضارة المسيحية من رفع مستوى الفرد الاوربي الى مستوى " الامكان الحضاري " غير أنه يعاودالكرة وينتقدالحضارة الغربية عندما ينظر الى أن " عالم أفكار اوربا " انطلاقته سيئة اذ أنه لم يكن منطلقا الا ممثلا لفكرة أنا أفكر اذا أنا موجود" الديكارتية ولهذا لمسنا عضرا كانت فيه " الأنا الأوربية" بلغت اوج ذروتها في " التضخم .اذا فان التضخم أصاب اوربا لما تأثرت بفكرةالكوجيتو الديكارتية التي كانت مبنية على " الانانية " ".

و هكذا لمسنا هذه الفكرة نفسها أعاد بناءها ادم سميث في المجال الاقتصادي بفكرته " دعه يعمل دعه يمر " مما سبب التالي : مشكلة فتح اسواق خارج آوربا لكن دون هذه المرة " الفتح " ممثلا " بالاستعمار - طبعا لأنه انطلق من ارضاء شهوة

---

* - القديس توما الاكويني " Thomas d'Aquin " " لا هوتي ايطالي و صاحب علم اللاهوت في المسيحية ولد في 1225 وتوفي في 1274م .
* - نسبة الى الرياض الفيلسوف الفرنسي ديكارت و 1586 - 1650) .
* - نسبة الى الثورة التي اقامها كل من غاليلي و كوبرنيك في الفلك .

حاجية - فعرفنا نحن الشعوب المغلوبة على امرها بداية من القرن 15 حتى القرن العشرين عصورا مظلمة، العصور التي لم يعرف التاريخ مثلها خاصة مع بداية القرن العشرين الى أن حصل للنفسية الاوربية الشرف أن تبحث بكل الوسائل اللا أخلاقية و تسد ما تشبع به شهوتها من اسواق خارج اوربا .

و حينئذ ظهر الاستعمار كالجبروت مدعيا تحضير الشعوب الاخرى لكنه مستغلا لخيراتها - و كيف يعيش " الذئب والخروف تحت سقف واحد".

انتهى عصر الاستعمار بما " يشبه الاستقلال " لفائدة الشعوب المستعمرة ، لكنه في رأي مالك فان الشعوب لن تعرف الاستقلال و الحرية الابعد أن تتخلص من"معامل" نفسي وهو " القابلية للاستعمار" " Décolonisabilité ". يقول مالك بن نبي هناك نتيجة منطقية وعلمية تفرض نفسها هي لكي تتخلص من أثر هو الاستعمار يجب أن نتخلص من سببه وهو القابلية للاستعمار"(1).

و مالك بن نبي ينتقد فكرة ابن خلدون عن الحضارة ، بنظرتيه في الأجيال الثلاثة : " وهي نظرية ضيقة تعكس لنا النفسية الاسلامية آنذاك "(2) . و ينتقد ايضا النظرية الماركسية " التي تتعارض مع منطقها ... من الحيوانية البدائية الى عهد يسود فيه الرخاء و الضمير والحرية " (3) . و بناء على هذا كله فان مالك بن نبي ينظر الى " الحضارة " انما لا تفهم الا من دراسة لأسباب الانحطاط وليس بمعزل عن هذه الاسباب ولقد أكدنا هذه النظرة سابقا ، وهكذا بنظرة فاحصة في اعماق التاريخ الاسلامي و حضارته فيرى ان الأزمة في الحضارة الاسلامية بدأت من معركة "صفين" 37 هـ ، ففي رأيه كانت تلك المعركة بداية لتزعزع ضمير المسلم، اذ عوضا ان يصبح يتكلم بلغة الدين أصبح يتكلم بلغة السياسة . و بتعبير أدق و قع في ضميره شيء من التفرق في ماذا يتبع عالم السياسة ، أو عالم الدين ، و بايجاز فاننا نقول بأنه جعلت - أي معركة صفين -"الضمير الاسلامي"

---

(1) - راجع فصل شبكة العلاقات الاجتماعية والاستعمار في كتاب ميلاد مجتمع لنفس المؤلف و لمزيد من التفاصيل راجع فصل القابلية للاستعمار في كتاب شروط النهضة لنفس المؤلف .

(2) - مالك بن نبي ، وجهة العالم الاسلامي ص 23.

(3) - المصدر السابق نفسه ص 23.

يعتقد بأن عناك فرق بين الدين والسياسة و أز همته بأن الديــن غير السياسة ، ـ والحقيقـة لـم تكـن كذلك ابان الفجـر الاسلامي مع نزول آو ل ايّـــة من القرآن ـ (والمتتبـع للقرآن الكريم فانـه يجـدفيه دينا من سياســة الحكم و التشريعـــا ت القانونيـة الكثيرمعنى أن الديـن ضـم في جنبيـه السياسة) ، فلذا إن اختمــــال ذاك الشكـل من الدهــاء السياسي من طرف معاويـة ـ رضي الله عنـــه ـ الذي" حطـم " ذاك البنـاء الذي قام لكي يعيش ربما الى الأبـــد بفضل ما ضمنـه من توازن بيـــن عنصـــرالروح و عنصرالزمــن " (1) .

ان واقعة " صفيـــن " والتي حرض فيها معاوية الجند في الشام لكـــــي يفـو ز بالملك ضــد علي رضي الله عنـــه ـ و اتباعه ، حينما قال لجنده ارفعـــوا المصاحف على الرماح و قول " عذا حكم بيننا ، طبعا انها شكل من اشكال"الاريحيــــة " كما سماها الاستاذ محمودعباس العقاد ، و كما هو معلوم بالرغـم من أنه ردعليه بمقولته المشعورة " كلمة حق اريد بها باطل " فانه والحقيقـــة تقال أن الضميرالمسلم وقع في ذاك الوهم بين اختياره الدين أم السياسة ، كماقلنا .

و بناء على هذا لا حظنا وأن الحضارة الاسلاميـة أعطت للانسانية عصرا ذهبيـا انتج ماانتج من " العقل الاسلامي " انذاك ، و هو في هذه الحال لم تكن مثلا فـــي نظـــر مالك بن نبي مدارس علم الكلام اخوان الصفا و كل من الكندي (و803م) والفارابي(890م) وابن سينا (م 1037م) لتحل مشكلة ذاك التفكك للضميـر الاسـلامـي الذي حملته الدورتان التاريخيـة الى عصرهم حتى اننا كنا نلا حظ ذاك الشجـــــار الذي داربين " تهافت الفلاسفة " و" تهافت التهافت لابن رشد (م1198م) رمز ا و محاولـة عقليـة لاعادة بناء ذاك التفكك لذالك الضميـر ، لكن هيهــات إ، كان احسن من عبـــر عن تلك " الروحانية " التي أتت " بالمنقذ من الضلال " ولكن أيضـــا هيهات ! لأن " الداء " قـد تغشى في تقاليد وعادات المجتمع الذي واكب الغزالـي (م1111م) .

---

(1) ـ المرجع السابق نفسه ص 23.

حتى أننا ايضا لمسنا الكثير من نماذج الغزالي ، كرابعة العدوية (ق10) والحلاج (ق10) و غيرهم ، و تقاود " العقلانية " الخلدونية لتطغى هذه المرة في " المقدمة" لكن تبقى في المقدمة " حروفا ميتة " لأنه لم تكن لتكفي آنذاك مكتبات القيروان و لا بغداد و لافاس أن تعرف بالحقيقة لأن العصر عصر الانحطاط : انتى تمزقت شبكة العلاقات الاجتماعية تماما لذاك المجتمع الذي واكب ابن خلدون ، اذا فحتى العقل " يخمد اشعاعه ... عندما يفقد الانسان " قوة الايمان"(1) .

و يؤكد مالك بن نبي هذه الحقائق التاريخية فيقول : " و لكن أوضاع القيم تنقلب في عصور الانحطاط * بحيث تبدو آصا غسر الامور ذات خطر كبير ، فاذا حدث حادث انهار البناء الاجتماعي اذ هو لا يقوى على البقاء ، بمقومات الفن و العلم والعقل و حسب لأن الروح و الروح وحدها هي التي تتيح للانسانية ان تنهض و تتقدم ، فحيثما فقدت الروح سقطت الحضارة و انحطت لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك الا ان يهوي بتأثير جاذبية الارض " (2) .

و ينتقل بنا مالك بن نبي محللا تاريخيا الحضارة الاسلامية حتى يصل الى نهايتها.ففي رأيه ان واقعة " صفين " لم تكن سوى بداية " فكرة محذولة" انتقمت هذه الفكرة من العالم الاسلامي لما أصيب خاصة بداء " الرجل المريض": لما أصيب في القرون الاخيرة بالسيطرة الاستعمارية من طرف الاسبان ابان العثمانيين و من طرف الدول الاستعمارية الغربية خاصة في القرن التاسع عشر.

و للحقيقة يقول مالك بن نبي " حتى اذا و هنت الدفعة القرآنية توقف العالم الاسلامي ،كما يتوقف المحرك عندما يفقد آخر قطرة من الوقود " (2) . و فعلا فان المحرك عندما توقف فهو لما اسيب به من تعطيل ، و لايعود السبب حينئذ الى الطاقة الدافعة ، لأن هذه الطاقة الدافعة " و هنت " أي لم يعد لها مفعول في حياة النفوس الضالة ، حياة النفوس التي صدت عن الحق ، و ليس معنى هذا أيضا أن الطاقة هذه هي الأخرى لم يكن لتستطيع أن تعمل عملها كما كانت عليه سابقا ، و الا فما ذا يا ترى يقول عند تلك الحضارة التي يقال عنها انها ،

(1) ـ المصدر السابق نفسه ص 26 .

(2) ـ المصدر السابق نفسه ص 27.

أخصب الحضارات ، اذا فالمحرك " أي الذوا ت التي تتحرك " هي التي شلت سواء بالطريقة الخارجية أو الداخلية ، بالطريقة الخارجية بمعنى الاجتماعية وهي هنا " القسم " الداخلي " الحتمية " البيولوجية بمعنى " اتباع طريق الشهوا ت " الذي هو غير طريق " الهد ى " و حسب مالك بن نبي في هذه النقطة ايضا فان المسؤولية تقع على اكتافنا نحن المسلمين " الشعوب المستعمرة " لأن الاستعمار ، أوالشيطان لم يكن سوى بمثابة الراية الحمراء التي يلهو بها الثور الاسباني فعوضا أن يتوجه هذا الثور الى " الشخص" الذي يصيبه بالسهم - و هوهنا القابلية للاستعمار - فاننا نراه يتوجه الى تلك الراية الحمراء خاصة و ا ن لونها الاحمر مزعج لهذا الثور ، فكذلك نحن عوضا ان نتوجه الى تنقية افكارها و تصفيتها من ماحمله لنا عهد مابعد الموحدين ، فا ننا ترانا نلجأ الى تلك العمليات والنداوا ت و التنديدات التي تصبح الى حد ما شبيهة بالشطحات الصوفية " ولن تكفينا آلف الخطب السياسية لتغيير مابنا " (1) .

و مالك بن نبي عندما يقول كل هذا فهو يتكلم من تلك النظرة " الفطرية" حتى أنه يرى " أن الايمان لم يفقد مطلقا سيطرته في العالم الاسلامي حتى في عهود الانحطاط فالدين اذا هو " مركب القيم الاجتماعية وهويقوم بهذا الدور في حالته الناشئة حالة انتشار ، و حركته عندما يعبر عن فكرة اجتماعية " (2) .

و بعد هذا كله فان العالم الاسلامي اليوم حاول أن يقيم نهضة فماذا يقول عنها مالك بن نبي :

يبدأمالك بن نبي أو لا بأن نهضة عالمنا الاسلامي كان هناك " ظرفا" محفزا لها هذا الظرف هو " العامل الاستعماري " لقد منح نشاط الاوربي - حين منح انسان مابعد الموحدين الهاما جديدا لقيمته الاجتماعية ، حين نسف وضعه الاجتماعي الذي كان يعيش فيه راضيا وحين سلبه و سائله ... و انسان اوربا قام - دونما قصد - بدور " الدينا ميت " الذي نسف معسكر الصمت والتأمل والاحلا م " (3) .

---

(1) - مالك بن بني بين النيــة والرشاد ص 88.

(2) - مالك بن نبي وجهة العالم الاسلامي ص28 .

(3) - مالك بن نبي ، وجهة العالم الاسلامي ص42.

و من عنا تولدت الحركات التاريخيــة ممثلة في تياريـــن :

التيــار الأول : و هو الذي كانــت بدايتـه ممثلـة في ذاك السوعي المجاهـد" ابـــن تو مرت" الذي كان الحافز الروحي لاقامة دولة الموحدين في الشمال الافريقي ، وهذه الاخيرة كان لها أن تعكس - و بتواطوء من الدولة العربية - في ماسمـي بالدولـــة الوهابيــة ، التي ظهرت بقيادة الحركة الوهابية ، و بعد نصف قرن سوف يكون أيضا الضميـر الذي يستجيب لهذا العمل السياسي الذي نشأ في الشرق هو ، ضميـــر " جمال الدين الافغاني " (القرن 19 م) و تلميذه الذي يأتي بعده وهـــو " محمد عبده " (القرن 19 م) و ان الجهود التي قـد مها هو'لاء مع غيرهـــم من حركـة الا صـلا ح لهي جهود اثمرت بكاملها ماسماه مالك بن نبي بارهاص " نهضة" و ليس نهضـة للعالم الاسلامي ، لأن الأول أي " جمال الدين الافغاني " كان زعيمـا دينيا سياسيا و بهذا المعنى راح عوض أن ينهج النهج الديني والديني وحده القائم على آيـة " ان الله لا يغيــر مابقوم حتى يغيــروا مابأنفسهم " (1) .

فانه نهج نهجا سياسيا أو بالا حرى فانه رأى أن مشكلـة العالم الاسلامي مشكلـــة سياسة بمعنى أنه بمجرد تغييـــر أنظمـة الحكم (للخروج من عهـــد مابعد الموحدين). فالافغاني رأى أن المشكل سياسي كما كنا نلتمس من تلميذه محمد عبـده أيضا تكملـة الحل باعطاء حل جذري لمشكلـة العالم الاسلامي ، فان هذا الاخير رأى ايضا أن المفتاح بيده عندما كانت انطلاقتـه لتحديد ووضع أسس للثقافة الاسلامية ملخصة في ما يشبـه علم الكلا م في " رسالة التوحيد" و هو الزعيـم المعلم الاول للاصـلاح الحديث ، نظر الى ان مشكلـة العالم الاسلامي يمكن التغلب عليها بتعليـــم " الفـرد " ، " فلقـد كان الشيخ عبده يعلم علم اليقيـن ، انه لكي يتحقق الاصلا ح يجب أن يبدأ خطوته الاولى من الفرد " (2) .

ولقدكان الشيخ محمد عبـده بحاجة الى فكر ثوري كالذي كان عند استاذه جمال الدين الافغاني ، هذا الاخيـر بحاجـة نظرة الى النفس " الفردية " التي تريدوتحبب الاصلاح بمعنى أن حركة جمال الدين كان ينقصها طابع " الوعـــي الاسلامي والارشاد".

---

(1) - سورة الرعـد آيـة 11.

(2) - المصدر السابق ص 47.

اذاً كل من الافغاني ومحمد عبده ، نظران على جدى لمشكلة العالم الاسلامي فلم يكن التلميذ ليتوافق مع أستاذه - على خطة تراعي العوامل النفسية التاريخية أي تراعي أن مشكلة العالم الاسلامي هي " مشكلة ثقافة " بالدرجة الاولى و " الثقافة " هنا ليست تلك التي انحدر اليها كل من نحجم نهجاً اصلا حيا بعد النهضة ، اذ كما يقول مالك بن نبي - سواء منهم أولئك الذين تخرجوا عن المدرسة الغربية أو الذين كانوا متخرجين كأ زهريين أي عن المدرسة التقليدية... (وهنا يوءتي بنا المقام الى الحديث عن " الحرفية " فلقد العبقرية العربية أجمل لغات الدنيا ، و لكن هذه العبقرية كانت في موقفها مما ابدعت ، كالمثال الذي هام بتمثاله ، وقد أبدعه منقا شة ، و الغرام بالكلمات أعظم خطرا من الغرام ب... بالمعدن أو الرخام أو الحجر ، فهو أولا و قبل كل شيء الى أن يفقد الانسان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح" (1) .

و هكذا ترتب حسب رأي مالك بن نبي عن الاصلاح : " التعلق الواهم " بالكم " و تلخصه حتى عند الذين احتكوا بالثقافة الغربية ، والنزوع الى" الشعر" قد انفردت به شبيبة جامعة الزيتونة . " (2) .

هذا كما قلنا ماجاء به الاصلاح منذ أكثر من قرن و نصف قرن ممثلا في المدرسة الافغانية . و اما حديثا فان الحركة الاصلاحية اتخذت شكلا آخر سواء منها تلك التي تخرجت من المدارس الغربية و الممثلة في تلك الدفعات الطلابية أو تلك التي مارست نشاطها الروحي في ديار الاسلام . .

ان ماتجلى وانعكس عن ذاك الاسلاح هو " ضمير المغرب الاسلامي" الذي مثلته الحركة الاصلاحية الحديثة في الجزائر ولكم كان لها دور كبير في دفع عجلة التاريخ الى انشاء " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، تحت الزعيم الروحي لها العلامة الرائد عبدالحميد ابن باديس ويقال عنه حسب مالك بن نبي آنه الرجل الذي كان بمثابة " اشعاع الفجر" في أرض الجزائر والعالم الاسلامي ككل ، لكن المرض الذي كانت مصابة به هذه الجمعية انما هو " و كأن الجمعية تتقبل الاشياء كهدايا و تغفل عن هدية الأفكار ." (3) .

---

(1) - نفس المصدر السابق ص 52.
(2) - نفسه ص 54
(3) - قيل هذا الكلام بمناسبة اهداء كتاب مالك بن نبي شروط النهضة للجمعية غير انها لم ترد عليه بكلمة تشكل طبعا لأنه حسب رايها ، ان كاتب هذا الكتاب " فرنسي عميل الاستعمار " .

و هكذا لا حظنا أيضا تلك القفزة التي قفزتها شعوب العالم الاسلامي خاصـــة بعد عام 1952 بقيادتهم مصـــر العربية ، ومالك بن نبي معجب بذاك التطـــور الذي توصلت اليه هذه الشعوب ، غيرأنه يلاحظ عليها أنها و قفت موقفا شبيها بموقف " الزبون "الذي يشتري السلعة (لكن هذه المرة من البلاد الغربية) عوضا أن تنهج نهجا سياسيا يساعدها على توجيه ثقافتها و اقتصادها ، كما فعلته اليابان حينمـــا و قفت من الغرب موقف " التلميذ الذي تعلم " العلم " من الغرب وعمل به في بلاده .

و لايغفل مالك بن نبي الدور الذي لعبته "طاقة " جديدة في العالم الاسلامي هي تلك التي نشأت مع بداية عام 1928 تحت زعيمها الذي اقام شيئا فقدته كـــل حركات الاصلاح ذاك الذي كانت الحركة الاصلاحية بحاجة اليه بداية من الافغانـــي حتى ابن باديس فأنها قدمت نموذجا لعمل " الموءخاة " عوض انها تقيم نموذجا " للاخوة " (والذي في رأي مالك بن نبي أن " الموءخاة " أكثر روابط وأواصـــر من " الاخوة " ان هذه الطاقة الجديدة كا نت بزعيمها مثال اعادت صورة عـــن ذاك المجتمـــع المدنـي مجتمع الموءخاة بين المهاجرين والانصـــار .

الخاتمة

الخاتمـــــــــــــة

ان بحثنا هذا المتواضـــع ، كشفنا من خلا لـــه عـن بعض النتائج تتمثـــل في التالـــــي :

أو لا : ان الخلدونيـة في فكرتها عـن التاريخ كانـت قد أولـت عنايـة كبرى بتاريخ دويلا ت المغرب الاسلامي ، وكيف مرت هـذه الدويلا ت من مرحلـة الى مرحلـة أخـرى لكي تصـل أخيـرا الى التفسخ و الانحلا ل ، أو بالاحرى كيف مـر تاريخ هـذه الدول من الطفولة الى الشيخوخـة و الهرم انه مفهوم بيولوجـي لتطور الدولـة و هو بهـذا المعنى لا يفسـر لنا محتوى العلا قات الاجتماعيـة آخذا طبعـا بعين الاعتبـار العصبيـة كمفهوم بيولوجـي ، ثم وان كان كذلـك فانه يقدم لنا نموذجا للتاريخ الذي يتسـم بالدوريـة ، نضف الى هذا أن الحيـاة الاجتماعيـة هي غيـر الحياة البيولوجيـة ، فاذا كانت الاولى تحتاج الى عالـم أو مهندس اجتماعي ، فان الثانيـة تحتاج الى عالم حياة ، و هناك تباعد بيـن الحيا تيـن .

ثم انه لما انكبـت على دراسـة التاريخ كتطور لمجتمـع معيـن وهو مجتمع المغرب الاسلامي بقيـت ضيقـة في مجال الجغرافيا كما بقيت أيضا فـي مجال الشامـل للعالم .

و اذا كانت الهيجليـة رغم تأسيسها للمنطق الجدلي و اعتمادها عليـه مستعينـة بفكـرة العقل " اللوغوس" فانها لم تتمكن و قننت عقلا نيتهـا في التاريخ ، و الا فكيف بها تنطلق من أن العقل هوغايـة التاريخ الانسانـي لتعود عن قولـها بفكـرة أن الشعوب الجرمانيـة هي وحدها غاية التاريـخ الانساني و اذا كانت كذلك فبماذا تفسـر" العقـل" الذي يقييم من جهـة هذا التمييـز العنصري بين الشعوب ومن جهـة أخري فبماذا تفسـرهذا العقـل الذي باسم العقل استعمر شعوب و هل هنا ان التاريخ هو الهيمنـة والسيطرة ؟ فاذا كان كذلك فهذا يتنافى عندها مع فكـرة اخرى و ليدة العقل الا وهي فكرة الحرية ،اذا

.../...

فالتاريخ قد يأخذ تفسيرا آخر، وفعلا وجدناه مع فكرة الاقتصاد التي نالت بها الماركسية كي تكون مخلصة للشعوب من عصر يسمى"عصرالاستعمار" هذاسياسيا وكي تكون مثبتة لأسس أخرى كالعدالة الاجتماعية و السلام اجتماعيا أيضا.
فان الديالكتيك الماركسي بالرغم من أنه و جد أسسه في قلب الهيجلية.
الا ان الفكرة الماركسية تقيم السيرورة التاريخية دورة مغلقة (من المرحلة المشاعية ، الى المرحلة الشيوعية)، فيها نوع من التفسير الضيق ، و الواقع أكد لنا هذا " فالواقعية " أخرجت " العقلانية " التاريخية من المأزق و لم تخرج الانسانية من المأزق ، خصوصا وأن دائرة التنبوءات التاريخية لماركس نجحت مع شعوب " العقل " (كالشعب السويدي) و لم تنجح مع شعوب أخرى عبر قارات العالم المختلفة .

و لقد عوض تو يبنبي فيلسوف التاريخ الانجليزي فكرة طرفي المنطق الجدلي بفكرة التحدي - والاستجابة ووضع لها شروطا ، و هي محاولة منه لسن قانون ... الحركة التاريخية من جهة ، و من جهة أخرى فهي محاولة :" ضمير" استرجع انفاسه ، تلك الانفاس التي تقطعت بها الأسباب في معركة " ستالين غراد" و معركة " العلمين " و لكنها محاولة ايضا تندى لها ضميرالتعايش السلمي بعد الحرب العالمية الثانية ، و حصل لها كل هذا في اعتقادنا لأن الفكرة هي أولا و قبل كل شيء تولد في مناخ ثقافي عبر عنه عصر"غليلي" باعلانه الطلاق بين الدين المسيحي والعلم ، كما عبر عنه عصرالاستعمار بشكليه المعروف والمقنع: الجديد.و بقلب مالك بن نبي صفحة جديدة في سنه للأسس الاولى للحركة التاريخية معلنا مع مفكروا " الأزمة العالمية المعاصرة " يجب ان ينتهي التاريخ يجب ان يفلس التاريخ ، يجب ان نعلن الافلاس ، يجب ان ينتهي التاريخ في نقطة ما كي يتجددفي نقطة أخرى .

لذا فانه أقام فكرة التاريخ في حركيتها على ضوء القرآن الكريم بداية من"الفعالية " و " الوعد والوعيد" ، و مرورا برسم العوالم الاساسية لهذه الحركة التاريخية ، والمتمثلة في النشاط المشترك لكل من"عالم الاشخاص "

.../...

و"عالم الافكار" و عالم " الأشياء " نحو سمم غاية واحدة هي عالمية الحضارة
و الحضارة وحدها .

و الحقيقة أن النتائج التي توصلت اليها من خلال تفحصي لفكرة التاريخ عند مالك بن نبي هي :

أو لا : أن رسم المعالم الاولى للانطلاق في الحضارة لا يعني التحضر بل يعني امكان تحضر .

ثانيا : ان البحث في فكرة التاريخ لا يعني ابدا مدح التاريخ و البكاء على اطلاله ان اردنا أن نقيم حركة تاريخية .

ثالثا : ان حركة التاريخ أي كانت لا تأخذ بمقوماتها "بدعائمها " الاساسية هي ضرب من الشفافية للتاريخ ، و يبقى الغبار على هذا التاريخ.و رابعا ان التعامل مع الحركة التاريخية يعني أولا و قبل كل شيء شحذ المفاهيم العالمية لفكرة التاريخ.

و خامسا : ان التسلح بالعلمية لتأكيد التاريخ شيء مهم.ولكن شرط أن نضع منهجا لائقا لهذه العلمية ، أعني يجب الأخذ بمنهج " باستور " و ليس بمنهج "ديكارت " .

و أخيرا ان فكرة مالك بن نبي عن التاريخ عليها هالة من التجريدية و حتى نتمكن من الأخذ بها يجب أن نتسلح بالفكرة الفعالة تلك الفكرة التي أخرت المسيحية " قرونا وسطى " و اضطرتها الى الهجرة من مولدها ثم ان التاريخ أصبح اليوم ذا صبغة عالمية بحضارته ، فما العمل كي يصبح التاريخ حضارة انسانية .

ان الموقف صعب و خطير للغاية و هولا يؤهلنا للأخذ بما انتهى اليه عصر الاليكترون و الا وقعنا في اشكالية تقليد أثر رجل انتهت به الحضارة،برجل هو في بادرة حضارة ، و هيهات آن يتوقف الاول ،وهيهات أن يصل به الثاني . لذا علينا أن نقدم الى الارض الجذباء في اعلى الجبل ماء من أسفل الجبل يروي ضمؤها ، انه عمل مرحلة الروح - والروح وحدها ؟ . "

ملحق بالبحث

نبذة عن حياة مالك بن نبي

حياته: ولد مالك بن نبي في أول جانفي 1905 (05 ذي القعدة 1323هـ) بمدينة قسنطينة. وهو ابن الحاج عمر بن الخضر بن مصطفى بن نبي (1) انتقل إلى تبسة حيث تعلم القرآن، ودخل المدرسة (2) نال بها شهادة الدراسة الابتدائية بدرجة جيد. انتقل بعدها الى التعليم الثانوي بقسنطينة، فكان يحضر دروس الفقه للشيخ ابن العابد، ودروس النحو العربي والصرف على الساعة السابعة من كل صباح - قبل الالتحاق بالثانوية، في الجامع الكبير.

وبدأ يميل الى المطالعة منذ الصغر، فقرأ "لجول فرن" وتذوق العبقرية الشعرية الجاهلية وشعر العصر الأموي والعباسي، وبصورة عامة تطلع على الشعر العربي من أمرئ القيس حتى شعراء المهجر.

وفي سنة 1925 أنهى دراسته الثانوية، وألتحق في صيف نفس السنة بفرنسا بحثا عن العمل، ولكنه سرعان ما رجع ونضل العمل في بلاده حيث عين في "أفلو" في شهر مارس سنة 1927 (3) وعلى الرغم من أن مرتب المحاكم بالنسبة للأهالي كان ضئيلا إلا أن مالكا كان هدفه مناقشة الفرنسيين في هذا المنصب، وكان بهذه المناسبة سببا في دخول أول عدد "للشهاب الى أفلو" (4).

---

(1) عمار طالبي، مالك بن نبي، والحضارة، مجلة الثقافة 18 السنة 3، نوفمبر ديسمبر 1973 ص 10.

(2) مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن الطفل، ت مروان القنواتي ط1 دار الفكر بيروت 1969 ص 26.

(3) ابن نبي، الطفل ص 305.

(4) نفس المصدر ص 303.

وبدأ خبرته السياسية والاجتماعية تتكون ،حيثأنتقل في السنة الموالية الى شلغوم العيد وبجفوت المعاملة من طرف المستعمرين فضل الاستقالة .(1)

كما فشل بسبب الأزمةالاقتصادية العالمية سنة 1929 في الاشتغال في مطحنة(2) وبدأ يفكر في كيفية العمل في وقت كانت الادارة الفرنسية تحضرلعيد مضي مئة سنة على أحتلال الجزائر وكان لهذا الحدث الاثرالكبير في نفسه . وفي سنة 1930 أنتقل الى فرنسا لغرض الدراسة زأجرى امتحان الدخول " لمعهد الدراسات الشرقية" ،زار على اثره متحفا للفنون والصناعات ،كان ذلك سببا في تفكيره لأول مرة في مشكلة الحضارة .(3)

لأنضم الى " الوحدة المسيحية للشبان الباريسيين " وأكتمل فيها تكوينه باطلاعه على الجانب الروحي للحضارة الغربية ،كما أن معرفته لصديق أوربي كان يأخذه معه الى بيته أطلعته عن الحضارة والحياة الأوروبية من الداخل في اطار عائلي (4) ولما سجل نفسه في المعهد اللاسلكي ،تعرف على الحضارة الغربية من جانبها النظامي .

ولم يعد يفكر في مركز اجتماعي بل أصبح يشعر وكان المجتمع الجزائري والاسلامي ككل " ليحقق له الخلاص بفضل دراسته" .

وفي الحي اللاتيني كان يدعوا الى الاصلاح والوهابية والوحدة المغربية(5) .

وفي سنة 1931 تزوج شابة أوربية أخذت على عاتقها حياته المادية في البيت وأنتظمت بذلك حياته في البيت ،بعد أن هداها الله فسمت نفسها خديجة ،ومع زيارة صديقه حمودة بن الساعي كانت تدور مناقشات علمية ،سياسية ،دينية ،اجتماعية ،فاهتم

---

1) المصدر السابق نفسه ص344 .
2) المصدر نفسه ص346 .
3) مالك بن نبي مشكلة الحضارة مذكرات شاهد القرن" الطالب" المؤلف ط1 دار الفكر بيروت بيروت 1970 ص11 ،12
4) المصدر نفسه ص24 .
5) المصدر نفسه ص43 .

بالفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ أكثر من أهتمامه بمواد مدرسة اللاسلكي .

ونظرا التكوينه العلمي واستعداداه للدراسات النظرية ،فقد ألتحق بمدرسة الكهرباء والميكانيك ،التي ظل بها الى سنة 1935 .

عاد الى الجزائر سنة 1939 ،ومالبث أن قرر العودة الى فرنسا .

زار ابن نبي عدة بلدان ،كالصين ،وأندونيسيا ،وأمريكا ،والاتحاد السوفياتي وألمانيا[1]

كما أدى فريضة الحج عدة مرات ،وفي عام 1956 أقام بالقاهرة كلاجيء سياسي ،وهناك كان نشاطه يتمثل في عقد مجالس أسبوعية مع طلبة العالم الاسلامي ،يوقظ فيها العقول [2] .

لما حصلت الجزائر على استقلالها عاد اليها فعين مديرا للتعليم العالي وعلى غرار نشاطه في القاهرة أصبح يعقد مجالس أسبوعية مع الطلبة ،وفي الأحياء الجامعية

وفي عام 1967 أستقال من منصبه وتفرغ للبحث والنشاط الفكري وتنظيم الندوات

أنتقل ابن نبي الى جوار ربه يوم الأربعاء 4 شوال 1393 هـ الموافق لـ 31 أكتوبر 1973 بمنزله [3]

مؤلفاتـه :

- الظاهرة القرآنية
- وجهة العالم الاسلامي
- شروط النهضة
- مشكلة الثقافة
- ميلاد مجتمع
- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة
- مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي
- حديث في البناء الجديد
- النجدة للجزائر
- في مهب المعركة

---

1) عمار طالبي ،الثقافة ص 11

2) المصدر نفسه ص 11

3) عمار طالبي ص 11 .

- آفـــاق جزائريـــــــة
- بيـــن التيـــه والرشـــــاد
- تأمـــــــلات
- المسلـــــم في عالم الاقتصـــــاد .
- فكرة الافريقيـة الآسيويـــــــة
- فكرة كومنويلـــث اســـــلامي
- دور المسلـم ورسالتـه في الثلث الأخير من القرن العشريـن
- مذكرات شاهـد القـــرن : الطفـــل
- مذكرات شاهـــد القــــرن : الطالـــب
- الاستعمـــار يلجأ الى الاغتيـــال بوسائل السلـــم .

فهرس المصطلحـــات

العصبيـــة

التطـــور L'EVOLUTION

الجدليـة الهيجليـة DIALICTIQUE.H

بـــدائـــــي PREMITIF

متحجـر أوراكـــد = متخلف أو غير نامـي

النهضـــــة RENAISSANCE

الانتربولوجيـا علـــم ENTROPOLOGIE

الانثوغرافيا علـــم ENTNOGRAPHIE

الماديـــــة MATERIALISME

الطفـــــرة = التغير المفاجيء في علم البيولوجيا

معامـــــل COEFICIENT

الفعاليـــة L(EFICACITE

الضرف الاستثنـائـي

البذرة الدينيـــة

التحـــــدي LE DEFIT

الاستجابـــة

الدافـــع الحيوي

" الحالة " ETAT " الوضع النفسي والاجتماعي والاقتصادي لشعب ما

الروحيـــة

النمـــو = LA GERMINATION

المجتمع التاريخـــي SOCIETE HISTORIQUE

المجتمع السياســـي SOCIETE POLITICIENE

الوعد والوعيـــد

الوجوديـة التصـــوف L'EXITANCISLISME

حوار الحضـــارة DIALOGUE DE CIVILISATIONS

الافراط والتفريـــط

المعتزلـــــة	
الميكانيكا الكلاسيكيـة	
القضيـــــــة	THESE
نقيض القضـــــة	ANTITHESE
التركيب بين القضيتيـــن	SIçTHESE
الجدلية التاريخيـــة	DIALICTIQUE HITORIGHE
عالم الأشخـــــاص	LE MONDE DE PERSCNNES
عالم الأفكـــــار	LE MONDE DES IDES
عالم الأشيـــــاء	LE MONDE DES CHOSES
حضـــــارة	CIVILISATION
ثقـــافـــة	CULTURE
بادرة حضـــــارة	
شبكـة العلاقـات الخارجيـة	
المؤاخـــــاة	
" اللاثقـافـــــة	
" اللاتاريـــــخ "	
المناعيــــــات	LES ANTI.CORPS
الصناعـــة الفـــن	TICNIQUE
رأس مـــــال	CAPITAL
علـم الأجنـــــة	EMBRIOLOGIE
العقـــلانيـــــة	LE RATINALISME
مجتمـــع قبـــل التحضـــر	SOCIETE PRES _ civilisr
مجتمـــع التحضـــــر	socite_CIVILISE
مجتمـــع مابعـــد التحضـــر	SOCIETE APRES _SIVILISE
الجاهليـــــة ≠ الاســـــلام	
الأفكـــار القاتلـــــة	
الأفكـــار المخـــذولـــة	
الأفكـــار الصادقـــــة	

الاقنـــــاع
الاقتنــــاع
" روح السامرائيـــة"
التطعيم الزراعـي
قتلـة الافكــار LES IDEOPHASES
رجل مابعـد الموحديـن
" الشيئيــة"
الحرفيـة في الثقافـة
التعالم= رفعايـات الثقافـة بدعوى التثقيـف
ذهان السهولــة psycose_ d'efacilitè
البوليتيكـا= الحرفيـة في السياسـة
الامكان المالـي = LE POUVOIRE FINANCIER
الامكان الاجتماعـي = LE POUVOIRE SOCIALE
الايديولوجيـة Ideologie
" الزردة" السياسـية :
" الحاجـــة"
المنوعــة
الاجتمــاع
منتــوج حضـاري produit de civlisation
الافروآسيويـة : الافريقية الآسيويـة AFRO_ASSIATIQUE=
الملكـي الرسمالـي
الاسلام الاشتراكـي المنطـق العلمـي
الذوق الجمالـي
الانفصــام
انسـان+ تراب+ زمـن
التــراب= LE SOLE

الاستعمــــــار LE COLONIALISME

القابليــــةللاستعمــــار LA DECOLONISOBILITE

مرحلـــة الغريزة (الفطـــرة)

مرحلـــة الروح

مرحلـــة العقـــل

إرهاص نهضــــــة

الاجتهـــــاد

الكومنويلـــث الاسلامـي " COMWWEALTH ISLAMIQUE "

الفكـــر الواقعـــي

الصـــراع من أجـــل البقـــاء

عقدة التفـــوق "COMPLEX DE SUPERIORITE"

الأهلـــــي INDIAgENE

المدرســة التقليديــــة

المدرســةالحديثـــة

فهــــــرس الاعـــــــلام

فهرس المصادر والمراجع

1 ـ المصادر باللغة العربية

1 ـ مالك بن نبي : شروط النهضة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ط4 دار الفكر ، دمشق (1981)

2 ـ مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ترجمة عبد الصبور شاهين ط4 دار الفكر ، دمشق (1981)

3 ـ مالك بن نبي : دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين ، ترجمة عمر كامل مسقاوي ط4 اصدار ندوة مالك بن نبي ، دار الفكر دمشق (1983) .

4 ـ مالك بن نبي : آفاق جزائرية ترجمة : الطيب الشريف ط4 ، مكتبة النهضة الجزائرية (بدون تاريخ) .

5 ـ مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ، ترجمة عبد الصبور شاهين ط4 دار الفكر ، دمشق (1974)

6 ـ مالك بن نبي : وجهة العالم الاسلامي ترجمة ، عبد الصبور شاهين ط4 دار الفكر دمشق (1981) .

7 ـ مالك بن نبي : تأملات ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، ط4 دار الفكر دمشق ، (1979)

8 ـ مالك بن نبي : مشكلة الثقافة ، ترجمة ، عبد الصبور شاهين ط4 دار الفكر ، دمشق (1981)

9 ـ مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي ، ترجمة ، محمد عبد العظيم علي ط4 دار الفكر دمشق (1981) .

10 ـ مالك بن نبي : فكرة الافريقية الآسيوية ، ترجمة عمر كامل مسقاوي ، ط4 دار الفكر دمشق (1981) .

11 ـ مالك بن نبي : الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، ترجمة بقلم المؤلف ط4 دار الفكر دمشق (1981) .

12 ـ مالك بن نبي ، حديث في البناء الجديد ترجمة وتقديم ، عمر كامل مسقاوي ط4 المكتبة العصرية ، صيدا بيروت (بدون تاريخ) .

13 ــ مالك بن نبــي : المسلم في عالم الاقتصاد ترجمة عبد الصبور شاهين ط4 دار الفكر ، دمشق (1981) .

14 ــ مالك بن نبــي : في مهب المعركة ترجمة عبد الصبور شاهين ط4 دار الفكر دمشــق (1981) .

15 ــ مالك بن نبــي : بين الرشاد والتيه ترجمة : عبد الصبور شاهين ط4 دار الفكر دمشق (1981) .

16 ــ مذكرات شــاهد القرن الطفل ، الطالب ، ترجمة : مروان القنوات وترجمة المؤلف ط4 دار الفكر بيروت (بدون تاريخ) .

المراجع باللغــة العربيـــة

ــ ابن خلدون ، المقدمــة تحقيق محمد عبد الواحــد وافي ط2 مطبعة لجنة البيان العربي (بدون تاريخ) .

ــ أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ ط1 دار الثقافة بيروت (بدون تاريخ) .

ــ أرنولد توينبي ، مختصر لدراسة التاريخ ترجمة ، فؤاد محمد شبل الادارة الثقافية جامعة الدول العربية (بدون تاريخ) .

ــ أرنولد توينبي : الفكر التاريخي عند الاغريق من هوميروس الى عصر هيراكليتس ترجمة : محي المطيعي ط1 مكتبة الانجلو مصرية (بدون تاريخ) .

ــ أرنست كسيرر : الدولة والتاريخ ترجمة : عادل زعيتر دار مكتبة الحياة بيروت لبنان (1978)

ــ ألبيرت شفيتزر : في فلسفة الحضارة ترجمة : عبد الرحمن بدوي المؤسسة المصريــة العامة للطباعة والنشر القاهرة (1982) .

ــ ألبان ويدجيري : التاريخ وكيف يفسرونــه ترجمة : عبد العزيز توفيق جويد الهيئــة المصرية القاهرة (1982) .

ــ ألكسيس كاريــل : الانسان ذلك المجهول ترجمة : شفيق أسعد فريد ط3 مؤسسة المعارف بيروت لبنان (1980) .

ـ جعفر حسين حصباك : في تفسيرالتاريخ ،منشورات مكتبة النهضة بغداد (بدون تاريخ)

ـ جماعةمن الأساتذة السوفيات . المادية الديالكتية ترجمة: فؤاد مرعي وآخرون
دارالجماهير ،دمشق (بـ ـدون تاريخ)

ـ روجي غارودي : رجاء غارودي ،حوارالحضارات ترجمة: د/عادل العوا منشـــورات
عويدات بيروت باريس(1979) .

ـ السحراني : مالك بن نبي مفكرا اصلاحيا ،دار الفكر بيـروت (1984) .

ـ سيد قطـب : معالم في الطريق ط4 منشورات ،دار الشروق ،بيروت لبنان(1981) .

ـ سيد قطب : خصائص التصور الاسلامي ،ومقوماته ط2 ،دار الشروق ،بيروت،
القاهرة (1983) .

ـ سيد قطـب : في التاريخ فكـرة ومنهاج ،دار الشروق ،بيروت (1981) .

ـ سيغمونــد فرويــد : قلق في الحضارة ترجمة: جورج طرابيشي ط2 دارالطليعة
للطباعة والنشر بيروت (1979) .

ـ شبنغلر أسوالد : تدهور الحضارة الغربيـة ترجمة : أحمد الشيباني ،دارمكتبـــة
الحياة بيـــروت (بدون تاريخ) .

ـ عمر كامل مسقــاوي : نظــراتفي الفكــر الاسلامي ،ومالك بن نبي دارالفكر،دمشـق
(1983)

ـ عماد الدين خليــل : ابن خلدون اسلاميا ط1 المكتب الاسلامي بيروت (1983) .

ـ عماد الدين خليل : التفسير الاسلامي للتاريخ ط1 دارالعلم للملايين بيروت(1975) .

ـ عبد الرحمن بدوي : نيتشـه ط5 وكالة المطبوعات الكويت (1975) .

ـ عبد العزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب منشورات عويدات بيروت
لبنان(بدون تاريـخ) .

ـ عفيـــت الشــرقاوي : في فلسفـة الحضـارة الاسلامية ط3 دارالنهضة العربية للطباعة
والنشـر بيـــــروت(1981) .

ـ غاني التوبة : تقويم الفكر الاسلامي ط1 دار القلم القاهرة (1976) .

ـ عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ ترجمة كاضم الجوادي ، الدار الكويتية ، للطباعة والنشر (بدون تاريخ) .

ـ عكاشة شايف : الصراع الحضاري في العالم الاسلامي ، ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية بن عكنون ، الجزائر (1984) .

ـ محمد اقبال : تجديد التفكير الديني في الاسلام ، ترجمة : عباس محمود ط2 لجنة التأليف والنشر القاهرة (1968) .

محمد عابد الجابري : العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي الدار البيضاء المغرب .

ـ محمد باقر الصدر : اقتصادنا دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان (1980) .

ـ المودودي أبو الأعلى : نحن والحضارة الغربية ط1 دار الفكر بيروت لبنان (1979)

ـ مهرجان : ملتقى الفكر الاسلامي بالجزائر ، فصل الحضارة لمالك بن نبي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر (1973) .

ـ معجم العلوم الاجتماعية : تحقيق علي عبد الواحد وافي ، دار العلم للملايين القاهرة (1970) .

منح خوري : التاريخ الحضاري عند توينبي ، دار العلم للملايين بيروت (بدون تاريخ) .

ـ مهرجان ابن خلدون : القاهرة (1962) .

ـ أنجلز فريد ريك : التفسير الاشتراكي للتاريخ (مختارات) ترجمة : راشد البراوي ط2 دار النهضة العربية (1968) .

ـ كولين ولسون : اللامنتمي : ترجمة : أنيس زكي حسن ط3 دار الآداب بيروت (1982) .

ـ هرنشو : علم التاريخ ترجمة : عبد الحميد عبادي .

ـ هيجل (ج ، و ، ف) العقل في التاريخ ترجمة : امام عبد الفتاح امام ، التنوير بيروت (1981) .

- ولش (هـ) : ترجمة د/ أحمد حمدي محمود ط1 المدخل الى فلسفة التاريخ منشورات دار الحداثة ،بيروت(بدون تاريخ) .

- ويل ديوارانت : قصة الحضارة الجزء الخامس ترجمة ،منح خوري ،دار الكتاب اللبناني (1970) .

- زكي نجيب محمود : الموسوعة الفلسفية المختصرة ،ترجمة مجموعة أساتذة عن الانجليزية ،دار القلم بيروت،لبنان (بدون تاريخ) .

- جيمس وير : المذاهب الكبرى في التاريخ ،دار القلم ،بيروت ،1972 .

- الدوري عبد العزيز: فلسفة التاريخ : مجلة عالم الفكر الكويت ،مجلد 2 العدد 2

- العلي ،صالح أحمد : تفسير التاريخ ،مطبعة الارشاد ،بغداد ،(بدون تاريخ) ؛

- مسلم عبد الرازق : نظرية ابن خلدون في الدولة ،مجلة الطليعة ،القاهرة العدد 13 (1966) .

- موسى حسين : الحضارة ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت سلسلة عالم المعرفة (1978) .

- هوركهايمر ماكس - بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية ،ترجمة محمد علي اليوسفي ،دار التنوير بيروت (1981)

- زينب الغزالي (أيام من حياتي)

- فصل الفعالية " الهامش "

- الشهرستاني : الملل والنحل :

- محمود قاسم ،نصوص مختارة من الفلسفة الاسلامية ،مكتبة الانجلو المصرية " بدون تاريخ)

الـدوريـــات

ـ 1ـ عمـارالطالبـــي : مالك بن نبي والحضارة ،مجلة الثقافة(1973) العدد 18

ـ 2ـ مالك بن نبـــي : الحضارة مجلة ،ماذ أعرف عن الاسلام؟ ،مسجد الطلبة الجـــزائر.(1973) العدد 10

ـ 3ـ مالك بن نبـــي : فكرة الافريقية الآسيويـة ،مجلة الجزائر الأحداث(1970) العـــدد 13 .

ـ4ـ مالك بن نبـــي : السياسة والايديولوجيا ،مجلة الجمهورية (1968 العدد 8.

ـ5ـ محمد الهادي الحسني : حدثنا مالك بن نبـي قال جريدة العصر(1985) العدد 12 .

فهـــرس المراجـــع باللغـــة الفرنسيـــة

-A. Toymbeé, Lhistoire, Edition Seuil Paris 1980.

-A. Toumbeé , Guerre et Civilisation. E Gallimard Paris 1953.

-A. Coligne- wood. Edition Gallimard Paris1980.

-F. Engels, La famille - Sainte Edition Seuil Paris 1980.

-Engels - Marx, Les premieres critiques de l'économie politique. U.G.E Paris 1976

- J.hypolite,La philosophie de l'histoire E. Seuil Paris 1984

- M. Bennabi,l'idée d'un commun wealth islamique imprimerie de la faculté d'Alger 1971.

- M Be.Hnabi,de l'orientalisme Imprimerie de la faculté d'Alger1970.

- M Bennabi, les grands thèmes , Edition Enahda ,Alger 1974.

- R Garaudy, Appel au vivant , Edition du seuil Paris 1983.

- R Garaudy, Parole d'homme Edition du Seuil Paris 1983.

- R Garaudy, La Philosophie de hegel , Edition Poyot Paris 1982.

- R Arom , critique de la philosophie de l'histoire Edition Gallimerd

- R Garaudy, Promesse de l'islam, Edition du Seuil Paris 1983.

- Karl, Marx , Manifeste communiste , UG.E. Paris 1976.

- Karl Marx Critique de l'etat hegelien U.G.E Paris 1976.

La coste (Yves) . Ibn khaldoune, Naissance de l'histoire passé du tier monde E Pointe Paris 1977.

- La Rousse grand la rousse encyclopédique . E la rousse Paris 1985.

فهـــرس الآيـات القرآنيـــة

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس

مقدمة: